تحذيرُ الغافلين

من خَطَرِ الهُزْءِ بالدين

الطبعة الأولى/ دار طيبة – الرياض ١٩٩٧

الطبعة الثانية/ دار المأمون – ٢٠١٣

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٣/٦/١٩٥٣)

٢٤٥
الباشا، جمال محمد
تحذير الغافلين من خطر الهزء بالدين/جمال محمد الباشا._
عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
(٢٤٤) ص
ر.أ: (٢٠١٣/٦/١٩٥٣).
الواصفات:/دفع المطاعن عن الإسلام//الإسلام/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ردمك ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٧٧-١٧٢-٠

لمراسلة المؤلف : albashah67@ymail.com



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

تحذيرُ الغافلين

مِن خَطَرِ الهُزْءِ بالدين

جمال الباشا

المأمون
دار المأمون للنّشر والتوزيع

قال تعالى:

﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥]

قال رسولُ الله ﷺ:

(إنَّ العبدَ لَيَتكلَّمُ بالكَلِمَةِ ما يَتبيَّنُ فيها، يَزِلُّ بها في النـار أبعدَ ممَّا بينَ المَشرق والمَغرِب)

متفق عليه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمدُ لله ذي الجلال والإكرام، الأوَّلِ بلا ابتداءٍ والآخرِ بلا انتهاء، خَلَقَ الخلقَ من عدَم، وأوجبَ عبادتَه وتعظيمَه على الخلائق، وعرَّفَهم بجلاله وكماله وعظمته وكبريائه، فما قدَرَه حقَّ قدره منهم إلا صفوةُ خلقه وخُلَّصُ عباده .

وأصلِّي وأسلِّمُ على معلِّمِ الناسِ الخيرَ، البشيرِ النذيرِ، والسراجِ المُنيرِ، محمدِ بنِ عبد الله، أعلمِ الخَلْقِ بالخالقِ، وأعرَفِهم بقدْرِه وجَلاله، وأطوَعِهِم لأمرِهِ ونهيه، أتقى العباد وأخشاهُم له جلَّ في علاه.

وأترَضَّى عَمَّن رضيَ اللهُ عنهُم ورَضُوا عنه، ممَّن اختارَهم اللهُ لصُحبةِ نبيِّه ﷺ من السابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار ، أَرَقِّ الناس أفئدَةً ، وأصدقِهِم لهجةً ، وأعفِّهم لساناً ، وأَرفعِهِم مقاماً .

وأَتَرضَّى عمَّن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، وبعد ...

فقد كتبتُ هذا الكتابَ قبل ثلاثٍ وعشرين سنة[1]، وقد جاءت الكتابةُ تلقائيةً غيرَ متكلَّفة، ولم تكن ظروفُ الكتابة مثاليةً، فقد كنت مُسافراً

(١) وكان عنوانه (الحذر بمعرفة أنَّ من هزَأَ بالدين كفر) وقد بدا لي أن أبدله بما عليه الآن.

بالقطار مسافةً طويلةً، ودوَّنتُ مادَّتَه الأولى أثناءَ رحلتي، ومن ثمَّ قمتُ بنقل الشواهد وأقوال العلماء عندما تيسَّر لي ذلك لاحقاً، فلم أعتمد منهجَ البحث العلميِّ على أصوله المتَّبَعة لدى المؤلِّفين عندَ كتابة بحثٍ علميٍّ، وبالرغم من ذلك فقد كان مُرْضياً لي في تلك المرحلة إلى حدٍّ كبير، لأَنَّني استطعتُ أن أُؤَصِّلَ لفكرتي وأُبرئَ ذمَّتي أمامَ الله تعالى، فلم أدَع الفكرةَ حبيسةَ صدري، مكتفياً ببثِّها في دروسٍ ومحاضراتٍ متباعدة، أو في مجالسَ خاصَّةٍ أو عامَّةٍ عند المناسبة.

لقد شعَرتُ بخطورةِ السكوتِ والإغفال لهذا الأمرِ الجَلَلِ، فكانت كتابتي نفثةَ مَصدور، ولوعَةَ مقهورٍ، نُصحاً ومحبَّةً لأَهلِ الإيمانِ، وتحذيراً وإنذاراً لأَهل الفسقِ والعصيان.

لقد يسَّر اللهُ تعالى طباعةَ الكتاب[1]، ونفدَتْ طبعتُه الأولى في فترةٍ معقولة، ولم أشأ أن أُعيدَ طباعتَه على الفَور، لأنَّني كنتُ أظنُّ أنَّ الكتابَ لكي يُطبَعَ من جديدٍ فإنَّه بحاجةٍ إلى مراجعةٍ متأنِّيةٍ، وإعادةِ إخراجٍ، بإضافةِ مباحثَ جديدةٍ تتمُّ بها الفائدةُ، مع اعتقادي أنَّ مادةَ الكتاب بطبعتِه الأولى كانت كافيةً في إثباتِ الفكرةِ وتأصيلها، والاحتجاجِ لها، والإقناع بها.

وبعد مُضيٍّ نحو عَقدين من الزمان، وقد وجدتُ نشاطاً في نفسي،

(١) طبعته " دار طيبة للنشر والتوزيع " سنة ١٤١٧ هـ.

وانشراحاً في صدري، وفسحةً في وقتي، قمتُ بطباعة الكتاب من جديد، لكي يخرُجَ بالصورةِ والقالَبِ الذي أقتنعُ به أولاً، ويكون مقنعاً للقارئ ثانياً.

لقد حاولتُ في هذا الكتابِ أن أُعالج مُشكِلاً خطيراً في أوساط المسلمين المحسوبين على الالتزام والصلاح والاستقامة، بل على العلمِ والدعوةِ وهدايةِ الخَلق، وهو وقوعهم في الاستهزاء بدينهم وقرآنهم ومقدَّساتهم من حيثُ لا يتصوَّرون أنه يهدِّدُ إيمانَهم ويُعرِّضه للنَسْفِ من القواعد.

لستُ مُندَفِعاً ولا مُتحمِّساً لإطلاق الأحكام جُزافاً على أبناء ملَّتي، وليس لديَّ شهوةٌ ولا رغبةٌ في تكفير إخواني في عقيدتي ـ معاذ الله ـ، لكنَّ رغبتي ورجائي أن آخذ بأيديهم إلى بَرِّ الأمان، وأن أصونَ إيمانَ أحبابي الذين أحبُّ لهم ما أحبُّ لنفسي، من أن ينقُضوه من حيثُ لا يشعرون.

فلا تعجَل عليَّ أيُّها الحبيبُ، ولا تتسرَّع في تصنيف الكتاب وكاتبه قبلَ أن تقرأَ كلَّ جُملةٍ فيه بتَؤدَةٍ ونَصَفٍ وتَجرُّدٍ للحَقِّ، وتزنَه بميزانِ الشرعِ والعدلِ، لا ميزان الهوى والظنِّ، فهي صيحةُ نذير، من شرٍّ مستطير، لعلَّها تُصادِفُ آذاناً صاغيةً وقلوباً صادقةً واعية، واللهُ من وراء القصد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

جمال الباشا

٧ شعبان/ ١٤٣٣

المقدِّمة

قد يتبادرُ إلى ذهنِ قارئِ عنوانِ الكتاب أنَّ الفئةَ المعنيةَ بفحواهُ هي طائفةُ أعداءِ الدين من الكفَرةِ والمشركين، على مِنوال سَلَفِهم من المكذِّبين للرسل في الغابرين، إلا أنَّ خطابَ الكتاب في الحقيقة غيرُ موجَّهٍ إلى هذه الفئة، ولا هي المقصودةُ من تأليفي له، ذلكم أنَّ سُخريةَ أهل الباطل من أهل الحقِّ ليست مُستغرَبةٍ ولا مُستهجَنةٍ، بل هي سنَّةُ المجرمين من قَبلُ، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الحجر:١١]

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[الأنعام:١٠]

وقال تعالى عن نوحٍ عليه السلام:

﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ [هود:٣٨]

وقال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ﴾[الجاثية]

لم يكن الباعثُ لي إذن على الكتابة في هذا الموضوع، أنَّ أعداءَ الإسلام بكلِّ أشكالهم وطوائفهم يَسخَرون من ديننا وقرآننا ونبيِّنا عليه الصلاة والسلام، فهذا أمرٌ لا يخرجُ عن دائرة السُنَن القَدَرية والاجتماعية، لأنَّه نَتاجُ الحسد والحقد والاستكبار على الحقِّ، وثمرةٌ نكِدَةٌ للغيِّ واتِّباع الهوى، ونُقصان العَقل والرُّشد.

ولقد ألَّفَ العديدُ من علماء الإسلام وأئمَّتِهم كتُباً ورسائلَ في الاستهزاء بالدين وخطورته، ولم تكن الفئةُ المقصودةُ في عُموم ما كُتِب تتجاوزُ أعداءَ المسلمين وخصومَهم من الكفَرَةِ والملحدين والعَلمانيين والحَداثيِّين والليبراليين ومن لَفَّ لفَّهُم، وبعضُها تضمَّن إشاراتٍ وعباراتٍ هامشيةً أحياناً، تُحذِّرُ أبناءَ المسلمين من الردَّة، بالوقوع في هذا الناقض الخطير من نواقض الإسلام العَشَرة، التي اتَّفق عليها علماء الإسلام بلا خلاف، وهذه الإشارات كانت كذلك تشيرُ في الغالِب إلى عباراتٍ فيها امتهانٌ لاسم الله تعالى، أو انتقاصٌ لكُتُبِهِ أو رسُلِه ونحو ذلك مما يصدُرُ عن الفَسَقة من عُصاة المسلمين، تحذِّرُهم من الردَّة عن الإسلام بذلك.

لقد أجادَ علماؤنا وأفادوا، وذكَّروا فنَصَحوا لربِّهم ولكتابهم ولرسولهم ولدينهم وكذلك كان نصحُهم لأَبناء مِلَّتِهم.

لعلَّك أخي الكريمُ تتساءلُ فتقول: إذا كان ذلكَ كـذلك، فمـا الـداعي إذن لتأليف مثل هذه الرسالة؟ وما الذي ستُضيفُه علـى مـا كَتَبَـه الأوَّلـون؟ ومَن هي الفئةُ المعنيَّةُ التي تستهدِفُها؟

فأجيب :

إنَّ الكتابةَ في هذا الموضوع قد فرَضَت نفسَها علـيَّ فلـم أجِـد مَناصـاً منها، ووجدتُ نفسي مُضطرًّا لها، حينما رأيتُ موجةَ الهزْل والعبَث تمتدُّ إلى أبناء المساجد، وطلبة العلم، وقُرَّاء القُرآن، وحمَلَةِ الشهادات العُليا في علوم الشريعة، بل أقولها ـ والقلمُ يرتجفُ في يدي ـ قد وصلَ هـذا الـداءُ الفتَّـاكُ إلى دعاةٍ كبارٍ يتصدَّون لتعليم الناس وهدايتهم، ويتصدَّرون المنـابرَ والمحافـلَ الخطابيةَ والدعويةَ والكتابية، والناسُ تنظرُ إليهم بعين الإكبـار والإجـلال، وتتَّخِذُ منهم قدواتٍ صالحةً في المجتمع !!

كلٌّ من ذكرتُ من هذه الأصناف المحترمة قد طالها الوباءُ، فتعاظَمَ بذلك البلاءُ، وصار (فيروس) الهزْل ضارباً في المجتمع بأسره ـ إلا ما نَدَر ـ حتَّى أصبح طبعاً وخُلُقاً في الناس، فيعدُّون صاحبَ الشخصية الفُكاهية الهزْلية الساخرة فيهم محموداً، دَمْثَ الخلُق، حَسَن المعشر، قريباً من قلوب الناس، فيقولون: ما ألطفَه ما أظرفَه، وقد لا يساوي في ميزان الرجولة والمروءة مثقالَ ذرَّة !![1]

(١) سوف أبيِّنُ في فصل لاحق أنَّ ديننا لا يذمُّ المزاح والدعابة بإطلاق، وسأذكر ضوابط وحدود ذلك.

لقد رأيتُني مشفِقاً محزوناً، وقلبي ينزِفُ على هؤلاء الغافلين وهم يجازفون بدينهم لأَجل إضحاك الآخرين من حولهم، وقد جعلوا الدينَ والمقدَّسات مادَّةً للَّهوِ والعَبَث والفُكاهة في أحاديثهم، يتندَّرون بها في مجالسهم ! وكأنَّ كلَّ ما سوى أمورِ الدين المعظَّمةِ على كثرتها لا تكفي لإشباعِ نَهَمهم وإرضاءِ نزَعاتهم، فيجتَرِئون على المقدَّسات، غافلين أو متغافلين عن قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [التوبة:٦٥] !!

لستُ مبالغاً إن قُلتُ إنَّ هذا الداءَ الخطيرَ أصبحَ ظاهرةً في أوساط "الصالحين" والمفترض أنَّهم أهلُ الدين وحُماتُه الغيورون عليه. وقد نشأتُ –ولله الحمدُ– في المساجد، مواكباً لهذه الصحوَةِ المباركة مرحَلةً مرحلة، وأنا على تواصلٍ مباشرٍ ومستمرٍّ مع أجيالٍ من أبناء العمل الإسلامي بكافَّةِ اتِّجاهاتهم، مِمَّن اختاروا طريقَ الهداية والصلاح والفضيلة، طريقَ مرضاة الله تعالى وطاعته، طامعين بجنَّته ورضوانه.

لقد صُدِمتُ مِراراً وأنا ناشئٌ في بداية الطريق، بعباراتٍ أسمعُها من فضلاءَ وقدواتٍ، لهم مكانتُهم العلميةُ والدعوية، فيها سخريةٌ وهَزْل لا أرتضيه، وكنتُ أشعرُ في قرارةِ نفسي أنَّها تخدِشُ الإيمانَ، وتُسقِطُ من عَين الرحمن، ولكنِّي كنتُ أحتفظُ بمشاعري لنفسي، لأنِّي كنتُ في بدايات التحصيل، ولم يكن لديَّ القدرُ اللازمُ من الحجَّة، ولا الملَكَةِ التي تؤهِّلُني للردِّ عليهم ومُناصَحتِهم .

وكنتُ كلَّما مرَّت الأيامُ أسمَعُ المزيدَ والمزيدَ من تلك العبارات الساخرة، وكثيرٌ منها فيه مساسٌ مباشـرٌ بـالقُرآن، وتوظيـفٌ هزْلـيٌّ مُضـحِكٌ لآياتـه البيِّنات، من حمَلَة القُرآن وقُرَّائه من أَهل المساجد، في مجالسِهم ومُسامراتهم وولائمهم، حتَّى ضاقَ لذلك صـدري، وامتعَضَـت نفسـي، وشـعرتُ بـأنَّ الأمرَ جَلَلٌ، فبدأتُ أوجِّهُ جزءًا كبيرًا من مُطالعاتي في دراسة هـذا النـاقِض وخطورته، بتأصيلاته وتفريعاته، وتَتبُّع أكبر قدرٍ ممكـنٍ مـن فتـاوى علمـاء الإسلام في الماضي والحاضر، وحاولتُ أن أستقصيَ جميعَ ما تناثرَ في كُتُـبهم من أطرافِ المسألة، لكي يكونَ لديَّ تصـوُّرٌ شـاملٌ عنهـا، ولم تكـن غـايتي آنذاك الكتابة في الموضوع، وإنما أردتُ الانتفاعَ به لنفسـي أولاً، ثـمَّ نُصحَ أحبابي وإخواني بقدر ما أستطيع، وتحذيرهم من خطر ما هم فيـه، وهـم لا يُبالون بما يصدُرُ منهم، وأنا أَجزمُ أنَّ عامَّتَهم عندما يقـرؤون عـن موضـوع الاستهزاء بالدين، تذهبُ أذهانُهم بعيدًا نحو أعداءِ الدين من الكـافرين أو العصاة من المستهترين الفاجرين، ولا يخطُرُ ببال أَحَدِهم أَنَّه قد يكـونُ هـو ذاتُه معنياً بهذه النصوص الخطيرة، المستفيضة، والتي هي موضعُ إجماعٍ على رِدَّةِ صاحبها، حتَّى لو كان مسلماً، مصلياً، صـائماً، قائمـاً، بـل ومجاهـدًا في سبيل الله، محباً لله ورسوله !!

وهذا أخطرُ ما في الأمر، أن يرى المرءُ نفسَـه بمنـأىً عـن الخطـاب عنـد الأمر والنهي، وأنَّه فوقَ الشُّـبُهات، فيكـونُ حالُـه كحـال الغـافلين الـذين يقتَرِفون عظائِمَ الأُمور، وهي في أعيُنِهم أدَقُّ من الشَعر، ويتلفَّظون بمساخِطِ

الله تعالى التي تهوي بأصحابها في النار سبعينَ خريفاً، ولا يُلقـون لها بـالاً، ويُخشى أن يكونوا ممَّن قال اللهُ تعالى في حقِّهـم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف].

لقد صارَ هذا الموضوعُ هاجساً يؤرِّقُني، وأنا أسمعُ الهزْلَ المتكـرِّرَ في كـلِّ يوم، وقد اتَّسَعَت دائِرَةُ معرفتي وإلمامي بالموضوع، وجَمعتُ فيـه مـادَّةً كافيـةً للإقناع، حفِظْتُ الكثيرَ منها لكثرةِ استشهادي بها في المناسبات والمحاضرات وفيها عديدٌ من الآثار وأقوالِ أهلِ العلم الكبار، وكنتُ أحيلُ السامعينَ إلى الكُتب والرسائِلِ والفتـاوى الـتي تناوَلَـت هـذه المسـألةَ ليطَّلِعـوا عليهـا، وينتفعوا بها.

كان تجاوبُ العديدِ منهم إيجابياً ولله الحمـد والمنَّـة، وكـثيرٌ مـن هـؤلاء طلبةُ علمٍ صُلَحاء، ومشايخُ فُضلاء، لم تأخذهم العزَّةُ بالإثم كحال بعضِـهم الآخر، وقد طلب منِّي الكثيرون أن أجمعَ مادَّةَ هذه المسألةِ التي أُدَندِنُ حولَهـا في رسالةٍ مطبوعةٍ، لكي ينتفعَ بها عامَّةُ الناس، فشرَحَ اللهُ صـدري لـذلك، ووجدتُ في نفسي هِمَّةً مفاجِئةً وأنا مُنطلِقٌ في سفرٍ يستغرقُ ساعاتٍ طويلـةً في القطار، قـد تـذهَبُ بغـير كـبير فائـدة، فأمسـكتُ بقلمـي، وأخرجـتُ قِرطاسي، وبدأتُ أخطُّ ما يُمليه عليَّ فكري ووجداني، وتجلَّـت النصـوصُ والأقوالُ التي كنتُ أتكلَّمُ بها أمامَ عيني، فرُحتُ أنتقي منها وأسـتدلُّ بهـا، وهذا من فضل الله عليَّ، أن فتحَ لي بابَ أجرٍ بالكتابـة في علـمٍ يَنتَفِـعُ بـه الناسُ ما شاءَ اللهُ مِن الزمان والمكان، فلَهُ المِنَّةُ والثَناءُ الحَسَن.

لقد كان شعوري عند الكتابة مزيجاً مـن المحبَّـة والحُـزنِ والخـوفِ في آنٍ واحد !

أمَّا المحبَّةُ فهي لإخواني الذين أتمنَّى لهم كلَّ الخير، وأنـا أُقَـدِّمُ لهـم مـن العلم ما ينفعُهم ويحفظُ عليهم دينَهم، ويرتفعُ بهم عن منازلِ أهـلِ اللـهو واللَّعِب إلى منازلِ أهلِ الجدِّ والهمَّةِ العالية.

وأمَّا حُزني ووجَعُ قلبي، فهو لأَجلهم، لأَنَّهـم ينـالون مـن ديـنهم مـن حيثُ لا يشعرون، ويَسقُطون من عين مليكهم وهم سادرون.

وأمَّا الخوفُ، فقد كان يملأُ قلبي أن لا يكون هـذا الجيـلُ مـؤهَّلاً ليقـودَ الأمَّةَ نحو التغـيير المنشـود في هـذه المرحلـة، فمـا هـذا بحـالِ جيـلِ النصـر والتمكين والتحرُّر !!

كنتُ أتساءَلُ على الدوام: كيف يطلُبُ العِزَّةَ والرفعةَ لدينه وأمَّته مَـن رضـيَ لنفسـه أن يكـونَ أداةً مـن أدوات الحَـطِّ مـن قـدرها مـن خـلال الاستخفاف والهزء بمقدَّساتها !

كيف نطالبُ أعداءَنا وخُصـومَنا بـأن يُعظِّمـوا حُرُماتنـا وشـعائرَ ديننـا ويحترموا رموزَنا، ونحنُ لا نفعلُ ذلك؟!

كيف نرجو من ربِّنـا أن ينصـرَنا ويرفـعَ شـأنَنا بـين الأُمَـم، ودينُنـا في نفوسنا وعلى ألسنتنا غيرُ مُصانِ الجَناب؟!

لعلَّك تتساءَلُ الآنَ، وبعد هـذه المقـدِّمات، عـن أيِّ صـوَر الاسـتهزاءِ بالدين تتحدَّث، وكيـف يمكـنُ لطلبـةِ العلـم والمشـايخ وحَمَلَـةِ القُـرآن أَن يستهزئوا بدينهم؟!

ولكي أضعَكَ في تصَوُّر المسألة وحقيقَتهـا، سـوف أذكـرُ لـك صـورةً واحدةً من الصور التي ستأتي عليها لاحقاً في فصول الكتاب، في مشهدٍ من مشاهِدِ الاستهزاءِ بالقُرآن من حملةِ القُرآن، فإليكها :

اجتمعَ جماعةٌ منهم على مائدةِ الإفطار عندَ أحدِهم في ليلـةٍ مـن ليـالي شهر رمضان المبارك، فقدَّمَ لهم الطعامَ ونَسيَ تقديمَ الخُبز، فماذا كان؟!

- أحدُهم : ماليَ لا أرى الخبزَ أم كان من الغائبين؟

- صاحبُ الوليمة: سآتيكَ به قبلَ أن تقومَ من مقامِك وإنِّـي عليـه لقـويٌّ أمين.

- شخصٌ ثالثٌ للأوَّل: وماذا تفعلون بالخبز؟! ولكـم في العَـدَس أُسـوَةٌ حسَنَة.

ومن ثمَّ .. قَهقَهاتٌ تملأُ الآفاق !!!

هذه صورةٌ من آلافِ صوَر الهزْل الُمرعِب التي تتكرَّرُ في عالمنا الإسـلامي اليوم، والتي كانت الباعثَ لي على الكتابةِ في هذا الموضوع، واللهَ أسأَلُ أن ينفَعَ به كلَّ من قرأَه، وأن يفتَحَ له القلوبَ والعقولَ، ويهدي به من ضلال،

ويُبَصِّر به من عمى، إنَّه خيرُ مأمول، وأكرمُ مسؤول.

وقد قسَّمتُ الكتابَ الى فصولٍ، على النَّحو الآتي :

- المقدمة.
- وظيفة اللسان.
- أمر الشارع بحفظ اللسان وتحذيره من خطر انفلاته.
- تعظيم الله وإجلاله من ضروريات الإيمان فلا إيمان بلا تعظيم.
- الاستهزاء والسخرية بالشيء ينافي التعظيم منافاة النقيض لنقيضه.
- تعظيم الملائكة لله تعالى وإشفاقهم من خشيته.
- تعظيم الأنبياء لربهم وخوفهم منه وإجلالهم له.
- أمره تعالى لعباده بخشيته ورهبته وتحذيرهم من نفسه.
- خضوع الجمادات وجميع المخلوقات لعظمته.
- معنى الاستهزاء لغة واصطلاحاً.
- مثال الاستهزاء من القُرآن الكريم.
- تعظيم الله تعالى يستلزم تعظيم حرماته وشعائر دينه وملائكته ورسله.
- حكم المستهزئ بآيات الله.
- من لوازم تعظيم الله تعالى تعظيم أسمائه وصفاته، والقُرآن كلامه، وكلامه من صفاته.
- صور من زلات الصالحين في واقعنا المعاصر!!!
- أقوال العلماء واتفاقهم على أن الاستهزاء كفر.

- الاستهزاء بالدين من نواقض الإيمان العشرة التي اتفق عليها العلماء.
- تأصيل المسألة.
- قضية التلازم بين الباطن والظاهر.
- شروط الحكم عليه بالكفر.
- القرائن على الاستخفاف.
- هل يعذر المستهزئ بالجهل.
- هل يشترط في الاستهزاء قصد التنقُّص؟ وهل يشترط في الكفر قصد الاستهزاء؟ وهل يشترط للكفر قصد الكفر.
- معنى الكفر وحقيقته وأنواعه.
- الردّة، معناها وأحكامها.
- من لوازم تعظيم الله تعالى تعظيم القُرآن فهو كلامه سبحانه.
- حال المؤمنين عند سماع القُرآن.
- صور من استهزاء سفهاء زماننا ومن أعداء الدين.
- الاستهزاء في الإعلام الفاسد .
- الهزل بالقُرآن في كتب الأدب.
- تعظيم الرسول وتوقيره وجميع رسل الله تعالى من لوازم الإيمان.
- صور من تعظيم الصحابة للرسول ﷺ
- في تعظيم النبي ﷺ بعد موته .
- حال المحدِّثين عند رواية الحديث.

- صور من السخرية من الحديث النبوي الشريف ومن السنة عموماً.
- السخرية بالمؤمنين لأجل إيمانهم وخاصة أهل العلم منهم .
- الواجب على سامع الاستهزاء.
- البواعث على الاستهزاء.
- الجدية وعلو الهمة ......الداء والدواء.
- المزاح والضحك في ميزان الشرع.
- ضوابط المزاح المشروع.
- الاقتباس من القُرآن.. وصور من الاقتباس المشروع والممنوع.
- قصة المرأة المتكلمة بالقُرآن.
- عقوبة المستهزئ في الدنيا.
- الطرائف (والنكات) ومشروعيتها.
- حكمُ حكايةِ الأقوالِ الكُفريَّةِ مُفَصَّلَةً عن أصحابها للرَدِّ عليها.
- الغفلة والتحذير منها.
- ماذا يفعلُ من ابتُلي بهذا المرض .
- ثمَّ الخاتمة، والحمد لله على توفيقه وامتنانه.

كتبـه

الفقير إلى عفو ربِّه

جمال الباشا

١٣ـ ربيع الثاني/ ١٤١١

وظيفة اللِّســـان

خلَقَ اللهُ تعالى اللِّسانَ في الإنسانِ لوَظائِفَ عديدَةٍ يقومُ بأدائِها، فيها تحقيقُ مَصالحَ عظيمَةٍ في الدنيا والآخرة، فبه ينطِقُ بالشهادة التي يصيرُ بها مُسلِماً، وبه يذكُرُ اللهَ ويُمَجِّدُه ويثني عليه، وبه يدعوه، وبه يدعو إليه، وبه يتحدَّثُ بنِعَمه، وبه يتلو القُرآن، وبه يُصلِّي على النبيِّ ﷺ، وبه يُعلِّم الناسَ الخير، ويأمُرُ بالمعروف وينهى عن المنكر، وبه يُصلِحُ ذاتَ البَين، وبه يكسِبُ قلوبَ الخَلق، وبه يُدخِلُ السُّرورَ إلى قلوبهم بالكلِمَةِ الطيِّبة وقولِ الحُسنى.

وباللسان يُعبِّرُ الإنسانُ عمَّا في خاطِره، وبه يتخاطَبُ مع الآخرين ويتفاهَمُ معَهم، وهو من أعظَم أسباب الأُلفَةِ والموَدَّةِ والتواصلِ مع الناس.

ولكنَّه سلاحٌ ذو حدَّين، وحدُّه الثاني في المقابل خطيرٌ للغاية، فكما أنَّه قد يرفَعُ العبدَ أعلى الدرجات، فإنَّه قد يهوي به إلى أسفَل الدَّرَكات.

وآفاتُ اللسانِ كثيرَةٌ، منها ما لا يُخرجُ العبدَ من الملَّة، ولكنَّه يحلُّ به عليه سخطُ ربِّ العالمين، كالكذب، والقَذف، وشهادةِ الزُّور، والغيبة، والنميمة، واليمين الغَموس، والهَمز واللَّمز، والفُحش، وإفسادِ ذاتِ البَين، والجِدالِ بالباطل، وقَولِ أُفٍّ للوالدين، والتَشَدُّقِ والثَرثَرَةِ، وإفشاءِ السرِّ، والسُّخريةِ من الناس وازدرائِهم.

وأعظمُ آفاتِ اللسان خطراً هو ما يوقِعُ المرءَ في الشرك والكفر ـ عياذاً بالله ـ كدعاء غير الله تعالى، والقول على الله بغير علم، والصدِّ عن سبيل الله، وإيذاءِ اللهِ ورسوله، وشتمِ الذاتِ الإلهيةِ أو الرُّسُلِ الكِرامِ أو الدين الحقِّ، وكذلك الاستهزاءُ بما أمرَ اللهُ تعالى بتعظيمه من شعائرِ الدين وحُرُماته.

وكما أنَّ هذا العضوَ الصغيرَ قد يؤدِّي بالعبد في الدنيا إلى القتل والحبس والعقوبات المؤلمةِ وعَداوَةِ الخَلق، وصاحبُه مسؤولٌ ومُحاسَبٌ على ما يتلفَّظ به، فكذلك في الآخرة، قد يؤدِّي بالعبد إلى دخول العذاب الأليم المقيم في دار الجحيم، وهو مُحاسَبٌ على كلِّ ما يتلفَّظُ به، قال تعالى:

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]

وقال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩].

وهذه الآثارُ الناتجةُ عن اللِّسان لم تكن خطيرةً إلى هذا الحدِّ إلا لأنَّ اللِّسان هو من مُخرَجات القلب وانعكاسات الباطن، وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضَح، ولا ينفكُّ الباطنُ عن الظاهر إلا في مواضِعَ مُستثناةٍ، كحال الإكراه الذي لا يكون العبدُ فيه مختاراً، وأمورٍ أخرى تمنَع إرادةَ الظاهر، سنُبيِّنُها لاحقاً إن شاء الله تعالى.

ما النجاة؟ وكيف العصمة؟

إنَّ سبيلَ النجاةِ من آفاتِ اللسانِ هو بلزوم الصَّمت، والتريُّث قبلَ الكلام، فلا كلامَ إلا إذا دَعَت الحاجة، وظهَرَت المصلحة، وقد ألَّفَ العديدُ من العلماء كتُباً في "الصمت"، لأنَّه الأصلُ في السلامة، والإنسانُ أسيرٌ لكلامه إذا تكلَّمَ، وآسِرٌ لكلامه قبل أن يتكلّم، ومن كثُرَ كلامُهُ كثُرَ سقَطُه.

قال عليه الصلاة والسلام: (مَن صمَتَ نجا)[1].

وقد فطِنَ لذلك حَبْرُ الأمَّةِ ابنُ عباسE، فكان يُخاطب لسانَه قائلاً:"يا لسانُ، قل خيراً تغنَمْ، أو اسكتْ عن سوءٍ تسلَمْ".

ماذا لو جَعَل الصالحون هذا الخطابَ شعارًا في تقويم ألسنَتِهم !

فإنَّ السلامة لا يَعدِلُها شيء.

---

(١)رواه الترمذي: ٢٥٠١ وقال: صحيح ، وقال ابن حجر في الفتح (٣١٥/١١) : رواته ثقات ، وأحمد شاكر في تحقيقه المسند (١٤٠/١٠) وقال : صحيح الإسناد، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٣٦٧

تأصيلٌ بديعٌ في أقسام الكلام

قال الإمامُ الغزاليُّ ω:

[إنَّ الكلامَ أربعةُ أقسام: قسم هو ضررٌ مَحضٌ، وقسمٌ هو نفعٌ محضٌ، وقسم فيه ضررٌ ومنفعةٌ، وقسمٌ ليس فيه ضررٌ ولا منفعة.

أمَّا الذي هو ضرَرٌ محضٌ، فلا بُدَّ من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرَرٌ ومنفعةٌ لا تفي بالضرر، وأمَّا ما لا منفعَةَ فيه ولا ضَرَر فهو فضولٌ، والاشتغالُ به تضييعُ زمان، وهو عينُ الخُسران، فلا يبقى إلا القِسم الرابع،

فقد سقَط ثلاثةُ أرباع الكلام وبقيَ ربعٌ، وهذا الربعُ فيه خطرٌ إذ يمتزج بما فيه إثمٌ من دقائق الرياء والتصنُّع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجاً يخفى دَرْكُه][1].

(١) إحياء علوم الدين/ للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، (٣/ ١١٢-١١١) بتصرف.

أمرُ الشارع بحفظ اللسان وتحذيره من خطر انفلاته

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء:١١٤]

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:٣]

واللَّغوُ: ما لا يُعتَدُّ به من كلامٍ وغَيره، ولا يُحصَلُ منه على فائدَةٍ ولا نَفع [١].

فهو كلُّ كلام لا مصلحة دينية أو دنيوية فيه، فأهل الإيمان لا ينطقون إلا بما يظهرُ لهم فيه مصلحة، وإلا أمسكوا.

وقد حثَّ رسولُ الله ﷺ على قول الخير أو الصَّمت فقال: **(مَن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخِرِ فليقُل خيراً أو ليسكت)**[٢].

وحذَّرَ أمَّتَه من الغَفلةِ عن عَواقِب الأُمور ومآلاتِها بإفلات خِطام اللفظ وحَلِّ زمامه، حينما لا يُلقي المسلمُ لما يتكلَّمُ به بالاً، فيكون عليه وبالاً !!

---

(١) كما في المعجم الوسيط.

(٢) أخرجه البخاري: ٦٤٧٦، ومسلم: ٤٧، وأحمد في المسند (١٠/١١٤) بتحقيق أحمد شاكر.

فعن أبي هريرة E أنَّه سمِعَ النبيَّ يقول: (**إنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلِمة ما يتبيَّن فيها، يزِلُّ بها في النار أبعدَ مما بين المشرق والمغرب**)[1]

وعنه أَيضاً قال: سُئِلَ النَّبِيُّ : ما أَكثرُ ما يُدخل النَّاسَ الجَنَّةَ؟

قال: (**تقوى اللَّهِ وحُسْنُ الخُلُق**).

قيل: فما أَكثَرُ ما يُدخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟

قال: (الأجوفان: الفَمُ والفَرْجُ)[2].

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه ، قال: سمعتُ رسولَ الله يقول:

(أكثرُ خَطايا ابنِ آدمَ في لسانه)[3]

وعن سفيانَ بنِ عبدِ الله الثَقَفيِّEقال: قلتُ: يا رسولَ الله، حَدِّثني بأمر أَعتَصِمُ به، قال: (**قُلْ رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ استَقِم**)، قلتُ: يا رسولَ الله، ما أَكثَرَ ما تخافُ علَيَّ؟

فأخذَ رسولُ الله بلسانِ نفسِه ثمَّ قال: (**هذا**)[4].

---

(١) رواه البخاري ٦٤٧٧ ومسلم ٢٩٨٨.

(٢) حسنه الألباني في (صحيح ابن ماجه:٣٤٤٣)، وصححه أحمد شاكر في تخريجه لمسند أحمد (٣٢/١٥).

(٣) رواه الطبراني وصححه الألباني قي (السلسلة الصحيحة : ٥٣٤)

(٤) صححه الألباني في (صحيح الترمذي :٢٤١٠)، وكذا في (صحيح ابن ماجه : ٣٢٢٣).

وعن عُقبَةَ بنِ عامِرٍEقال: قلتُ: يا رسولَ الله، ما النجاةُ؟

قال:(**أَمسِكْ عَلَيكَ لِسانَكَ، ولْيَسَعْكَ بَيتُكَ، وابكِ على خطيئَتك**)[1].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ Eرفعه، قال: (**إذا أصبَحَ ابنُ آدَمَ فإنَّ الأعضاءَ كُلَّها تُكَفِّرُ اللسانَ فتقولُ: اتَّقِ اللهَ فينا فإنَّما نحنُ بكَ، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوَجَجْتَ اعوجَجْنا**)[2].

وعن زيدٍ بنِ أسلمَ عن أبيه قال دخلَ عمرُ على أبي بكرٍ الصديق Γوهو آخِذٌ بلسانه وهو يقول: (لساني أورَدَني الموارِدَ)[3]

قال الإمامُ ابنُ بَطَّةَ العُكبُريُّ ω مُعَلِّقًا على ذلك:

[هذا يا إخواني الصدِّيقُ الأكبرُ يتخوَّفُ على نفسِه من الزَّيغِ إن هو خالَفَ شيئاً من أمرِ نبيِّه ﷺ، فماذا عسى أن يكونَ مِن زمانٍ أضحى أهلُه يستهزئون بنبيِّهم وبأوامِرِه، ويتباهَونَ بمُخالَفَته، ويَسخَرونَ بسُنَّته، نسألُ اللهَ العِصمَةَ مِن الزَّلَل، والنَّجاةَ من سوءِ العَمَل][4].

---

(١) رواه الترمذي: وقال: حديث حسن ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٢٤٠٦

(٢) صححه الألباني في (صحيح الترمذي : ٢٤٠٧) ، وكذا في (صحيح الجامع : ٣٥١).

(٣) صححه الألباني إسناده في السلسلة الصحيحة (٧١/٢) وقال: على شرط البخاري ، وكذا في (صحيح الترغيب والترهيب: ٢٨٧٣).

(٤) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية / للإمام ابن بطة العكبري(٢٤٦/١).

وعن عَنْبَسَ بنِ عُقبَةَ التَّيميِّ قال:

قال عبدُ الله بن مسعود E: (والذي لا إلهَ غيرُهُ، ما على الأرض شيءٌ أفقَرُ ـ وقال أبو معاويةَ: أَحوَجُ ـ إلى طولِ سِجنٍ من لسان)[1].

وقال أبو الدرداء E:(أنصِفْ أُذُنيكَ من فيك، فإنَّما جُعِلَتْ لك أُذُنانِ وَفَمٌ واحِدٌ لِتَسمَعَ أَكثَرَ مِمَّا تَتَكلَّمُ به)[2].

قال الإمام الأوزاعيُّ ω:

[كتبَ إلينا عمرُ بنُ عبدِ العَزيزE: أمَّا بعدُ، فإنَّهُ مَن أكثَرَ ذِكرَ الموتِ رَضيَ من الدُّنيا باليَسير، ومَن عَدَّ كلامَهُ من عَمَلِه قَلَّ كلامُهُ فيما لا ينفَعُه][3].

قال الإمامُ ابنُ المُبَارَكِ ω:

[أَخبَرَنا أَبو الأَشهَبِ جَعفَرُ بنُ حَيَّانَ عن الحسنِ قال: كانوا يقولونَ: إنَّ

(١) (صحيح الترغيب والترهيب للألباني: ٢٨٥٨)، وقال فيه: صحيح موقوف.

(٢) رواه أحمد في (الزهد) ص ٢٧١

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في (زوائد الزهد) ص٢٩٦ ، وابو نعيم في الحلية (٥/٩٠)، وابن المبارك في (الزهد/٣٨٣)، كتاب (الصمت وآداب اللسان) لابن أبي الدنيا والحديث إسناده ضعيف، بذلك حكم أبو إسحاق الحويني في تخريجه للكتاب الأخير برقم ٣٥.

لِسان الحكيمِ من وراءِ قَلبِهِ، فإذا أَرادَ أَن يقول يرجِعُ إِلَى قَلبه، فإن كـانَ لـهُ قالَ، وإن كان عليه أَمسَك، وإنَّ الجاهلَ قلبُهُ في طَرَفِ لسـانهِ، لا يرجـعُ إلى القَلبِ، فما أتى على لسانهِ تكلَّمَ به.

وقال أبو الأَشهَبِ: كانوا يقولونَ: ما عَقَلَ دِينَهُ مَن لم يحفَظ لسانَهُ][1].

وقال طاووس بن كيسان :[لساني سبُعٌ إن أرسلتُهُ أكلني][2].

وعن سلمةُ بنُ دينار المدني قال:

[ينبغي للمؤمن أن يكونَ أشدَّ حِفظًا للسانِه منه لَموضِعِ قدميه][3].

وقال مَخْلَدُ بنُ الحسين:

[ما تكلَّمتُ منذُ خمسينَ سنةً بكلِمةٍ أريدُ أن أعتَذِرَ منها][4]

وعن عَطاءٍ بنِ أبي رَباحٍ قال:

[إنَّ من كان قبلكم كـانوا يكرهـون فضـولَ الكـلام، وكـانوا يَعُـدُّون فضولَ الكلام ما عدا كتاب الله تبارك وتعالى أن تقرأه، أو تأمرَ بمعروف، أو تنهى عن منكـر، أو تنطـقَ بحاجتـك في معيشـتك الـتي لا بُـدَّ لـك منهـا،

---

(١) الزهد لابن المبارك (١/ ١٣١).

(٢) حكم بصحة إسناده أبو إسحاق الحويني في تخريج كتاب(الصمت وآداب اللسان) لابن أبي الدنيا، برقم ٣٩ .

(٣) (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ الإمام الحافظ أبو نعيم) في ترجمة سلمة بن دينار، ٤٠١٧

(٤) المصدر السابق، في ترجمة مخلد بن الحسين، ص٢٦٦

أتنكرون: (وإنَّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين) ،(عن اليمين وعن الشمال قعيد* ما يلفظُ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيد) أما يستحيي أحدُكم أنه لو نُشرت عليه صحيفتُه الَّتي أملى صدْرَ نهارِه، كان أكثرَ ما فيها ليس من أمر دينه ولا دُنياه][1].

وقال الإمام النوويُّ ω:

[اعلم أنَّهُ ينبَغي لكُلِّ مُكَلَّفٍ أن يَحفَظَ لسانَهُ عن جميعِ الكلامِ، إلاَّ كلاماً ظَهَرَتْ فيه المصلحةُ، ومتى استوى الكلامُ وَتركُهُ في المصلحةِ، فالسنَّةُ الإمساكُ عنه، لأنَّهُ قد يَنْجَرُّ الكلامُ المُباحُ إلى حرامٍ أو مكروه، وذلك كثيرٌ في العادة، والسلامةُ لا يعدِلُهَا شيء][2].

قالَ أبو الفَتحِ البَستيُّ [3]:

تكلَّم وسدِّد ما استطعتَ فإنَّما　　كلامُكَ حيٌّ والسكوتُ جمادُ
فإن لم تجد قولاً سديداً تقولُه　　فصمتُكَ عن غيرِ السدادِ سَدادُ

---

(١) الزهد لابن السري (٢/ ٥٣٦).

(٢) (رياض الصالحين) ص٥٤٨، باب "الأمور المنهي عنها".

(٣) أدب الدنيا والدين / للماوردي : ٢٣٦

تعظيم اللّه وإجلاله من ضروريات الإيمان فلا إيمان بلا تعظيم

إنَّ تعظيم الله تعالى وتعظيمَ شعائرِه سبحانه، من أجلِّ العباداتِ والأعمالِ القلبية، التي يتعيَّنُ تحقيقُها والقيامُ بها، وتربيةُ الناس عليها، وإنَّ الإيمان بالله تعالى مبنيٌّ على التعظيم والإجلال له جل وعلا.

قال الإمامُ ابنُ القيِّم ۞ في منزلةِ التَّعظيم:

[وهذه المنزلةُ تابعةٌ للمعرفة، فعلى قَدْرِ المعرفةِ يكونُ تعظيمُ الربِّ تعالى في القلب، وأعرفُ الناس به، أشدُّهم له تعظيماً وإجلالاً، وقد ذمَّ اللهُ تعالى مَن لم يُعظِّمْهُ حَقَّ عظمته، ولا عرَفَه حقَّ معرفته، ولا وصَفَه حقَّ صفته][1].

وقال الإمامُ السعديُّ ۞:

[وهو سبحانَه وتعالى الموصوفُ بصفاتِ المَجدِ، والكِبرياءِ، والعظَمة، والجَلال، الذي هو أكبرُ من كلِّ شيءٍ، وأعظمُ من كلِّ شيءٍ، وأجلُّ وأعلى وله التعظيمُ والإجلالُ في قلوبِ أوليائِهِ وأصفيائِه، قد مُلِئَتْ قلوبُهم من تعظيمه، وإجلاله، والخضوع له، والتذلل لكبريائه][2].

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/٤٩٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ص٩٤٦، فصل ملحق بالكتاب: أصول وكليات من أصول التفسير.

وتعظيمُ العبدِ لِرَبِّه وإن كانَ عمَلاً قلبياً، إلا أنَّه لا يتحقَّقُ ولا يـتمُّ إلا بأعمال الجوارح، ولا بُدَّ له من ذلك لتحقيق معنى العبودية، وهي اللسـانُ وسائرُ الأعضاء، فكلُّ العبادات إنَّما شُرِعَتْ لإظهارِ ذلكَ التعظيمِ وإشهاره.

فالتكبيرُ والتهليلُ والأذانُ، وسائرُ الأذكـارِ، فيهـا تعظـيمُ الـرَّبِّ جَـلَّ جلالُه، وكذا جميعُ أعمال الجوارح التعبُّدية، كالصلاة، وفيها وضعُ الجَبهةِ في الأرض ذُلاً لعظَمَته، وحَنيُ الظهر بالركوع خضوعاً لهَيبَتِه.

وكذا الحجُّ، ركنُ الإسلام الخامسُ، تدلُّك سائِرُ مناسِكه وأعمالِه علـى الغاية من تشريعه، فالإحرامُ والتلبيـةُ والطـوافُ، وحَلـقُ الـرأس، ووقفَـةُ عرَفَة، والرَّجمُ، والنحرُ، كلُّها شُرِعت لأجلِ التعظيم، ولذا قال تعالى بعـد آيـاتِ الحَـجِّ، في سـورة الحـجِّ ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج:٣٢].

فإذا كان الأمرُ كذلك، وهو أنَّ التعظيمَ يكونُ بالقلبِ واللسانِ وعملِ الجوارح، فإنَّ الاستخفافَ يكونُ بالقلب واللسان وعمَلِ الجوارح.

وإذا بدا الاستخفافُ على الظاهِرِ، بالقولِ أو الفعلِ، دَلَّ علـى انتفـاءِ التعظيم القلبيِّ قَطعاً !!

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية ⁂:

[فمن اعتقدَ الوحدانيةَ في الألوهية لله سبحانه وتعالى، والرسالةَ لعبدِهِ ورسوله، ثُمَّ لم يُتبِعْ هذا الاعتقادَ موجِبَهُ من الإجلال والإكـرام، الـذي هـو

حالٌ في القلب يظهرُ أثرُهُ على الجوارحِ، بـل قارنَـهُ الاسـتخفافُ والتسـفيهُ والازدراءُ بالقول أو بالفعل، كانَ وجودُ ذلك الاعتقادِ كعدَمِـه، وكـان ذلـك موجباً لفساد ذلك الاعتقاد ومزيلاً لما فيه من المنفعة والصلاح][1].

(١) التفسير الكبير (١٦/١٢٤).

الاستهزاء يُنافي التعظيمَ منافاةَ النقيضِ لنقيضِه

من قولِ الإمامِ ابنِ تَيميةَ الذي ختَمنا به الفصلَ السابقَ، نفتَحُ البابَ لِولوجِ هذا الأَصلِ الهامِّ، في عَدَمِ جَوازِ اجتماعِ النَّقيضَين، لا شَرعاً ولا عقلاً، فلا تعظيمَ مع استخفافٍ ألبتَّة !!

قال الإمامُ الرازيُّ ۵:

[إنَّ الاستهزاءَ بالدين كيفَ كانَ كُفرٌ بالله، وذلك لأنَّ الاستهزاءَ يدلُّ على الاستخفافِ، والعُمدَةُ الكبرى في الإيمانِ تعظيمُ الله تعالى بأقصى الإمكان، والجمعُ بينَهما مُحال][1].

وقال الشيخُ عبدُ الرحمن السعدي ۵:

[فإنَّ الاستهزاءَ بالله وآياتِه ورسولِه كفرٌ مُخرِجٌ عن الدين، لأنَّ أَصلَ الدين مبنيٌّ على تعظيم الله وتعظيم دينه ورُسُلِه، والاستهزاءُ بشيءٍ من ذلك مُنافٍ لهذا الأصل ومناقضٌ له أشدَّ المناقَضة][2].

---

(١) التفسير الكبير (١٢٤/١٦).

(٢) (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص: ٣٤٢، عند تفسير الآية من سورة التوبة.

ويقول كذلك :

[وذلك أنَّ الواجبَ على كُلِّ مُكلَّفٍ في آيات الله الإيمانُ بها وتعظيمُها وإجلالُها وتفخيمُها، وهذا المقصـودُ بإنزالها وهـو الـذي خلَـقَ اللهُ الخلـقَ لأَجله، فضِدُّ الإيمانِ الكفرُ بها، وضِدُّ تعظيمِها الاستهزاءُ بها واحتقارُها][1].

وهذا أصلٌ عظيمٌ يدورُ عليه تعليلُ كفرِ المُستهزِئ، وسـيأتي لاحقـاً في فصلٍ مُستَقِلٍّ بعنوان "تأصيلُ المسألة".

---

(١) المصدر السابق (ص: ٢١٠).

تعظيمُ الملائكةِ اللهَ تعالى وإشفاقُهم من خشيته سبحانه

الملائكةُ مخلوقاتٌ نورانيةٌ جُبِلَت على الطاعة والانقياد، ولم تُرَكَّب فيها الشهوةُ، فلا معصيةَ ولا ذنوب، ومع ذلك فهي مُشفِقَةٌ من علاَّم الغيوب، قال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل:٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٨] وقال تعالى:﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨].

والروح: هو روح القدُس جبريل عليه السلام، وهو أمين الوحي، له خِلقَةٌ عظيمة بستمائة جناح، لو بسط منها جناحاً واحداً لَحَجَب الشمسَ، وسدَّ الأفق، ومع ذلك فهو مشفقٌ وَجِلٌ من خشية الله تعالى، فعن جابر بن عبد الله Γ: أنَّ رسول الله ﷺ **قال: (مررتُ ليلةَ أُسريَ بي بالملأِ الأعلى، وجبريلُ كالحِلْسِ**[1] **البالي من خَشيَةِ الله تعالى)**[2].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

(١) كساء يبسط في أرض البيت.

(٢) قال ابن حجر في (الكافي الشافي) ١٨٧، مرفوع وإسناده قوي ، وصححه الألباني في (السلسلة الصحيحة : ٢٢٨٩) .

وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٨].

ويُبين شدَّةَ خوفهم من ربِّهم سبحانه ما رواه البخاريُّ عن أبي هريرة Eعن النبيِّ ﷺ قال: (**إذا قضى اللهُ الأمرَ في السماء ضرَبَتْ الملائكةُ بأجنحَتِها خُضعاناً لقوله، كأنَّه سلسلةٌ على صَفوانٍ ينفُذُهم ذلك،** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣] .... الحديث)[1].

(١) صحيح البخاري (٢٤٧/٣)، والترمذي: (صحيح الترمذي للألباني: ٣٢٢٣).

تعظيم الأنبياء لربِّهم وخوفهم منه وإجلالهم له سبحانه

إنَّ العبدَ كلَّما ازدادَ علماً ومعرفةً ازدادَ خشيةً وتعظيماً لله تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، ولما كان الأنبياءُ هم أعلمَ الخَلْقِ بالله تعالى وأسمائه وصفاته، كانوا أكثرَ عِبادِهِ إجلالاً وتعظيماً له جلَّ وعلا، قال رسول الله ﷺ:

(إنِّي لأعلَمُكم بالله وأشدُّكم له خشيةً)(1).

وقد قال سبحانه في حقِّ أنبيائه عليهم الصلاة والسلام:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٧].

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

وقد كانت دعوةُ الأنبياءِ لأَقوامِهِم إلى الإيمانِ بالله تعالى مبنيةً على أصلٍ عظيم، وهو تعريف الخلق بالخالق، وغرسِ تعظيمه وإجلاله في نفوسهم،

(١) (حديث صحيح) انظر (صحيح الجامع) حديث رقم: ٥٥٧٣

وتحذيرهم من التفريط في ذلك، قال اللهُ تعالى على لسانِ نوح عليه السلام لقومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح]

فذكَّرَ قومَه بعظيم خَلْقِ اللهِ ومَلكوته، المستلزمِ تعظيمَ الخالقِ المالكِ بديعِ السماوات والأرض سبحانَه وبحمده، الذي تعظيمُهُ وإجلالُهُ من أعظمِ الواجبات وأفرضِ الفرائض، فكيف لا ينتبهُ الناسُ لهذا، فلا يرجون لله تعالى وَقاراً !!

قال الإمامُ ابنُ القَيِّم(ﷺ):

[**قال ابنُ عباسٍ ومجاهِدٌ**: لا تَرجون لله عظَمَةً.

وقال سعيد بن جبير: ما لكم لا تُعَظِّمونَ اللهَ حَقَّ عظَمَتِه،

وقال الكَّلبيُّ: لا تخافون لله عَظَمَة !

قال البَغَويُّ: والوَقارُ العَظَمَة، اسمٌ من التوقير، وهو التعظيم.

وقال الحسَنُ: لا تعرِفونَ لله حقاً ولا تشكرون له نِعمَةً.

وقال ابنُ كَيسان: لاترجونَ في عبادةِ الله أن يُثيبَكُم على توقيرِكم إيَّاهُ خَيراً.

وروحُ العبادةِ هو الإجلالُ والمحبَّةُ، فإذا تخلَّى أحدُهما عن الآخَرِ فَسَدت، فإذا اقتَرَنَ بهذين الثناءُ على المحبوب المُعَظَّمِ فذلك حقيقَةُ الحَمدِ، واللهُ سبحانَه أعلم][1].

ومَّما حكاهُ القُرآن الكريمُ عن خليلِهِ إبراهيم عليه الصلاة والسلام قوله لقومه: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٨٧].

فلا شكَّ أنَّ مَن لَم يَرجُ لله وَقاراً، لم يعرِف ربَّه، ومن أشرَكَ به غيرَه لم يعرِف قدرَه وظَنَّ به ظنَّ السَوْء، فحيثُ لا تعظيمَ لا إيمانَ ولا توحيدَ.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٤٩٥/٢).

أمرُه تعالى لعباده بخشيته ورهبته وتحذيرُهم من نفسه

قال الله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة:٤٠]

وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾[آل عمران:٣٠]

وقال سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة:٢٣٥]

وقال جلَّ وعلا: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:١٣]

ذلكم بأنَّ خشيةَ الله تعالى من المقامات القلبيَّةِ العاليةِ التي عليها مـدارُ أعمال القلوب مع المحبَّةِ والرجاء .

قال الإمامُ ابنُ القَيِّمِ:

[القلبُ في سَيرِهِ إلى الله عزَّ وجَلَّ بمنزلةِ الطائِرِ؛ فالمحبَّةُ رأسُـه، والخـوفُ والرجاءُ جناحاهُ، فمتى سلِمَ الرأسُ والجناحانِ فالطائر جيِّـدُ الطيران، ومتى قُطِعَ الرأسُ ماتَ الطـائرُ، ومتـى فُقِـدَ الجناحـان فهـو عرضـةٌ لكـلِّ صـائدٍ وكاسر][1].

فلا عبوديَّةَ في حال انتفاءِ إحدى هذه المقامات.

---

(١) المصدر السابق (١/٣٩٠).

ثمَّ إنَّ الرجاءَ بلا خوفٍ أمنٌ، والله تعالى يقول:

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]

فبخشية الله تعالى تزكو النفوسُ، ويستقيم السلوكُ، وتنضَبطُ الأقوالُ والأفعالُ، وتُحفَظُ الحقوقُ والحدودُ، وبفقدها تفسدُ كلُّ الأمور، ويقعُ كلُّ محظور.

خضوع الجمادات وجميع المخلوقات لعظمته

قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد:١٣]

ذلكم أنَّ عظمَةَ الله تعالى فوقَ ما تُدرِكُه العقولُ، فهو الإلهُ الواحِدُ الأحدُ الملكُ الصَمَدُ، الذي ليس كمِثلِهِ شَيءٌ، وهو القادرُ على كلِّ شيء، وهو العالمُ بكلِّ شيء، فقد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً، خلَقَ الخَلقَ وأوجَدَه مِن عَدَم، وكُلُّ شيءٍ عنده بمقدار، وهو سبحانه الكبيرُ المُتعال، عندَهُ عِلمُ ما كانَ وما يكونُ وما لم يكن لو كانَ كيف يكون.

فأدركَت السماواتُ والأرضُ عظمتَه فأتتهُ طائعةً، وأدرَكَت الجماداتُ جلالَه وكمالَه، فسبَّح الرعدُ بحمده والملائكةُ من خيفته.

وقال سبحانه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم:٩٠]

قال الضَّحَّاكُ بنُ مُزاحِمω، في تفسير هذه الآية:

[يتشقَّقنَ من عظَمَة الله عزَّ وجَلَّ][١].

وسبَّحَ له ما في السماوات والأرض، قال تعالى:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة:١]

---

(١) الدر المنثور للإمام السيوطي(٥/٥٤٤).

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]

وسجَدَ له من في السماوات والأرض، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]

نعم، كثيرٌ من الناس فعلوا، ولكن كثيرٌ منهم لم يفعَلوا فحَـقَّ علـيهم العـــذابُ، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]

معنى الاستهزاء لغةً واصطلاحاً

الهُزْءُ: يأتي في اللغة ويُرادُ به أربَعَةُ مَعانٍ، هي؛ الكسرُ، والموتُ، والحركةُ، والسُّخريَةُ.

قالَ ابنُ مَنظور:

[هَزَأَ الشيءَ يَهْزَؤُه هَزْءاً كَسَره، وهَزَأَ الرجلُ: ماتَ. هزأ: الهَزَءُ والهُزؤ: السُّخرية، واستهزأ بِه: سخر. قال الأخفَشُ: "سخِرتُ منه، وسخِرتُ به، وضحكتُ منه، وضحكتُ به، وهزِئتُ منه، وهزِئتُ به، كلٌّ يُقالُ، والاسمُ السُّخريَةُ][1].

وقال ابنُ فارِس:

[هَزَأَ: الهاءُ والزاءُ والهمزَةُ، كلِمَةٌ واحِدَةٌ، يُقالُ: هَزِئَ واستَهزَأَ، إذا سَخِرَ][2].

وأمَّا في الاصطلاح، فقد عرَّفهُ شيخُ الإسلام ابنُ تيمية ω بقوله: [هو حملُ الأقوالِ والأفعالِ على الهزْلِ واللَّعِب، لا على الجدِّ والحقيقة][3].

---

(١) لسان العرب (٤٦٥٩/٦).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٥٢/٦).

(٣) الفتاوى الكبرى (٢٢/٦).

وعرَّفَهُ الإمامُ الغَزاليُّ ۞ بقوله:

[هو الاستِهانَةُ والتحقيرُ، والتنبيهُ على العُيوبِ والنَّقائِصِ، على وَجهٍ يُضحَكُ منه، وقد يكـونُ ذلـك بالُمحاكـاةِ في الفعـل والقَـول، وقـد يكـونُ بالإشارة والإيماءِ][1].

والمرادُ هنا في بحثِنا، الاستهزاءُ الذي هو كفرٌ ورِدَّةٌ، وهو مـا كـان مؤدِّيـاً إلى تنقُّصِ مـا عظَّمَـهُ اللهُ تعـالى، مـن أمـرِ دينِـه وحُرُماتِـهِ، واستصـغارِهِ في النفوسِ، بجعلِهِ مَوضِعاً للضَحِكِ واللَّعِب.

---

(١) إحياء علوم الدين (١٣١/٣).

مثال الاستهزاء من القُرآن الكريم

قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة]

وللعُلَماءِ في معنى الآيةِ أقوالٌ:

قال الإمامُ القُرطُبيُّ ۞ تعالى:

[هذه الآيةُ نزَلَت في غَزوَةِ تبوك، قال الطبريُّ وغيرُه عن قتادة: "بينا رسولُ اللهِ ﷺ يسيرُ في غَزوةِ تبوك ورَكْبٌ من المنافقين يسيرون بين يدَيه فقالوا: انظروا هذا يفتحُ قُصورَ الشَّامِ ويأخُذُ حُصونَ بني الأَصفَر! فأطلَعَهُ اللهُ سُبحانَهُ على ما في قلوبهم وما يَتَحَدَّثونَ به فقالَ: احبسوا علَيَّ الرَّكبَ - ثمَّ أتاهُم فقالَ - قُلتُم كذا وكذا فَحَلفوا ما كُنَّا إلا نخوضُ ونلعَبُ، يريدون كنا غيرَ مُجِدِّينَ، وذَكَرَ الطَّبَريُّ عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ قالَ: رأيتُ قائِلَ هذِهِ المقالَةِ وديعَةَ بنَ ثابِتٍ مُتَعَلِّقاً بحقبِ ناقَةِ رَسولِ الله ﷺ يُماشيها والحِجارَةُ تنكبُه وهو يقول: إنَّما كُنَّا نخوضُ ونَلعَبُ، والنبيُّ ﷺ يقول:"أبالله

وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُم تَستَهزِئُونَ"[1].

"حَدَّثَني يونُسُ، قَالَ: أَخبَرَنا ابنُ وَهْبٍ، قال: حَدَّثَني هِشامُ بنُ سَعدٍ، عن زَيدِ بنِ أَسلَمَ، عن عبدِ الله بنِ عُمَرَ، قال: قال رَجُلٌ في غَزوَةِ تَبُوكَ في مَجلِسٍ، ما رَأَينا مِثلَ قُرَّائِنا هؤلاءِ أَرغَبَ بُطونًا ولا أَكذَبَ أَلسِنَةً ولا أَجبَنَ عِندَ اللِّقاءِ، فقالَ رَجُلٌ في المَجلِسِ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لأُخبِرَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، فبَلَغَ ذلكَ النَّبِيَّ ﷺ، ونَزَلَ القُرآن".

قال عبدُ الله بنُ عُمَرَ: فأَنا رَأَيتُهُ مُتَعَلِّقاً بِحَقَبِ ناقةِ رَسُولِ الله ﷺ، تَنْكُبُهُ الحجارَةُ، وهو يقُولُ: يا رَسُولَ الله إنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونلعَبُ، ورسولُ الله ﷺ يقُولُ: {أَبِالله وآياتهِ ورسُولِهِ كُنتُمْ تستهزِئونَ لا تَعتَذِرُوا قد كَفَرتُمْ بعدَ إِيمَانِكُمْ}..][2].

قالَ القاضي أبو بكرٍ بنُ العَرَبيِّ رحمه الله:

[لا يخلو أَن يكونَ ما قَالوهُ من ذلك جِدًّا أَو هَزْلا، وهو كيفما كان كفرٌ، فإِنَّ الهَزْلَ بالكُفرِ كُفرٌ، لا خُلْفَ فيه بينَ الأُمَّةِ، فإِنَّ التحقِيقَ أَخو العلمِ

(١) تفسير القرطبي ـ (٨/ ١٩٧-١٩٦).

(٢) تفسير الطبري ٣١٠، دار هجر (١١/ ٥٤٣)، قال الوادعي في (صحيح أسباب النزول :١٢٢) : رجاله رجال الصحيح إلا هشام بن سعد فلم يُخرج له مسلم إلا في الشواهد، وله شاهد بسند حسن.

والحَقِّ، والهَزْلَ أَخو الباطلِ والجهل][1].

قوله تعالى: ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾ على جِهَةِ التَّوبيخ، كأنَّهُ يقولُ: لا تفعَلوا ما لا ينفَعُ، ثُمَّ حَكَمَ عليهم بالكُفرِ وعَدَمِ الاعتِذارِ من الذَّنب][2].

قالَ الإمامُ ابنُ كثيرٍ ۞ في تفسيره:

[وقولُهُ: ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتُم به][3].

(١) الجامع لأحكام القُرآن (٨/٣٩٧).

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ١٩٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٢).

حُكم المستهزئ بآيات الله تعالى

إنَّ الحُكمَ بالكُفرِ على المستَهزِئ باللهِ وآياتِهِ ورسولِهِ واضِحٌ وجَليٌّ من آيةِ التَّوبَةِ آنِفَةِ الذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التوبة:٦٦] وهي نَصٌّ في ذلك كما تقَدَّم.

والكفرُ بعدَ الإيمانِ رِدَّةٌ، فمَن كان مسلِماً مؤمِناً وصَدَرَ منه استهزاءٌ وسخريَةٌ على نحوِ ما فعَلَه أولئك النَّفَرُ كفَرَ وخَرَجَ من الإسلام بنَصِّ القُرآن، ولا دليلَ لمن قال: إنَّ الآيَةَ نزَلَت في حقِّ طائفَةٍ من المنافقين ما دخلوا الإسلامَ قَطُّ، إلا أنَّهُم يفهمون ذلك من قوله تعالى أوَّلَ القِصَّةِ: (يحذَرُ المنافقون...) ونَسيَ هؤلاءِ أنَّ اللهَ تعالى قد أثبَتَ لهم الإيمانَ ابتداءً ثمَّ وصَفَهم بالنفاق بعدَ مَقالَتِهم هذه، وهذه المقالةُ هي التي جَعَلَت القُرآن يصِفُهُم بهذه الصِّفَةِ، والقُرآن نَزَلَ بعدَ الحادِثَةِ لا قبلَها، وبعدَ الحادِثَةِ كانوا قد نافقوا، وسنبَيِّنُ تفصيلَ ذلك لاحقاً.

تعظيمُ اللّه تعالى يستلزمُ تعظيمَ حرُماته وشعائر دينه وملائكته ورسله وكتبه

عند التأمُّل في الآية نلاحظُ أمراً جديراً بالتنبيه، وهو أنَّها وصَفتْ قولَ الهازلين بأنَّه استهزاءٌ بالله وآياته ورسوله، مع أنَّ ظاهرَ قولِهم ليس فيه استهزاءٌ بالله، ولا بآياته، وحتى الاستهزاء بالرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن صريحاً وإنَّما جاءَ تعريضاً، فقد تناولَ حديثُهُم القُرَّاءَ، وهم مجموعةٌ من الصحابةِ الكرام، وفيهم الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ، وهذا دليلٌ واضحٌ على مفهومِ التلازُمِ بين هذه المقدَّسات، وأنَّها لا تَنفَكُّ عن بعضِها.

معلومٌ أنَّ ثَمَّ مُرسِلٌ ورسولٌ ورسالةٌ، وثَمَّ تَلازُمٌ وترابُطٌ بينَ هذه الثلاثةِ، فتعظيمُ أحدِها يستلزمُ تعظيمَ الباقي، والاستخفافُ بأحدِها يستلزمُ الاستخفافَ بالباقي .

قال الإمام ابن تيمية ():

[فإنَّ الاستهزاءَ بهذه الأمورِ مُتلازمٌ، فإنَّ مَن استَهزَأَ بآياتِ الله تعالى التي جاءَ بها الرسولُ ﷺ فهو مستهزئٌ بالرسول ﷺ ضَرورَةً، ومَن استَهزَأَ بالرسول ﷺ، فهو مستهزِئٌ برسالتِه حقيقةً، ومن استهزأَ بآياتِ الله ورسوله فهو مستهزئٌ به، ومَن استهزأَ بالله، فهو مستهزئٌ بآياته ورسولهِ بطريق الأولى][1].

(١) تلخيص الاستغاثة ص٣٤٦.

قال الإمام علي القاري ۞:

[مَن أهانَ الشَّريعَةَ أو المسائِلَ التي لابدَّ منها كَفَرَ، ومَن ضَحِكَ سُخريةً مِن المتيمِّم كَفَرَ][1].

وقال الإمامُ النَّوَويُّ۞:

[أو قالَ وهو يتَعاطى قَدَحَ الخَمرِ أو يُقدِمُ على الزِّنى: "باسمِ اللهِ تعالى" استِخفافاً باسم اللهِ تعالى كفَرَ، ولو قالَ: لا أخافُ القيامةَ كفَر][2].

قال الإمامُ ابنُ حَزْمٍ ۞، بعدَ ذكرِ الآيَةِ من سورَةِ التَّوبَة:

[وصَحَّ بالنَّصِّ أنَّ كُلَّ مَن استَهزَأَ باللهِ تعالى أو بمَلَكٍ من الملائكة، أو بنبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام، أو بآيَةٍ من القُرآن، أو بفَريضةٍ من فرائِضِ الدين، فهي كلُّها آياتٌ لله تعالى، بعدَ بُلوغِ الحُجَّةِ إليه فهو كافر][3].

وقال بعدها :

[وسألوا أيضاً عمَّن قال: أنا أدري أنَّ الحَجَّ إلى مكَّةَ فرضٌ، ولكن لا أدري أهي بالحِجازِ أم بخُرَاسان أم بالأندلُس؟! وأنا أدري أنَّ الخنزيرَ حرامٌ، ولكن لا أدري أهو هذا الموصوفُ الأَقرَنُ أم الذي يُحرَثُ به؟!

---

(١) شرح ألفاظ الكفر ص٦٥.

(٢) "روضة الطالبين وعمدة المفتين " للإمام النووي(١٠/ ٦٧).

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ١٤٢).

وجوابُنا هو أنَّ مَن قال هذا، فإن كانَ جاهلاً عُلِّمَ ولا شيءَ عليه، فإنَّ الشاشيِّين[1] لا يَعرفون هذا إذا أسلَموا حتَّى يُعَلَّموا، وإن كان عالماً فهو عابثٌ مُستَهزِئٌ بآيات الله تعالى فهو كافرٌ مرتدٌّ، حلالُ الدَّمِ والمال][2].

ونَقَلَ الإمامُ السيوطيُّ عن القَرافيِّ المالكيِّ رحمهما اللهُ قولَه:

[اعلم أنَّه يجِبُ على كلِّ مُكلَّفٍ تعظيمُ الأنبياءِ بأَسرِهم، وكذلك الملائكةِ، ومَن نالَ مِن أعراضهم شيئاً فقد كفرَ، سواءٌ كان بالتعريض أو بالتصريح، فمن قال في رجُلٍ يراهُ شديدَ البَطشِ: "هذا أقسى قلباً من مالِكٍ خازِنِ النار"، وقالَ في رَجُلٍ رآهُ مشوَّهَ الخَلقِ: هذا أوحَشُ مِن مُنكَرٍ ونكيرٍ، فهو كافرٌ، إذا قال ذلك في مَعرض النَّقصِ بالوَحاشَةِ، والقَساوَةِ][3].

وقالَ الإمام بدرُ الرَّشيدُ[١]:

[لو قال: أعطِني بُرّاً أُعطيكَ يومَ القيامةِ شعيراً، أو على العكس، كَفَرَ، أي لأنَّه صريحٌ في الاستهزاء][4].

(١) نسبة إلى (شاش) من بلاد ما وراء النهر .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/١٤٣).

(٣) عالم الملائكة الأبرار (ص ٥٨).

(٤) ألفاظ الكفر (٢١٢ـ ٢١٣).

أمثلةٌ وقعَتْ تُشابِه ما قالَه منافقو تبوك

قال إدريسُ بنُ بَيْدكين بن عبدِ اللهِ التُركمانيُّ الحَنَفيُّ[١]:

[ومِن البِدَعِ القَوليَّةِ: مَزْحُ الإنسانِ بشيءٍ من كتاب الله تعالى ممَّا يكفُرُ فاعلُه أو يُذَمُّ؛ أمَّا الذي يكفُرُ فاعِلُهُ، كمَن يصعَدُ في مكان مُرتَفِعٍ والناسُ تحتَه، فيتشبَّهُ بالواعِظ والخطيب، يتلو كلامَ الحبيبِ، ثمَّ يأخُذُ في مدِّ صوتِه وهَزِّ رأسِه بقوله: أيُّها الناسُ، وهم تحتَهُ يتضاحكونَ، كفروا كُلُّهم أجمعون! وكذلك المُدبِرُ[٢] الذي يُصَلِّي تحتَ الواعِظِ على البشيرِ النذيرِ، الكلُّ قد سقَطوا من عينِ الملكِ القَدير، وتجهَّزوا بهذا الزاد لجهنَّمَ وبئسَ المصير!

قال رجلٌ لبعض الفُقهاء: إنَّ الملائكةَ لَتَضعُ أجنحَتَها رضىً لطالبِ العِلم، فقالَ الفقيهُ وهو مازح: لأجل ذلك سمَّرتُ قبقابي لكسرِ أجنِحَتِهم، فما كانَ إلا قليلاً حتَّى وقعَ في تُهمة فقُطعت فيها رجلاه.

ومن البدَعِ التي تُكرَهُ أن يكذبَ الرجلُ في مَزْحِهِ ليُضحِكَ القومَ ومَن حضَرَ...فالويلُ ثمَّ الويلُ لهذا كما صحَّ في الخبر، واعلمْ أنَّ ويلاً وادٍ في جهنَّم، وكذلك سقر[٣]، وإذا رجع العبد إلى الله تعالى بالتوبة تابَ اللهُ عليه وغفَر، وإذا تكلَّم الرجلُ بكلمة الكفر عليه أن يُجَدِّدَ التوبة على الفَور ثمَّ

---

(١) من علماء الحنفية في القرن السابع.

(٢) المدبر: عكس المقبل، ولعلَّه يريدُ به العاصي، المدبر عن الطاعة.

(٣) معنى "ويل" و "سقر" بما ذكر ليس موضع اتفاق.

يأتي بالشهادتين ولا يزالُ نادماً إلى أن يلقى الله تعالى، فحينئذٍ يُرجى له الخيرُ والفَلاحُ، ويُحشَرُ مع أهلِ الدينِ والصلاح.

قرأ رجُلٌ من أهلِ العِراق آيةَ (إنَّ لدينا أنكالاً وجحيماً * وطعاماً ذا غصَّة وعذاباً أليماً) فقال بعض المفتونين مازحاً: "واللهِ ما هذا إلا كرَمٌ عظيم"، فأمرَ إمامٌ من الأئمَّةِ بضرْبِ رقَبَتِهِ، فقال الخليفةُ: بأيِّ دليلٍ كفَّرتَ هذا وضرَبتَ رقَبَته؟!

قال: بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ ...﴾.

وشفَعَ بعضُ النُّدولِ لفقيهٍ عندَ القاضي بَكَّار، وقال: يا مَولانا أنتَ تعلَمُ أنَّ الفقيهَ هو سَيِّدٌ فاضِلٌ راسِخٌ في العلومِ، فيشتَهي أن تُعَدِّلَهُ، فأبى القاضي وقال: حضَرنا يوماً في مكانٍ وبينَ أيدينا قَصعَةُ طعامٍ في وسَطِها سَمنٌ، فطرَّقَ بعضُ الحاضرين للسَّمنِ طريقاً ليأتيَ إليه، فقال هذا الفقيهُ وهو يمزَحُ: (أخَرَقتَها لتُغرِقَ أهلَها) فسقَطَ من عيني.

فهذه الأشياءُ وأمثالُها يتداولُها الجُهَّال بينَهم، فتارةً يكفرُ القائلُ، وتارةً يفسُقُ، ويحسبُ هذا اللئيمُ أنَّهُ هيِّنٌ وهو عندَ اللهِ عظيمٌ، فنَرى بعضَهم يقول ـ إمَّا في مَزحِهِ أو غضَبِهِ ـ: لو جاءَ جبريلُ أو النبيُّ الكريمُ عليهما

الصلاةُ والتسليمُ لم يفعَل أو يفعَل ! أو كقـول الجاهِـل المُرتـابِ لغـيره: إذا دخلتَ الجَنَّةَ فرُدَّ البابَ ! وكذلك جوابُ الجاهل لمن يـأمرُ بـالخير والمعـروف ليقرِّبَهُ للربِّ الـرؤوف، فيقـول للآمِـر: "قتلتَنـا بـدينك، كـلُّ شـاةٍ معلَّقَـةٌ بعُرقوبها"، ثمَّ يستَدِلُّ هذا المخـذولُ، الخـارجُ عـن طريـقِ الرسـولِ بقولـه تعالى: (عليكم أنفسكم) فلم يفهَمْ معنى الآية، وتفسيرُها بعكس ما يقول .

ثمَّ قالَ بعدَها :

ومثلُ هذا كثيرٌ يتداولُه الفَسَقةُ بينَهم حينَ يمزَحونَ ومن الدين يمرُقون، وعن طريقِ نبيِّهم يخرجون، ومن عينِ مليكِهم يَسقُطون، (قـاتلَهم اللهُ أنَّـى يؤفكون)!

وقد قلتُ بعضَ ما يقولونَ حاكياً لأجلِ النُّصح، لا مازحاً ولا معتقـداً، وليعلمَ الفاعلُ كذلك أنَّه مرَقَ من الدين، وخرج عن طريق سيِّدِ المرسلين، وحاكي الكفر ليس بكافر، فلا يحِلُّ لمسـلمٍ أن يمـزحَ بشـيءٍ مـن كتـاب الله تعالى، ولا بشيءٍ من حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ، كقول بعض من خذَلَـه اللهُ في مزحِه بالحديث: "أنّ مغربياً رمَدَتْ عينُه فتذكَّرَ الحديثَ المَرويَّ: (شـفاءُ أمَّـتي في ثلاثٍ: آيةٍ من كتاب الله، أو لعقَةٍ من عسَـلٍ، أو مِشـرَطٍ مـن حجَّـام)[1]

---

(١) لا نعلم حديثا بهذا اللفظ، وإن كانت المعاني التي يشتملها صحيحة، ولكن المعروف في الباب الحديث الذي رواه البخاري وغيره، عن ابن عباس: عن النبي ﷺ قال: (الشفاء في ثلاثة في شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار وأنا أنهى أمتي عن الكي).

فقرأَ المَغربيُّ آيةً فلَم تَبرأ عينُه، ولعقَ العسَلَ فلم يصِحَّ، فشَرَطَها فورَمَـتْ! فعندَ ذلك قال: يا حبيبي يا رسولَ الله، إذا لم تكُن تعرف الطِبَّ فلِـمَ تـتكلَّمُ فيه؟!!"

فانظُر إلى هؤلاء المفتونين كيف يرمون نبيَّهُم بالجهلِ حينَ يمزَحون !![1]

وهذا بعضُ ما يمزحون به من أنواعِ الخِـزي، ولا يفعلُـه إلا كـلُّ عبـدٍ مَطرودٍ، وشؤمُ ذلك عليه يعودُ، لتشـبُّهِه بالكـافرِ المبعـودِ، لأنِّـي سمِعـتُ أنَّ اليهودَ ـ لعنهُم اللهُ ـ ينتخبونَ مثلَ هذه الأشياءِ ثمَّ يمزحون بها، فيستهزئون بالآيات والأخبار، لأنَّهم باءوا بغضبٍ من الجبار، وهم أيضـاً وقـودُ النـار، فلا ينبغي لمؤمنٍ أن يمزَحَ بشيءٍ يُسـخِطُ ربَّـهُ، ويخـالِفُ أوامِـرَهُ، فيُضـحِكُ القومَ، ويبكي هو في الآخرة، يا مَن يشُـقُّ عليـه أن يفعـل شـيئاً يصـيرُ بـه مضحَكَةً بين أبناءِ جِنسِه، ولا يشقُّ عليـه وقـد صـارَ مضـحكةً للشـيطان]. انتهى بتصرف[2].

وقال الإمامُ بدرُ الرشيدُ الحنفيُّ ؏:

[مـن اسـتعمَلَ كـلامَ الله تعـالى بـدلَ كلامِـه، كمَـن قـال في ازدحـامِ الناس:(فجمعناهم جمعاً) كَفَر][3]

---

(١) المقصودون هم اللذين يتناقلون مثل هذه الأخبار في مجالسهم وتسامرهم.

(٢) اللمع في الحوادث والبدع (١٧٨/١) وما بعدها.

(٣) رسالة في ألفاظ الكفر: ص٦٦.

وقال:

[من قالَ لآخرَ: **"جعَلَ بيتَهُ مِثلَ السماءِ والطارِق"** يكفرُ، لأنَّـهُ يلعَـبُ بالقُرآن **!!**][1]

وقال:

[ومَن قالَ : **"سَلَخْتَ، أو سلَخَ سورَةَ الإخلاص"**[2]، ولـو قـال:**"فلانٌ أقصَرُ مِن سورَةِ إنَّا أعطيناكَ الكَوثَرَ"** كفَرَ][3]

(١) المصدر السابق : ص٦٧.

(٢) المصدر السابق : ص٧١.

(٣) المصدر السابق : ص٧٣.

صورٌ من زَلَّات الصالحين في الاستهزاء من واقعنا المعاصر

وهذا بعضُ ما جمعتُه من حوادِثَ وقعَتْ أمامي، أو حدَّثَني بها مَن أثِقُ به، تلمَسُ فيها استخفافَ القومِ بالقُرآن وأمورِ الدين، وتجدُ ظهورَ السُّخريَةِ على ألسِنَتِهِم من غيرِ وَجَلٍ أو خجَلٍ، وتتألَّمُ حين ترى مِن هؤلاءِ المُستهزئين القُرَّاءَ والحُفَّاظَ وطلَبَةَ العِلم، فبدَلَ أنْ يُكرِموا الآياتِ ويُراعوا حقَّها وقدرَها راحوا يَلوكونَها بألسنَتِهم، ويَضحَكونَ ويُضحِكونَ عليها !!

ولولا رُجحان المصلَحَةِ في ذكرِها كأمثلَةٍ يُقاسُ عليها، لامتنَعتُ عن ذكرها أشدَّ الامتناع، ولنَزَّهتُ قلَمي عن أن يخُطَّها، وكما قيل: بالمثال يتَّضِحُ المَقال.

وجميعُ هؤلاءِ إذا ما أُنكِرَ عليهم يقولون: (..إنَّما كنا نخوضُ ونلعَب) فمن هذه الأمثلة:

- اجتَمَعَ بعضُ الشبابِ في دارِ أَحَدِ الإخوَة، إجابةً لدعوته لهم بالإفطار في أحدِ أيامِ رمَضان، وبعدَ أن أحضَرَ الطعامَ نسيَ إحضارَ الخُبزِ، فقالَ أحدُ المدعوِّين: "(ما ليَ لا أرى الخبزَ أم كان من الغائبين؟!) فأجابَه صاحبُ الدعوة: (سآتيك به قبلَ أن تقومَ من مَقامك وإنِّي عليه لقَويٌّ أمينٌ) ثمَّ قالَ ثالثٌ: وماذا نفعَلُ بالخُبز (ولكم في العَدسِ أسوةٌ حَسَنَة)!

فضَحِكَ الجميعُ، وقهقَهوا وارتَفَعَت أصواتُهم، وكان بعضُهم يحفَظُ القُرآن !!

- سألَ أحدُهم صاحبَه أن يشرَحَ له أجزاءَ أحَدِ الأجهزةِ فقال له: أيُّ جُـزءٍ تُريدُ أن أشرَحَ لك؟ فقالَ ثالثٌ: (اشرحْ له جُزءَ عَمَّ)!!
- وضعَ أحدُهم المائدةَ وعليها إبريقُ الشاي، وبعضُ الفناجين من نفسِ الطراز، فقال صاحبه: (إبريقُكَ هذا أصابَهُ الكِبَرُ ولهُ ذُرِّيَةٌ ضُعَفاء)!!
- انتهينا من طعام الغَداء، فقالَ أحدُهم: (أفطَرَ عندَكم الصائمون وأكلَ طعامَكم الأبرارُ، وصَلَّت عليكم الملائكةُ إلا جبريل)! قالوا له: ولِمَ ؟ قال: (إنَّه ينتظرُ مجيءَ الشاي)!!
- في الطريـق ذكـرَ أحـدُهم أنَّـهُ مُحـتَقِنٌ يُريـدُ أن يتَبَـوَّل، فاسـتأذنَهم بالذهاب إلى مكانٍ قريبٍ، فقالَ له آخَرُ: وأنا كذلك، فقال الأوَّلُ: (إذن هيا بنا نبولُ جماعةً) !!
- المدعوُّون منشَغِلون في تناولِ الطعام، وأحَدُ الجالسين في طَرفِ السُفرَةِ ينادي صاحبَه في الطرف الآخر مِراراً وهو لا يسمَع، فقال لـه أحَـدُهم وهو يضحَكُ : لا تُتعِب نفسَكَ (إنَّهم اليومَ في شُغُلٍ فاكهون)
- سمعتُ من أحَدِهم يقولُ لصاحبه: (إذا لم تسـكُتْ فسـأقرأُ عليـك آيـةً تَشطُرُك نصفين)!
- مـررتُ بحلقَـةِ قُـرآن ذاتَ يـومٍ والقُـرَّاءُ يَقـرأونَ مِـن سـورَةِ الكهْـفِ بالتوالي، فدخَلَ أحَدُهم البيتَ، وكانت هناكَ مِظَلَةٌ مسنَدَةٌ إلى الجدار، فقال: لمن هذه المِظلة؟ وكانَ القارِئُ يُرَتِّلُ قولَه تعـالى: (قـالَ إنَّـكَ لـن

تستطيعَ مَعي صَبراً) فوَصَلَ الآيةَ على نَفسِ النَّغمَـةِ والترتيـلِ بقولِـه للأخِ السـائلِ: (لـيس لـك أن تأخُـذَها، فـإنْ أخـذتَها إنَّـكَ إذن مِـن الظـالمين !!) وعبـارات أخـرى لا أذكرهـا !! عـامِلاً بأحكـامِ التجويـدِ والتلاوَةِ !

- كنَّا في سفَرٍ فجَمَعْنا الظهرَ معَ العصرِ جَمعَ تـأخيرٍ، ولم نتَنـاول طعـامَ الغَداءِ حتَّى وقتٍ متأخِّر، فقالَ أحدُهم: " يا جماعَة، انووا جَمْعَ الغداءِ مَع العَشاءِ جَمْعَ تأخير!!
- قولُهم عن الشـخص الأكـول: (فـلانٌ مثـلُ عَصـا موسـى تلقَـفُ مـا يأفكون)
- يقولُ أحَدُهم: لا أستطيعُ أن أفعَلَ ذلك لأنِّي قد حلَفتُ يميناً.

ـ الآخر: لا، أنا سمعتُكَ وأنتَ تحلِف، إنَّكَ لم تَحلِفْ يميناً بل شِمالاً !!

- قلتُ لأَحَدِهم: مَن بَقيَ في الحيِّ مِن إخوانِنا الذين نعرِفُهم؟

فقال: لقد سافَرَ الجميعُ ولم يبقَ إلا فلانٌ، وحدَهُ لا شريكَ له!!

- بعد الامتحان، قيلَ له: اليومَ آخرُ امتحان، فهو عندَكَ عيدٌ.

قال: لا، بل ما زلتُ مُحرِماً لَم أتحلَّلْ بعدُ، لأنَّه بقيَ لي امتحانٌ آخـر، اليومَ عندي هو يومُ عرَفَة !!

- أحدُهم يكنِسُ الأرضَ، والآخرُ ينظرُ إلى الأرضِ ويُخاطبُ سِـرباً مـن النملِ قائلاً:

"يا أيُّها النملُ ادخلوا مساكنَكم لا يَكنِسَـنَّكُم (فـلان) والـذين معَـهُ وهم لا يشعُرون" !!

- في محاضَرَةٍ في المسجدِ حضرَها أعدادٌ غفيرةٌ من الناس، يسألُ أحدُ الشبابِ عن معصيةٍ ارتكبَها ولا يستطيعُ تركَها، ماذا يصنَعُ؟!
فأجابَهُ الشيخُ (المعروفُ بتساهُله المُفرِط): "لا عليك يا بُنيَّ، فالأمرُ هيِّنٌ، وغايةُ ما ينالُكَ منَ الله يومَ القيامَةِ صَفعةٌ ورَكلةٌ، ثمَّ يُدخِلُكَ الجنَّة" !!
- رأى الشيخُ بعضَ طلاَّبه قد نامَ أثناءَ إلقائه المُحاضرَةَ، فقال: " منهم من قضى نحبَه ومنهم من ينتَظِر" !!
- نشرَ أحدُهم في موقِع (فيس بوك):

"إنَّ الذينَ خنَعوا سواءٌ عليهم أحَفَزتَهم أم لم تَحفِزْهُم لا يَخرُجون، يُخادِعونَ الناسَ والذين تَحَرَّروا وما يُخادِعون إلا أنفُسَهم وما يشعُرون، وإذا قيلَ لهم لا تَدعَموا المُفسِدين في الأرضِ قالوا إنَّما نحنُ الديمقراطيون، ألا إنَّهم هم الطُغاةُ ولكن لا يشعُرون".!!

- يقرأُ أحدُهُم قولَهُ تعالى: (في بيوت أذِنَ اللهُ أن تُرفَعَ) بضَمٍّ (التاء) في (بيوت) يفعَلُ ذلكَ عامِداً قاصِداً ! فيقالُ له: إنَّ حقَّها الجرُّ لا الرفعُ، فلِمَ رفعتها؟!
فيجيبُهم: لقد أذِنَ الله أن تُرفَعَ !!

هذه بعضُ الأمثلةِ الواقعةِ والمنتشرَة، لا أقولُ لدى مَن أظهَرَ الكُفرَ والفُسوقَ والعِصيان، بل لدى من يحسَبون أنَّهُم على شيءٍ، وأنَّهم حُماةُ الدينِ، وأنَّهُم أهلُ التقوى والصلاح، وما ذكرتُهُ ما هو إلا نبذَةٌ يسيرةٌ مما

في جُعبتي من تلك الوقائع والمَهازل، ولو رُحتُ أُحصي كلَّ ما سمعتُ لَطالَ بِنا المُقام، ولو أنَّنا قارنا المقالاتِ المتقدِّمَةَ مع ما قالَه منافقو تبوك، لوجَدنا أنَّ منها ما يوازيه في السوءِ، ورُبَّما تفوَّقَ عليه، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله.

قال القاضي عياض ﴿:

[وإنَّما أكثَرْنا شاهِدَنا مع استثقالنا حكايتَها لتَعريفِ أمثِلَتِها، ولتساهُل كثيرٍ من الناس في ولوج هذا الباب الضَنِك، واستخفافِهم فادِحَ هذا العِبءِ وقِلَّةِ علمِهم بعظيمِ ما فيه من الوزر، وكلامهم منه بما ليس لهم به علم، ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم][1].

وقال الشيخُ عبدُ اللطيف بنُ عبدِ الرَّحمن آل الشيخ:

[من الأسبابِ المانِعَةِ عن فَهم كتاب الله أنَّهم ظنُّوا أنَّ ما حَكاهُ اللهُ عن المشركين، وما حَكَمَ عليهم ووصَفَهم به، خاصٌّ بقومٍ مَضَوا، وأُناسٍ سَلَفوا وانقَرَضوا، ولم يعقُبوا وارِثاً، ورُبَّما سَمِعَ بعضَهم قولَ مَن يقولُ من المفسِّرين: هذه نزَلَت في عُبَّادِ الأَصنام، هذه في النصارى، هذه في الصابئة، فيظنُّ الغَمْرُ أنَّ ذلك مختصٌّ بهم، وأنَّ الحكمَ لا يتعدَّاهم، وهذا من أكبر الأسباب التي تحولُ بينَ العَبدِ وبَينَ فَهم القُرآن والسُّنَّة][2].

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٢٤٠).

(٢) تحفة الطالب والجليس، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

أقوالُ العلماء واتفاقهم على أنَّ الاستهزاء بالدين كفر

من خِلالِ تَتبُّعِ أقوالِ العُلماءِ في كُفر المُستَهزِئ نَجِدُ أنَّهُم تكَلَّموا عن ثلاثِ صوَر وهي ؛

الأولى: أن يَستَهزِئَ المرءُ بالردَّة، كأن يُقالَ لأَحَدِهِم: ألا تتَّقيَ اللهَ! أوَلَستَ بمسلمٍ ؟! فيقولُ: لا أنا يهوديٌّ أو نَصرانيٌّ ! وهو في الحقيقَة لا يَعتقِدُ عقيدَةَ اليهود ولا النصارى، ولا يُريدُ في الحقيقَةِ التحوُّلَ إلى دينِهم، وإنَّما قال ذلك هازلاً، والهزلُ في الردَّة ردَّةٌ عند العلماءِ قاطبةً بلا مخالف !

الثانية: أن يتكلَّمَ بِكَلِمةِ الكُفرِ هازلاً، غيرَ مُريدٍ للكفرِ أو قاصِدٍ له، أو مُعتَقِدٍ لمعناهُ، وإنَّما قالَ ما قالَ لأَجلِ الضَحِكِ وحَسْب، كأن يقول: **"**هل أنتم مجانين ؟! تُصدِّقون أنَّ هناكَ جنَّةً وناراً ؟!!**"**

أو يقولُ قائلٌ: **"**شأنُكم عجيبٌ أيُّها المُسلمون، دينُكم كلُّه إرهابٌ، وسفكٌ للدِّماءِ، فمن دخَلَ فيه قطعتُم ذكَرَه، ومن رجَعَ عنه قطعتُم رأسَه**"**!!

الثالثة: أن يتكلَّمَ بكلامٍ في الدين ممَّا هو مَوضِعُ تعظيمٍ، كآياتِ الله تعالى، وأسمائه، وصفاته، ورسوله، وملائكته، وأخبارِ الآخِرَةِ، ونحو ذلك، فيُخرجُهُ مَخرَجَ اللَّعِب والهزْل، فيكفُرُ بهذا عند عامَّة العلماء، لنصِّ القُرآن عليه، لأنَّه مُستخِفٌّ بالمُعظَّمات والمقدَّسات التي لا يصحُّ الإيمانُ إلا بتعظيمها، وحيثُما غابَ الإيمانُ حضرَ الكفرُ ولا بُدَّ.

هذه الصُّوَرُ الثلاثُ هي الـتي ستَتَضَـمَّنَهُما كـلُّ أقـوال العلمـاء الـتي سأنقُلُها لاحِقاً، فاقتضى التنويهَ إليهـا، وتوضـيحَ أنَّهـا جميعـاً عنـدَهُم مـن الكفر الأكبر الناقل عن الملَّة، بلا تفريقَ بينها.

عند الحنفيَّة :

جاءَ في يتيمَةِ الفتاوى:

[مَن استَخَفَّ بالقُرآنِ أو بالمسجدِ أو نحوه مما يُعَظَّمُ في الشَّرعِ كَفَر][1]

وفي الفتاوى الظهيرية :

[من قرأ آيةً من القُرآن على وَجه الهَزْل كفَر][2]

وفي الفتاوى البزَّازية :

[إدخالُ القُرآن في المِزاحِ، والدُّعابَةِ كُفْرٌ، لأنَّه استِخفافٌ به] [3].

وكان ممَّا أورَدَهُ :

[وفي الخُلاصَةِ : مَن قَرَأَ القُرآنَ على ضَربِ الدُّفِّ والقَضيب يكفُرُ] [4].

(١) (رسالة في ألفاظ الكفر) لمحمد بن إسماعيل الرشيد الحنفيِّ، ص٢٢.

(٢) شرح الفقه الأكبر: ص ١٣٩.

(٣) الفتاوى البزازية (٣/٣٣٨).

(٤) رسالة في ألفاظ الكفر: ص ٢٢- ٢٣.

وقالَ ابنُ نُجَيم ω:

[ويكفُرُ إذا أنكرَ آيةً من القُرآن، أو سَخِرَ بآيةٍ منه...][1].

وقال صدِّيقُ حَسَن خان القنوجيُّω:

[من ذلك الهَزْلُ بشيءٍ فيه ذكرُ الله، أو الرسول، أو القُرآن، أو السُنَّة، وهذا الهزلُ كفرٌ بواحٌ] [2].

المالكية:

قال القاضي عياض ω:

[اعلم أنَّ من استَخَفَّ بالقُرآنِ أو المصحَفِ أو بشيءٍ منه، أو سبَّهما، أو جحدَه، أو حرفاً منه أو آيةً، أو كذَّب به أو بشيءٍ منه، أو بشيءٍ مما صرَّح به فيه من حُكمٍ أو خَبَرٍ، أو أثبَتَ ما نفاهُ أو نفى ما أثبَتَه، على علمٍ منه بذلك، أو شكَّ في شيءٍ من ذلك، فهو كافرٌ عندَ أهلِ العلم بإجماع][3].

وقال: [اعلم ـ وفَّقَنا اللهُ وإيَّاكَ ـ أنَّ جميعَ مَن سَبَّ النبيَّ ﷺ، أو عابَهُ، أو ألحَقَ به نقصاً في نفسِه أو نَسَبه أو دينه، أو خَصلةٍ من خِصالِه، أو عرَّضَ به، أو شبَّهَهُ بشيءٍ على طريقِ السبِّ له، أو الإزراءِ عليه، أو

---

(1) البحر الرائق (5/ 131).

(2) الدين الخالص (4/546).

(3) الشفا (2/1101).

التصغيرِ لِشأنِه، أو الغَضِّ منه، والعيبِ له، فهو سابٌّ له، والحُكمُ فيه حُكمُ السابِّ يُقتَلُ كما نُبَيِّنُهُ، ولا نستثني فصلاً من فصول هذا الباب على هذا المقصد، ولا نمتري فيه، تصريحاً كان أو تلويحاً.

وكذلك من لعَنَه أو دعا عليه، أو تمنَّى مَضَرَّةً له، أو نَسَبَ إليه ما لا يليقُ بمنصبه على طريق الذمِّ، أو عبَثَ في جهتِه العزيزةِ بِسُخفٍ من الكلام وهُجْرٍ، ومنكرٍ من القول وزورٍ، أو عيَّرَهُ بشيءٍ مِمَّا جَرى من البلاءِ والمِحنَةِ عليه، أو غمَصَهُ ببعضِ العوارِضِ البشريَّةِ الجائِزَةِ والمعهودَةِ لَدَيه.

وهذا كلُّه إجماعٌ من العلماء وأئِمَّةِ الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى هلُمَّ جَرًّا][1].

وقال: [الكتابُ والسنَّةُ موجِبان أنَّ مَن قَصَدَ النبيَّ ﷺ بأذىً أو نقصٍ، مُعَرِّضاً أو مصرِّحاً، وإن قلَّ، فقتلُهُ واجِبٌ، فهذا البابُ كلُّه مِمَّا عدَّهُ العلماءُ سَبًّا أو تنقُّصاً يجِبُ قتلُ قائِلِه، لم يختلف في ذلك مُتَقَدِّمُهم ولا مُتأخِّرُهم][2].

---

(١) الشفا (٩٣٢/٢).

(٢) الشفا (٩٤٢/٢).

الشافعية:

قال الإمامُ الشافعيُّ ω:

[...من ذكَرَ كتابَ الله، أو محمَّداً رسولَ الله ﷺ، أو دينَ الله بما لا ينبغي....فقد نقَضَ عهدَه، وأحلَّ دمَه، وبَرِئَت منه ذِمَّةُ الله تعالى وذمَّةُ رسول الله ﷺ][1].

وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيميةَ ω:

[نُقِلَ عن الشافعيِّ أنَّه سُئِلَ عَمَّن هَزَلَ بشيءٍ من آياتِ الله تعالى، أنَّه قالَ: كافرٌ، واستدلَّ بقوله تعالى﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾][2].

وذكَرَ الإمامُ النوويُّ ω:

[أنَّ مَنْ جَحَدَ آيةً من القُرآن على وجهِ الهَزل يكفُرُ][3].

قال الرافعيُّ ωوهو يتكلَّمُ عن الردَّةِ بِمَ تكون:

---

(١) "مختصر أخلاق العلماء" للجصاص (٣/٥٠٥).

(٢) الصارم المسلول (٥١٣).

(٣) روضة الطالبين (١٠/ ٦٤).

[تحصلُ الردَّةُ بالقول الذي هو كفرٌ، سواءٌ صدَرَ عن اعتقادٍ أو عنادٍ أو استهزاءٍ ....أو سبَّ نبياً من الأنبياء عليهم السلام، أو استَخَفَّ به، أو استَحَلَّ مُحَرَّماً بالإجماع][1].

[ومن استخفَّ بالإسلام كفَرَ وإن لم يتلفَّظ، ويكونُ بالفِعل أيضاً، إذا دلَّ على الاستخفاف دلالةً ظاهرةً، كما إذا ألقى المصحفَ في القاذورات اختياراً، فإنَّا نَحكُمُ بكفرِه، وإن أنكَرَ الاستخفافَ، لأنَّ الظاهِرَ من حالِه يُكذِّبه في إنكاره][2].

الحنابلة:

قال الإمامُ ابنُ قدامةَ المقدسيُّ ω:

[من سبَّ الله تعالى كفَر، سواء كان مازحاً أو جاداً، وكذلك من استهزأ بالله تعالى أو بآياته أو برسُلِهِ أو كُتُبه][3].

وقال شرفُ الدين الحجَّاويُّ ω:

[...أو سبَّ اللهَ أو رسولَهُ أو استهزَأَ بالله أو كتُبِهِ أو رُسُلِهِ ....أو أتى بقولٍ أو فعلٍ صريحٍ في الاستهزاءِ بالدين.....كَفَر] [4].

---

(١) الشرح الكبير (٩٧/١١).

(٢) إخلاص الناوي (١٣٣/٤).

(٣)المغني (٢٩٧/١٢ـ ٢٩٩).

(٤) الإقناع (٢٩٧/٤)، الفروع (١٦٥/٦).

وقال البُهوتيُّ ω:

[مَن جحَد كتاباً من كُتُبِ اللهِ أو شيئاً منه، أو استهزأ بالله تعالى، أو بكتبه أو رسُلِه فهو كافر، لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾

وكذا إن وجِدَ منه امتهانٌ للقرآن أو طلَبُ تناقُضِهِ، أو دعوى أنَّه مُختَلَقٌ أو مقدورٌ على مثلِه أو إسقاطٌ لحُرمَتِه، لقوله تعالى:

﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: ٢١]][(١)].

وجاءَ في (كشَّافِ القِناعِ عن مَتنِ الإقناع) باب "حُكمُ المُرتدِّ" وهو:

لُغةً: الراجِعُ، يُقالُ ارتَدَّ فهوَ مُرْتَدٌّ إذا رَجَعَ، قال تعالى:

﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١]

وشَرعاً: (الذي يكفُرُ بعدَ إسلامه) نُطقًا أَو اعتقاداً أَو شكّاً أَو فعلاً.

(ولو مُمَيِّزاً) فتَصِحُّ رِدَّتُهُ كإسلامِهِ، ويأتي(طَوعاً) لا مُكرَهاً، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦] (ولو) كان (هازِلاً) لِعُمُومِ قوله تعالى: ﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة:٥٤] الآيَةَ،

---

(١) كشاف القناع عن متن الإقناع (٦/١٦٨ـ ١٦٩) بتصرف.

وحديث ابن عبَّاسٍ مرفوعاً: {من بَدَّلَ دينَهُ فاقتُلوه} رواهُ الجماعةُ إلَّا مُسلماً، وَأَجمَعوا على وجوبِ قتلِ المُرتدِّ.

(أو استهزَأَ بالله) تعالى (أو بكتُبِهِ أو رُسُلِه) لقوله تعالى:

﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ ﴾[التوبة:٦٥– ٦٦][1].

قَال في "المُغني والشَّرح":

[ولا ينبغي أَنْ يُكتَفى في الهازئ بذلك بمُجَرَّدِ الإسلامِ حتَّى يُؤَدَّبَ أَدَباً يَزْجُرُهُ عن ذلك لأنَّهُ إذا لم يُكْتَفَ مِمَّن سَبَّ رسولَ الله ﷺ بِالتّوبةِ فهذا أَوْلى....... (أَو أَتى بقولٍ أو فعلٍ صَريحٍ في الاستهزاءِ بالدِّين) الَّذي شرَعَهُ اللهُ، كفرَ لِلآيةِ السَّابقَة (أَو وُجِدَ مِنهُ امتِهانٌ لِلقُرآن أو طَلَبُ تناقُضِه أو دعوَى أنه مُختَلفٌ أو) أَنَّهُ (مُخْتَلِفٌ أَو مقدُورٌ عَلى مثله أو إسقاط لحُرمَتِهِ) كفَرَ، لقولِهِ تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ ....][2]

(١) المصدر السابق (٢١/ ٩٤_٩٥).

(٢) المصدر السابق (٢١/ ٩٥).

الظاهرية:

قالَ ابنُ حَزم:

[فنصَّ تعالى على أنَّ الاستهزاءَ باللهِ تعالى أو بآياتِهِ أو برسول من رسُلِهِ كُفرٌ مُخرجٌ عن الإيمان، ولم يقُل تعالى في ذلك إنِّي علِمتُ أَنَّ في قلوبكم كُفراً، بل جَعَلَهم كفَّاراً بنفسِ الاستهزاء، ومن ادَّعى غيرَ هذا فقد قوَّلَ اللهَ تعالى ما لَم يَقُلْ، وكذَبَ على الله تعالى][1].

وقال:

[إنَّ الإيمانَ بالكُتُب المُنَزَّلَة يتضمَّنُ وجوبَ تَعظيمِها وإجلالِها وإكرامِها، وإنَّ الاستهزاءَ بها لا يجتمعُ مع هذا التعظيمِ والإجلال، فهو مناقضٌ لعَمَلِ القلبِ، كما أنَّه يُناقِضُ الإيمانَ الظاهِرَ باللسان][2].

من العلماء المعاصرين:

- **سئل الإمامُ محمَّدُ بنُ إبراهيمَ آل الشيخ** ، عن الذي يقول: إنَّ اللحيةَ وساخةٌ، هل يعتبر مرتداً؟

فأجابَ بقوله: [فيه تأمُّلٌ، إن كان يعلمُ أنه ثابت عن الرسول ، فهذا استهزاءٌ بما جاءَ به الرسولُ فحَرِيٌّ أن يُحكم عليه بذلك][3].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ١١٤).

(٢) المحلى لابن حزم (١٣/ ٥٠٠).

(٣) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم(١٢/١٩٥).

○ **الشيخ عبد العزيز بن باز ω:**

[الاستهزاءُ بالإسلام أو بشيءٍ منه كفرٌ أكبَرُ.............. ومن يستهزئُ بأَهلِ الدينِ والمُحافظينَ على الصلواتِ من أَجلِ دينِهم ومحافظتهم عليه، يُعتَبَرُ مُستَهزِئاً بالدين، فلا تجوزُ مُجالستُه ولا مصاحبَتُه، بل يجبُ الإنكارُ عليه والتحذيرُ منه، ومن صُحبته، وهكذا من يخوضُ في مسائلِ الدين بالسخريةِ والاستهزاءِ يُعتَبَرُ كافراً][1].

○ **الشيخ محمد بن صالح العثيمين ω:**

وقد سُئِلَ عن حُكمِ مَن يَمزَحُ بكلامٍ فيهِ استهزاءٌ بالله أو الرسـول ﷺ أو الدين؟ فأجاب بقوله: [هذا العملُ وهو الاستهزاءُ بالله أو رسوله ﷺ أو كتابِه أو دينِه ولو كانَ على سبيلِ المَزْحِ، ولو كانَ على سبيلِ إضحاكِ القَـومِ كفرٌ ونفاقٌ، وهو نفسُ الذي وقَعَ في عهدِ النبيِّ ﷺ في الـذين قـالوا: **"مـا** رأينا مثلَ قُرَّائِنا هؤلاءِ أرغَـبَ بُطونًـا، ولا أكـذَبَ ألسُـنًا، ولا أجـبَنَ عنـدَ اللقاء"، يعني رسولَ اللهِ ﷺ وأصـحابَه القُـرَّاءَ، فنزَلَـتْ فـيهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾[التوبة:٦٥]، لأنَّهـم جـاؤوا إلى النبيِّ ﷺ يقولون: إنَّما كُنَّـا نتحـدَّثُ حـديثَ الرَّكـبِ نقطَـعُ بـه عَنـاءَ الطريقِ، فكانَ رسولُ الله، ﷺ يقولُ لهم ما أمـرَهُ اللهُ بـه: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا﴾. فجانِبُ الربوبيَّةِ، والرسالةِ،

---

(١) مجلة الدعوة عدد: ٩٧٨.

والوَحيِ، والدين، جانِبٌ مُحتَرَمٌ، لا يجوزُ لأَحَدٍ أن يَعبَثَ فيه، لا باستهزاءٍ، ولا بإضحاكٍ، ولا بسُخريَةٍ، فإنْ فعَلَ فإنَّهُ كافِرٌ، لأنَّهُ يدُلُّ على استهانَتِه بالله عزَّ وجَلَّ، ورسله وكتبه وشرعِه، وعلى من فعلَ هذا أن يتوبَ إلى الله عزَّ وجَلَّ ممَّا صنَعَ، لأنَّ هذا من النفاق، فعليه أن يتوبَ إلى الله ويستغفرَ، ويُصلِحَ عمَلَه، ويجعَلَ في قلبِه خشيةَ اللهِ عزَّ وجَلَّ وتعظيمَهُ وخوفَهُ ومحبَّتَه، والله وليُّ التوفيق][1].

○ الشيخ صالح الفوزان:

[ففي هاتين الآيتين الكريمتين مع بيان سببِ نُزولِهما دليلٌ واضِحٌ على كُفرِ من استهزأَ بالله، أو رسولِه، أو آياتِ الله، أو سنَّةِ رسولِه، أو بِصحابَةِ رَسولِ الله، لأنَّ مَن فعلَ ذلك فهو مُستَخِفٌّ بالربوبية والرسالة، وذلك منافٍ للتوحيدِ والعقيدةِ، ولو لم يقصِدْ حقيقةَ الاستهزاء، ومن هذا الباب الاستهزاءُ بالعلمِ وأهلِه، وعدَمُ احترامِهِم أو الوقيعة فيهم من أجلِ العلمِ الذي يحملونه.

وكونُ ذلك كفراً ولو لم يقصِدْ حقيقةَ الاستهزاء، لأنَّ هؤلاء الذين نزَلَتْ فيهم الآياتُ جاؤوا معتَرِفينَ بما صدَرَ منهم، ومعترفين بقولهم: (إنما كنا نخوض ونلعب) أي لم نقصِدْ الاستهزاءَ والتكذيبَ، وإنَّما قصَدْنا اللَّعِب، واللَّعِب ضدُّ الجَدِّ، فأخبَرَهم اللهُ على لسان رسولِه ﷺ أنَّ عُذرَهم هذا لا يُغني مِنَ الله شيئاً، وأنَّهم كفروا بعدَ إيمانِهم بهذِهِ المَقالة التي استهزَأوا بها،

(١) المجموع الثمين (٦٣/١).

ولم يَقبلْ اعتذارَهم بأنَّهم لم يكونوا جادِّين في قولِهم وإنَّما قصدوا اللَّعِب، ولم يَزِدْ ﷺ في إجابَتِهم على تلاوةِ قولِ الله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ لأنَّ هذا لا يدخُلُه المَزْحُ واللَّعِب، وإنَّما الواجبُ أن تُحتَرَمَ هذه الأشياءُ وتُعَظَّمُ، وليُخشَع عندَ آياتِ اللهِ إيماناً بالله ورسولِه وتعظيماً لآياته، والخائِضُ واللاعِبُ مُنتَقِص لها][1].

- **قال الشيخ عبد الله الغُنَيمان** في شرح (فتح المجيد):

[قالوا: ما رأينا كقُرَّائِنا هؤلاء ـ يعنون: الصحابة مع الرسول ﷺ ـ أكذب ألسناً وأرغب بطوناً وأجبن عند اللقاء !

والواقعُ خلاف هذا كلِّه، وإنَّما قالَه من قالَه ليُضحِكَ به القومَ على سبيلِ المِزاحِ، وهذا هو السُخرية، لأنَّ المزحَ واللَّعِب لا يكونُ مَحَلُّهُ دينَ اللهِ ولا شَرعَهُ ولا رُسُلَه ولا كُتُبَه، وقوله في هذا: (من استهزأ بشيءٍ فيه القُرآن أو الرسولُ) لا يقصد به القُرآن خاصةً، ولا الرسول محمداً ﷺ فقط، بل جميعَ الرُّسُل وجميعَ الكتب التي أنزلها الله جل وعلا، والشرعُ الذي أنزله على عباده داخل في ذلك.

أمَّا (ذكرُ الله) فيدخلُ فيه ما ذكرُ من أسمائه وصفاته وآياته الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ، وكذلك حكمُهُ الكونيُّ القدَريُّ الذي يتضمَّنُ الخَلْقَ، كأن يستهزِئَ بكون الله جلَّ وعلا خَلَقَ الذُّبابَ مثلاً، أو بأَنَّهُ خَلَقَ الحيَّات، أو

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد: ص(٨٠ ـ ٨١).

خلَقَ العقاربَ المؤذيات، أو ما أشبَهَ ذلك مِمَّا قد لا تظهرُ حكمتُه لكثيرٍ من الناس، أو استهزأَ وسَخِرَ بأنَّ بعضَ الناسِ عُقولُهم قاصرةً ثمَّ يتحَصَّلونَ على أموالٍ طائِلَةٍ في الدنيا، وأنَّ غيرَهم قد يكونون أعلمَ منهم ولا يحصلُ لهم شيءٌ من ذلك، كما يحدثُ لبعضِ الزنادِقَةِ من الشعراءِ وغيرِهم، فإنَّ هذا من السُّخريةِ التي تجعلُ الإنسانَ كافراً، نسألُ اللهَ العافية.

وأما (الآيات الشرعية) فكأنْ يسخرَ من سنَّةٍ من سُنَنِ النبيِّ ﷺ، كالذي يسخر - مثلاً- من إعفاء اللحية وهو يعرف أنَّها سنة، أو يسخرُ من السواك وهو يعلم أنه سنة، أو يسخر من أي سنة من السنن التي ثبتت عن النبيِّ ﷺ، أو ثبتتْ في كتاب الله جلَّ وعلا.

وأمَّا (السخريةُ بمن يحمِلُ الدين ويعمل به)، فإن قصَدَ بسخريته السخريةَ به في ذاته وليس لتديُّنِه، فهذا له حكمُ غيرِه من الاستهزاءِ بالناس، وهذا من الأمورِ المُحَرَّمةِ، ولا يكون بذلك كافراً.

وكذلك (الآياتُ التي أنزَلَها ربُّنا جلَّ وعلا على رُسُله)!

كأن يقولَ مثلاً: وهذه أحكامٌ لا تُناسبُ الوقتَ الحاضِرَ، لا تناسبُ التمدُّنَ ولا تناسبُ تقدُّمَ الإنسان وحضارتَه، فإنَّ هذا كفرٌ بالله جلَّ وعلا، وإن كانَ مُسلماً، فهو يرتدُّ بذلك، وإن كان كافراً من الأصل فيجب أن يُمنَعَ إذا كان عندَ المسلمينَ مَقدِرَةٌ على مَنعِه.

أو أن يسخرَ بأنَّ المرأةَ لا تأخُذُ من الإرثِ إلا نِصفَ ما يأخُذُ الرَّجُلُ، وهذه

أمثلَةٌ، وإلا فالأمرُ في هذا واسِع.

وأمَّا (اللَّعِب): فكأن يذكرَ الأمورَ على سبيلِ المَزْحِ غيرِ المَقصودِ، وإنَّما يقولُ مَزْحاً، أو يقولُ كلاماً لا يَعرِفُ معناهُ، أو لا يَقصِدُ معناه؛ لأنَّ آياتِ الله ورسولَ الله، وكذلك أسماءَ اللهِ وصفاتَه ليستْ مَحَلاً للَّعِب، بل يجِبُ أن تُعَظَّمَ غايَةَ التعظيمِ وتُحتَرَمَ وتُقَدَّرَ، ولِهذا أمرَ اللهُ جلَّ وعلا بتقديرِهِ وبتعظيمِهِ، وكذلك تعظيمِ شرعِهِ وتعظيمِ رسُلِه، فهؤلاءِ الذينَ نزَلَتْ فيهم الآيةُ جاءَ أنَّ منهم مَنْ أتى إلى النبيِّ ﷺ يعتذِرُ ويُقسِمُ باللهِ أنَّهُ ما أرادَ حَقيقَةَ الكلامِ ومدلولَهُ، وإنَّما قالَ ذلكَ على سبيلِ الترويحِ عن النفس، لأنَّ المسافرَ يتعبُ، فإذا ذكرَ شيئاً فيه ترويحٌ عن النفس يجِدُ نشاطاً، فهو يقول: أردنا هذا فقط، ومع ذلك لم يلتفت الرسولُ ﷺ إليه، ولم يقبَلْ عُذرَهُ وصارَ لا يزيدُ على قولِ اللهِ جلَّ وعلا: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾

ولم يقبل عُذرَهُ، ولم يقبل أنَّه ما كان قاصِداً، فدلَّ هذا على أنَّ عدَمَ قَصدِ الحَقيقةِ بالكلام والسُّخريَةِ واللَّعِب يكونُ كُفراً][1].

(١) تسجيل صوتي.

○ **يقول الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن السَّعد:**

المسألة السادسة وهي: خطورةُ هذا الأمرِ العظيم، وهو السخريَةُ والاستهزاءُ عافانا اللهُ وإيَّاكم من ذلك، وهذا مع الأسف الشديد منتشِر بين الناس !

كثيرٌ من الناس يقولون كلماتٍ وهم لا ينتَبهون لها، فيكفُرون والعياذُ بالله بسبب هذه الكلمة، وحتى أنِّي مرةً سمعتُ أنَّ هناك من يسأل أهلَ العلم، يقول: إنَّ رجلاً نادى رجلاً قائلاً: يا عبدَ الضمير، والعياذ بالله، وهو لا يُبالي بهذه الكلمة، ولا شكَّ أنَّها كفرٌ، هذا غايةُ في الكفر.

مرَّةً سألني أحدُهم، قائلاً: كان بعضُ الناس مجتمعين على طعام، فجاءَ واحِدٌ وقال: "وخشَعَتْ الأصواتُ للرحمنِ فلا تسمَعُ إلا هَمساً"، لأنَّهم انشغلوا بالطعام عن الكلام، وهذا استهزاءٌ وسخريةٌ! فالأصواتُ تَخشَعُ للرحمنِ ولا تخشَعُ للطعام!

ومع الأسف الشديد أنَّ هناك ممن قد ينتسِبُ للخير ويقعُ في ذلك......... وإنما الواجبُ هو تعظيمُ الإنسانِ لربِّه سبحانَه وتعالى التعظيمَ المُطلَقَ، وأن يَحتَرِمَ رسولَه عليه الصلاة والسلام الاحترامَ الذي يليقُ به، وأن يحترِمَ الدينَ الذي شرَعَهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ، فالأمرُ خطيرٌ غايةً في الخطورة.

والمسألةُ السابعة: هو ما تقدَّم من خطورة من يجلسُ مع هؤلاء

المستهزئين، خطورة الجلوس في المجالس التي يُستهزأُ بها بآيات الله، ويُسخر فيها بدين الله والعياذ بالله.

واعلموا يا معاشِرَ إخوانِنا، أنَّ مِن اللَّعِب في آياتِ اللهِ والخَوضِ بآياتِ اللهِ هو: أن يُتكلَّمَ بكلامٍ فيه تحليلٌ لِما حَرَّمَ اللهُ أو بالعكسِ، أو إنزالُ الآياتِ في غيرِ ما أُنزِلَتْ فيه، يعني كما تقدَّم فيما سبق أنَّ بعضَ الناس يقول عن لاعبي كرَةِ القَدَمِ، إنَّ هؤلاءِ مُجاهدون، ويقولُ: إن تنصروا اللهَ ينصُركم، ... أو ما شابَهَ ذلك، يُنَزِّلُ الآياتِ القُرآنيةَ على أُناسٍ يلعبونَ الكُرَةَ، فهذا من الخوضِ في آيات اللهِ بالباطل!

أو شخصٌ يريدُ أن يفتَتِحَ مشروعاً أو مكاناً فيقرأ القارئُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، فهذا أيضاً خطيرٌ، هذا تنزيل للآيات في غير ما أنزلت فيه، وقد يكون هذا المفتتَحُ شيئاً مُحَرَّماً أو شيئاً فيه تضييعٌ للأوقاتِ، فتنزلُ الآيةُ الكريمةُ العظيمةُ في الفتحِ الذي فَتَحَهُ اللهُ لرسولِهِ، فهذا أيضاً من الشيءِ الخطيرِ، وقد كثُرَ عافانا اللهُ وإيَّاكم تنزيلُ الآياتِ في غيرِ ما أُنزِلَتْ فيه، في هذا الوقت، فهذا من الخوض بآيات الله، قد يدخل في الاستهزاء... أنا أتوقَّفُ في ذلك، لكِن قد يدخُلُ، وأمَّا أنه من الخوض في آيات الله بالباطل فهذا لا شكَّ فيه، عافانا الله وإيَّاكُم من ذلك][1].

(١) (شرح نواقض الإسلام)، (ص: ٦٥ـ ٦٦) بتصرُّف يسير.

وقد سُئِلَ الشيخُ ابنُ العُثيمين ﷺالسؤال الآتي:

ما حُكمُ من يستعملُ ألفاظاً غيرَ لائِقَةٍ في القُرآن، أو عباراتٍ أو جُمَلاً، وهذا من باب المِزاح، كذِكرِ كلمةٍ من القُرآن ورَبطِها بكَلِمَةٍ عامِّيةٍ، فما رأيُكم فيمن يفعلُ ذلك مأجورين؟

فأجاب:

[الكفرُ لا فرقَ فيه بينَ المازحِ والجادِّ، فمتى أتى الإنسانُ بما يوجِبُ الكفرَ فهوَ كافرٌ والعِياذُ بالله، ومن أعظَم ذلك، أن يأتيَ بشيءٍ يفيدُ السُّخريَةَ بالقُرآن أو الاستهزاءِ بالقُرآن، فإنَّ هذا كفرٌ نَسألُ اللهَ العافيَةَ، ...فمن أتى بكلمَةِ الكفرِ فهوَ كافرٌ، سواءٌ أتى بها جاداً أم لاعباً مازحاً، أم غيرَ مازِحٍ، فعلى من فعل ذلك أن يتوب لله عزَّ وجلَّ وأن يعتبرَ نفسَهُ داخِلاً في دين الإسلام بعدَ أن خَرَجَ منه.

ويجبُ على المؤمن أن يُعظِّمَ كلامَ الله عزَّ وجلَّ، وأن يعظِّمَ كلامَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، كما عليه أن يُعَظِّمَ الله سبحانه وتعالى وأن يعظمَ رسولَ الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم بما يليقُ به، ولا يكون غلواً فيه، وأمَّا السخريةُ بالقُرآن وربطُ الكلمات القُرآنيةِ وهي كلامُ ربِّ العالمين، ـ بكلامٍ عامِّيٍ ـ"مَسخَرَة"، فهذا أمرٌ خطيرٌ جدًّا نسألُ اللهَ العافيةَ، قد يخرُجُ به الإنسانُ من الإسلام وهو لا يَشعُرُ][1].

---

(١) فتاوى نور على الدرب – لابن عثيمين (١٤/ ٣١).

الاستهزاء بالدين من نواقض الإيمان المتفق عليها

قال الإمامُ محمَّدُ بنُ عبد الوهَّابω:

[الناقضُ السادس: من استهزَأَ بشيءٍ ممَّا جاءَ به الرسولُ عليه الصلاةُ والسلام، أو ثوابِه أو عِقابِه فإنَّه يكفُرُ][1].

وقال الإمامُ ابنُ تيميةω:

[ولم يقل قد كذبتُم في قولكم: إنَّما كنا نخوضُ ونلعبُ، فلم يُكذِّبْهُم في هذا العُذرِ كما كذَّبَهم في سائِرِ ما أظهروهُ من العُذرِ الذي يوجِبُ بَراءَتَهُم من الكفرِ كما لو كانوا صادقين، بل بيَّنَ أنَّهم كفروا بعد إيمانهم بهذا الخَوضِ واللَّعِب][2].

وقال سليمانُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمَّدٍ بنِ عبدِ الوَهَّاب رحمهُما الله:

[وفي هذا الحديث من الفوائد أنَّ الإنسانَ قد يكفُرُ بكلمَةٍ يَتَكلَّمُ بها أو عملٍ يعملُ به، وأشدُّها خطراً إراداتُ القلوبِ، فهي كالبحرِ الذي لا

---

(١) فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد، بتحقيق الأرناؤوط طبعة دار البيان ص ٥٢٠.

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول : ص ٥٢٤.

ساحِلَ له، ويُفيدُ الخَوفَ من النفاقِ الأكبر، فإنَّ الله تعالى أثبَتَ لهؤلاءِ إيماناً قبلَ أن يقولوا ما قالوه، كما قال ابنُ أبي مليكة: "أدركتُ ثلاثين من أصحابِ رسولِ الله ﷺ كلُّهُم يَخافُ النفاقَ على نفسِه" نسألُ اللهَ السلامَةَ والعفوَ والعافيةَ في الدنيا والآخِرَة][1].

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد: ص ٥٥٩.

تأصيل المسألة

لنبدأ بتقسيماتِ الأصوليين لتَصَرُّفاتِ الهـازلِ ومـا يترتَّـبُ عليهـا مـن أحكام:

قال الدكتور عبدُ الكريم زَيدان:

[**الهَزْلُ**: أن يُراد بالشيءِ ما لم يوضَع له.

والكلامُ وضِـعَ عقـلاً لإفـادَةِ معنـاهُ الحقيقـيِّ أو المَجـازيِّ، والتصـُّـرفُ القوليُّ الشرعيُّ موضوعٌ لإفادَةِ حُكمِه، فـإذا أُريـدَ بـالكلام غـيرُ موضـوعه العقليِّ، وأُريدَ بالتصرُّفِ القوليِّ غيرُ موضوعِه الشرعيِّ، وهو عـدمُ إفادتـه الحكمَ أصلاً، فهو الهزل، فالهازل يتكلَّمُ باختياره، وهو عالمٌ بمعنـاهُ مـن غـير قصدٍ لموجَبه، فهو يُباشِرُ العقودَ والتصرُّفات عن رضىً واختيـار، ولكـن لا يريدُ الحكمَ المترتِّبَ عليها ولا يختارُه ولا يرضى بوقوعه، وهو لا يُنافي أهليَّـةَ الوجوبِ ولا أهليَّةَ الأَداء، ولكنَّه يؤثِّرُ في بعض الأَحكام بالنسبة للهازل.

وخلاصةُ القول في ذلك:

إنَّ التصرُّفاتِ القوليةَ التي تقترنُ بالهزلِ ثلاثةُ أقسام، هي:

الإخبارات، والاعتقادات، والإنشاءات، ولكلِّ قِسمٍ حُكمٌ يخُصُّه:

١. الإخبارات:

وهي الإقراراتُ، والهزلُ يُبطِلُها مهما كان موضوعُ الإخبار، لأنَّ صـحَّةَ الإقرار تقومُ على صحَّةِ المخبَر به، والهزلُ دليلٌ ظاهرٌ على كَذِبِ ما أقرَّ به،

فلا يُعتدُّ بإقراره، فمَن أقرَّ هازلاً ببيعٍ أو نكاحٍ أو طلاقٍ فلا عِبرَةَ بذلك، ولا يترتَّبُ على إقراره شيءٌ، حتَّى ولو أجازَه الهازلُ.

٢. الاعتقادات:

وهي الأقوالُ الدالَّةُ على عقيدَةِ الإنسان، والهزلُ لا يمنَعُ أَثَرَها، ولهذا لو تكلَّمَ بكلمَةِ الكُفر هازلاً صارَ مرتداً عن الإسلام، وإنَّما كانَ الحُكمُ هكذا وإن كانَ الهازلُ لا يقصِدُ الردَّةَ ولا يُريدُها، لأنَّ التكلُّمَ بكلمةِ الكفر هَزلاً استخفافٌ بالإسلام، والاستخفافُ به كفرٌ، فصارَ الناطِقُ بكلمةِ الكفر مرتداً بنفس الهزلِ وإن لم يقصِد حكمَهُ، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ....الآية﴾

٣. الإنشاءات:

ومعناها: إيقاعُ الأَحكام التي تترتَّبُ عليها الأَحكامُ الشرعيَّةُ المقرَّرَة لها، كالبيع والإجارة وسائر العقود والتصرُّفات، وهي نوعان:

النوعُ الأول: لا يُبطِلُه الهزلُ، كالنكاح والطلاق والرَّجعَة، لقوله عليه الصلاة والسلام: (ثلاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ وهَزْلُهُنَّ جِدٌّ ؛ النكاحُ، والطلاقُ، والرَّجعَة) فهذا النوعُ يشمَلُ التصرُّفاتِ التي لا تحتَمِلُ الفَسخَ .

النوعُ الثاني: ما يؤَثِّرُ فيه الهزلُ بالإبطالِ أو الفَساد: كـالبيع، والإجـارة، وسائِرِ التصرُّفات التي تحتَمِلُ الفَسخَ، على خـلافٍ في ذلـك بـين الفقهـاء، مذكورٍ في كتُب الفقهِ المختلِفة][1].

أمَّا تأصيلُ المسألةِ عَقَدياً؛ فيكونُ أولاً بمعرفة **حقيقَةِ الإيمان** وماهيَّتِه، فأقولُ وبالله التوفيق:

إنَّ الإيمانَ عندَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ له حقيقةٌ مركَّبَةٌ من باطِنٍ وظـاهِرٍ، أمَّا الباطنُ فله جانبان:

الأول: جانـبُ تصـديق الأَخبـار الآتيـةِ عـن طريـق الـوَحي، وقَبولها بالتسليم المطلق، من غير شكٍّ ولا ريب، واصطلحوا عليه بـالاعتقاد.

والجانب الثاني: هو جانبُ أعمـال القَلـب المصـدِّق المـؤمِن بالغيـب، وهي لازمةٌ له لا تنفكُّ عنه، وهي المحبَّةُ، والتعظـيمُ، والخَشـيةُ، والصـدقُ، والإخلاصُ، والإنابَةُ، ونحو ذلك.

وأمَّا الظاهرُ من الإيمان، فلهُ جانبان كذلك، وهما:

قولُ اللسان: وهو الإقرارُ بمعتقَـدِه وإعـلانُ ذلـك، وعَـدَمُ كتمانِـهِ مـع الاستطاعة، ويتمثَّـلُ ذلـك بـالنُطقِ بالشـهادتين، فبـه يُعصَـمُ دمُـهُ ومالُـه، ويُسَجَّل في ديوانِ أهلِ الإسلام.

---

(١) الوجيز في أصول الفقه: ص(١١٦ـ ١١٨).

والجانبُ الثاني من الإيمان الظاهر: هو ظهورُ أَثَرِ الاعتقادِ القلبيِّ على جوارحِه وأَعمالِهِ ولا بُدَّ، ولو في الحدِّ الأَدنى، وهذه الأعمالُ هي دليلُ الانقيادِ والخُضوعِ والتسليم، فلو أَنَّه أَظهَرَ قَبولَه بالإسلام، وامتَنَعَ مع ذلك عن الانقيادِ الظاهِرِ، فهو مُتَولٍّ عن الطاعَة، وامتناعُ الظاهرِ دليلٌ على امتناعِ القلب، لأنَّ الباطِنَ والظاهرَ متلازمان لا ينفكَّان، قال رسولُ الله ﷺ: (**ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلَحَت صلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدت فسَد الجسَدُ كلُّه، ألا وهي القلب**)[1].

ودليلُنا على كُفرِ الممتَنِعِ عن الطاعةِ، قولُهُ تعالى:

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[النور:٤٧]، فنفى اللهُ سبحانه الإيمانَ عمَّن تولَّى عن الطاعَةِ بالجُملة.

ومذهَبُ جماهيرِ أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعة، وسائرِ سلَفِ هذه الأُمَّة، أنَّ الإيمانَ يزولُ بزوالِ واحدٍ من هذه الأمورِ الأَربعَةِ بالكُلِّية، وأنَّه يزيدُ بالطاعات، وينقُصُ بالمعاصي، وأنَّه قد ينقُصُ حتَّى لا يبقى منه شَيءٌ، وأنَّ الإنسانَ لو ترَكَ جِنسَ العمل مع زعمِه أنَّه مؤمنٌ، لا يُقبَلُ منه إيمانٌ ولا إسلامٌ، على فَرْضِ حصوله، وإلا فهو بعيدُ التصوُّر، كلُّ ذلك بخلافِ ما

(١) رواه مسلم ١٥٩٩.

ذهبَتْ إليه فرقةُ المرجئَة الضالَّة، الذين قالوا: إنَّ الإيمانَ هو التصديقُ والإقرارُ والمعرفةُ، وحصَروهُ في القلب، وبالتالي فلا يكفُرُ أَحَدٌ عندَهم إلا بالجحود القلبيِّ.

وأَهلُ السنَّةِ يعتقِدونَ أنَّ ترْكَ آحادِ العملِ، وارتكابَ الذنوب، دونَ الكُفرِ والشركِ، بشَرطِ عَدَم الاستحلال لها، لا يُزيلُ عن المؤمِنِ اسمَ الإيمان بخلافِ الخَوارج، الذين كفَّروا مرتكِبَ الكبيرة، وحكموا عليه بالخلود الأَبَديِّ في النار.

قال الإمامُ ابنُ قيِّم الجَوزيَّةِ:

[الإيمانُ له ظاهرٌ وباطن، وظاهرُه قولُ اللسانِ وعمَلُ الجوارح، وباطنُه تصديقُ القلب وانقيادُه ومحبَّتُه. فلا ينفعُ ظاهرٌ لا باطنَ له، وإن حُقِنَ به الدماءُ وعُصِمَ به المالُ والذُّرِّيةُ، ولا يجزئُ باطنٌ لا ظاهرَ له إلاّ إذا تعَذَّرَ بعجزٍ أو إكراهٍ وخوفِ هلاك، فتخلُّفُ العمَلِ ظاهراً مع عدَمِ المانعِ دليلٌ على فسادِ الباطنِ وخلوِّهِ من الإيمان، ونقصُهُ دليلُ نقصِه، وقوتُهُ دليلُ قوَّتِه][1].

وقال أيضاً:

[إنَّ الإيمانَ لا يكفي فيه قولُ اللسان بمُجَرَّدِه، ولا معرفَةُ القلب مع

(١) الفوائد، ص١٣٧.

ذلك، بل لا بُدَّ فيه من عمَلِ القَلب، وهو حُبُّه لله ورسوله، وانقيادُه لدينه، والتزامُه طاعته، ومتابعته رسوله، وهذا خلاف من زعم أنَّ الإيمان هو مجـرَّد معرفة القلب وإقراره][1].

والذي يعنينا هنا في موضوع الاستهزاء بالدين ما يلي:

إنَّ الاستهزاءَ بالدين ينافي الإيمان ويناقضُهُ أشدَّ المناقَضَةِ، لأنَّ الإنسـان لا يكون مُعَظِّماً للشيءِ ومُستَخِفًّا بِهِ في آن واحِد، فظُهورُ الاسـتخفافِ منـه يدُلُّ بصورةٍ قاطِعَةٍ على أنَّهُ غيرُ مُعَظِّمٍ لِرَبِّـهِ، ولا لكتابـهِ، ولا لرُسُـلِه، ولا لجميع شعائِر دينِهِ، وهذِه الأمورُ متلازِمَةٌ ومُتَرابِطَةٌ مع بعضِها البعض، كمـا قالَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَةَ ω:

[فإنَّ الاستهزاءَ بهذه الأُمورِ متلازمٌ، فإنَّ مَن اسـتهزَأَ بآيـاتِ الله تعـالى التي جاءَ بها الرسولُ ﷺ فهو مستهزئٌ بالرسول ﷺ ضرورةً، ومـن اسـتهزأَ بالرسـول ﷺ، فهـو مسـتهزئٌ برسـالته حقيقـةً، ومـن اسـتهزأَ بآيـاتِ الله ورسولِه فهو مستهزئٌ به، ومن استهزأَ بالله، فهو مستهزئٌ بآياتـه ورسـوله بطريقِ الأولى][2].

وقد تقدَّم أنَّ أعمالَ القلبِ هيَ من الإيمانِ الواجِبِ، فلا يَصِحُّ الإيمـانُ إلا بها، ومنها التعظـيمُ والإجـلال، وبزوالهـا يـزولُ الإيمـان، وبـذا يكـون

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/٣٣٠).

(٢) تلخيص الاستغاثة ص (٣٤٦).

المستهزئُ كافراً، لأَنَّه لا عمَلَ قلبيًّا لديه.

والله تعالى يقول:﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾[الأحزاب:٤] أي لو كان له قلبان، لربَّما كان لكلِّ قلب عملُه الذي يناقِضُ به عملَ القلب الآخر، فيحبُّ بالأول ويبغض بالثاني، ويعظِّم بالأول ويستخفُّ بالثاني !!

أمَّا إذا كان له قلبٌ واحدٌ، وهذا هو واقعُ الحال، فإنَّه يمتَنِعُ اجتماعُ المتناقضاتِ فيه في آنٍ واحد.

ومن ذلك قولُه عليه الصلاة والسلام:

(لا يجتمعُ الإيمانُ والكفرُ في قلبِ امرئ، ولا يجتمعُ الكذبُ والصدقُ جميعاً، ولا تجتمعُ الخيانةُ والأَمانةُ جميعاً)[(١)].

قال الإمامُ ابنُ حَزمٍ ω:

[إنَّ الإيمانَ بالكُتُب المُنَزَّلَة يتضمَّنُ وجوبَ تَعظيمِها وإجلالِها وإكرامِها، وإنَّ الاستهزاءَ بها لا يجتمعُ مع هذا التعظيمِ والإجلال، فهو مناقضٌ لعَمَلِ القلبِ، كما أنَّه يُناقِضُ الإيمانَ الظاهِرَ باللسان][(٢)].

من هنا نعلمُ أنَّ ما ظهرَ على العبدِ من الاستهزاءِ والاستخفاف وإن

---

(١) السلسلة الصحيحة: برقم (١٠٥٠)، وقال الألباني: إسناده صحيح رجاله ثقات.

(٢) المحلى لابن حزم (١٣/ ٥٠٠).

كان يسيراً، دلَّ على انتفاءِ التعظيم من قلبه، فلا يكونُ العبدُ معظِّماً للشيءِ ومُستهزئاً به في آن واحد، وإذا انتفى تعظيمُ الله من القلب انتفى الإيمانُ بالكُلِّية لأَنَّه شَرطٌ له، وبهذا يكونُ المستهزئُ كافراً، ولو كان المرءُ معظماً لله تعالى، مؤمناً به حقاً لمنَعَه إيمانُه وتعظيمُه من أن يستهزئَ بآياته ورسوله ودينه.

قال الإمامُ سفيانُ بنُ عُيَينَة ﵀:

[الإيمانُ قولٌ وعملٌ يزيدُ وينقُصُ، فقالَ له أخوهُ إبراهيمُ بن عيينة: يا أبا محمَّد، تقولُ ينقُص؟! فقال: اسكُتْ يا صَبِيُّ، بل ينقُصُ حتَّى لا يَبقى منه شيءٌ][1].

ويقولُ الإمامُ ابنُ تيميَةَ﵀:

[فمَن اعتقَدَ الوَحدانيَّةَ في الأُلوهيَّةِ للهِ سُبحانَهُ وتعالى، والرسالةَ لعَبدِهِ ورسولِهِ، ثمَّ لم يُتبِعْ هذا الاعتقادَ موجِبَهُ من الإجلال والإكرام ـ الذي هو حالٌ في القلب يظهرُ أثرُهُ على الجوارح، بل قارَنَهُ الاستخفافُ والتسفيهُ والازدراءُ بالقول أو بالفعل ـ كان وجودُ ذلك الاعتقاد كعَدَمِه وكان ذلك موجِباً لفَسادِ ذلك الاعتقادِ ومُزيلاً لما فيه من المنفَعَةِ والصلاح، إذ الاعتقاداتُ الإيمانيةُ تزكِّي النفوسَ وتُصلِحُها، فمتى لم توجِب زكاةَ النَّفس ولا صلاحَها فما ذاكَ إلا لأَنَّها لم ترسَخ في القلب ولم تَصِرْ صفَةً ونَعْتاً

(١) الشريعة للآجرّي (٦٠٧/٢).

للنفس ولا صَلاحاً][1].

وقال:

[ولو أنَّهم هُدوا لِما هُديَ إليه السلفُ الصالح لعلِموا أنَّ الإيمانَ قولٌ وعمَلٌ، أَعني في الأَصلِ قولاً في القلبِ وعَمَلاً في القلب، فإنَّ الإيمانَ بَحَسبِ كلامِ اللهِ ورسالته، وكلامُ اللهِ ورسالتُه يتَضَمَّنُ أخبارَهُ وأوامرَه، فيصدِّقُ القلبُ أخبارَه تصديقاً يوجِبُ حالاً في القلبِ بحسبِ المصدَّقِ به، والتصديقُ هو من نوعِ العلم والقول، وينقادُ لأَمرِهِ ويستسلم، وهذا الانقيادُ والاستسلامُ هو نوعٌ من الإرادةِ والعَمَل، ولا يكونُ مؤمِناً إلا بمجموعِ الأَمرين، فمتى ترَكَ الانقيادَ كانَ مُستكبراً، فصارَ من الكافرين، وإذا كانَ مُصدِّقاً فالكفرُ أَعَمُّ من التكذيب، يكون تكذيباً وجهلاً، ويكون استكباراً وظلماً، ولهذا لم يوصَفْ إبليسُ إلا بالكفرِ والاستكبارِ دونَ التكذيب !

ولهذا كان كفرُ مَن يعلمُ مِثلُ اليهودِ ونحوهِم من جِنسِ كُفرِ إبليسَ، وكانَ كفرُ مَن يجهلُ مثلُ النصارى ونحوهِم ضَلالاً وهو الجَهل.

---

(١) الصارم المسلول، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠، بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

ألا ترى أنَّ نفراً من اليهود جاؤوا إلى النبيِّ ﷺ وسألوه عن أشياءَ فأخبَرَهم فقالوا: نشهدُ أنَّك نبيٌّ، ولم يتَّبِعوه، وكذلك هِرَقْلُ وغيرُه، فلم ينفعْهُم هذا العلمُ وهذا التصديقُ ؟

ألا ترى أنَّ مَن صدَّقَ الرسولَ بأنَّ ما جاءَ به هوَ رسالةُ الله وقد تضمَّنت خبراً وأمراً فإنَّهُ يحتاجُ إلى مَقامٍ ثانٍ وهو تصديقُه خبرَ الله، وانقيادٌ لأَمرِ الله؟ فإذا قال :"أشهَدُ أن لا إله إلا الله" فهذه الشهادةُ تتضمَّنُ تصديقَ خبَرِه والانقيادَ لأَمره، فإذا قالَ: "وأشهَدُ أنَّ محمَّداً رسولُ الله" تضمَّنت تصديقَ الرسولِ فيما جاءَ به من عندِ الله، فبمجموعِ هاتين الشهادتين يتمُّ الإقرارُ.

فلمَّا كان التصديقُ لا بُدَّ منه في كلا الشهادتين، وهو الذي يتلقَّى الرسالةَ بالقَبول، ظنَّ مَن ظنَّ أنَّه أصلٌ لجميع الإيمان وغفَلَ عن أنَّ الأصلَ الآخَرَ لا بُدَّ منه وهو الانقيادُ، وإلا فقد يُصَدِّقُ الرسولَ ظاهِراً وباطِناً ثُمَّ يمتنِعُ من الانقيادِ للأمرِ، إذ غايتُهُ في تصديق الرسولِ أن يكونَ بمنزلةِ مَن سمِعَ الرسالةَ من الله سبحانه وتعالى كإبليس !

وهذا ممَّا يبيِّنُ لك أنَّ الاستهزاءَ بالله وبرسوله ينافي الانقيادَ له، لأنَّه قد بلغَ عن الله أنَّه أمَرَ بطاعته فصارَ الانقيادُ له من تصديقه في خبره، فمن لم ينقَدْ لأَمرِهِ فهو إمَّا مُكَذِّبٌ لهُ أو ممتنعٌ عن الانقياد لربِّه، وكلاهُما كفرٌ

صريحٌ، ومَن استخفَّ به واستهزأَ بقلبه امتَنَعَ أن يكونَ مُنقـاداً لأَمـرِهِ، فـإنَّ الانقيادَ إجلالٌ وإكرامٌ، والاستخفافَ إهانةٌ وإذلالٌ، وهـذان ضِـدَّان، فمتـى حصلَ في القلبِ أحدُهما انتفى الآخرُ، فعُلِم أنَّ الاستخفافَ والاستهانةَ به ينافي الإيمانَ منافاةَ الضِدِّ للضِدِّ] [1].

[الوجهُ الثالث: أنَّ العبدَ إذا فعَلَ الذنبَ مع اعتقادِ أنَّ الله حرَّمه عليه، واعتقادِ انقيادِهِ للهِ فيما حرَّمَهُ وأوجَبَه فهذا ليس بكافِر، فأمَّا إن اعتقَدَ أنَّ اللهَ لم يُحَرِّمْه، أو أنَّهُ حَرَّمَه لكن امتنَعَ من قَبول هذا التحريم، وأَبـى أن يُـذعِنَ لله وينقاد، فهو إمَّا جاحِدٌ أو مُعانِدٌ، ولهذا قالوا: من عصى مُستكبراً كإبليسَ كفَرَ بالاتفاق، ومن عصى مُشتَهياً لم يكفُر عندَ أَهلِ السُّنَّةِ والجَماعة، وإنَّمـا يكفِّرُه الخوارجُ، فإنَّ العاصيَ المستكبرَ وإن كـان مُصـدِّقاً بـأنَّ اللهَ ربُّـه، فـإنَّ معانَدَتَه له ومحادَّتَه تُنافي هذا التصديقَ.

وبيانُ هذا أنَّ من فعلَ المحارِمَ مُستحِّلاً لها فهو كافرٌ بالاتفـاق، فإنَّـه مـا آمَنَ بالقُرآن مَن استَحَلَّ محارِمَه، وكذلك لو استحلَّها بغير فعلٍ!

والاستحلالُ اعتقادُ أنَّ اللهَ لم يُحَرِّمها، وتارةً بعَدَم اعتقادِ أنَّ اللهَ حَرَّمها، وهذا يكونُ لخللٍ في الإيمان بالربوبية أو لخللٍ في الإيمان بالرسـالة، ويكـونُ جَحْداً مَحْضاً غيرَ مبنيٍّ على مقدِمَةٍ وتـارةً يعلـمُ أنَّ اللهَ حرَّمَهـا، ويعلـمُ أنَّ

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول ص (٦/٩).

الرسولَ إنَّما حرَّم ما حرَّمَهُ اللهُ، ثمَّ يمتنعُ عن التـزام هـذا التحـريم ويُعانِـدُ المحرِّمَ، فهذا أشدُّ كُفراً ممَّن قَبله !!

وقد يكونُ هـذا مـع علمِـهِ أنَّ مَـن لم يلتـزِمْ هـذا التحـريمَ عاقَبَـهُ اللهُ وعذَّبَه][1]

وقال ﷺ:

[ومعلومٌ أنَّه لم يُرِد بالكُفرِ هنا اعتقادَ القلبِ فقط، لأنَّ ذلـكَ لا يُكـرَهُ الرجُلُ عليه، وهو قد استثنى من أُكـرِهَ ولم يُـرِد مَـن قـالَ "واعتقَـد"، لأنَّـه استثنى المُكرَهَ، وهو لا يُكرَهُ على العقد والقول، وإنَّما يكـرَهُ علـى القـولِ فقط، فعُلِمَ أنَّهُ أرادَ مَن تكلَّمَ بكلمـةِ الكفـرِ فعليـهِ غضَـبٌ مـن الله ولـه عذابٌ عظيمٌ، وأنَّهُ كافرٌ بذلك إلا مَن أُكرِهَ وهو مُطمـئِنٌّ بالإيمـان، ولكـن مَن شَرَحَ بالكفرِ صدراً من المكرَهين فإنَّه كافرٌ أيضاً، فصارَ كلُّ مَـن تكلَّـمَ بالكفرِ كافراً إلا مَنْ أُكرِهَ فقالَ بلسانه كلمةَ الكفرِ وقلبُه مُطمئِنٌّ بالإيمان.

وقـال تعـالى في حـقِّ المسـتهزئين: ﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾ [التوبة:٦٦] فبيَّن أنَّهم كفَّارٌ بالقول مع أنَّهم لم يعتقدوا صحَّتَه، وهـذا بـابٌ واسعٌ، والفقهُ فيه ما تقـدَّمَ مِـن أنَّ التصـديقَ بالقلـب يمنَـعُ إرادةَ الـتكلُّمِ

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول (٦/ ١٠).

وإرادةَ فِعْلٍ فيه استهانةٌ واستخفافٌ، كما أنه يوجِبُ المَحبَّةَ والتعظيمَ، واقتضاؤه وجودَ هذا وعدمَ هذا أمرٌ جرَتْ به سنَّةُ الله في مخلوقاته، كاقتضاءِ إدراكِ الموافِقِ للَّذَّةِ، وإدراكِ المخالفِ لِلألَمِ، فإذا عُدِمَ المَعلولُ كانَ مُستلزماً لِعَدمِ العِلَّةِ، وإذا وجِدَ الضِدُّ كانَ مُستَلزِماً لِعَدمِ الضِّدِ الآخرِ، فالكلامُ والفعلُ المتضمِّنُ للاستخفافِ والاستهانةِ مستلزمٌ لعدَمِ التصديقِ النافعِ ولعدمِ الانقيادِ والاستسلامِ، فلذلك كانَ كفراً][1].

وقال أيضاً:

[فقد أَخبَرَ أَنَّهم كفَروا بعدَ إيمانِهم مع قولهم: إنَّا تكلَّمنا بالكُفر من غير اعتقادٍ له، بل كُنَّا نخوضُ وَنلعبُ، وبيَّن أَنَّ الاستهزاءَ بآياتِ اللَّهِ كفرٌ، ولا يكونُ هذا إلا ممَّن شرَحَ صَدرَهُ بهذا الكلام، ولو كانَ الإيمانُ في قلبه لَمَنَعَهُ أن يتكلَّمَ بهذا الكلام][2].

قال الإمامُ السعديُّ ۞:

[فإنَّ الاستهزاءَ باللهِ وآياته ورسولِه كُفرٌ مخرجٌ عن الدين، لأنَّ أصلَ الدين مبنيٌّ على تعظيمِ اللهِ وتعظيمِ دينِهِ ورُسُلِهِ، والاستهزاءُ بشيءٍ من ذلك مُنافٍ لهذا الأصلِ ومناقِضٌ لهُ أَشَدَّ المناقَضَة.

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول: ص٥٢٤.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٠).

قال: وقولُهُ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ ﴾لتوبَتِهم واستغفارِهِم ونَدَمِهم ﴿نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ﴾ منكم ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ بسَبَبِ أَنَّهم ﴿كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ مقيمينَ على كُفرِهم ونِفاقهم ، وفي هذه الآياتِ دليلٌ على أنَّ مَن أسرَّ سَريرَةً ، خُصوصاً السريرةَ التي يمكرُ فيها بدينه ، ويستهزئُ به وبآياته ورسوله ، فإنَّ الله تعالى يُظهِرُها ويَفضَحُ صاحِبَها ويعاقبُه أشدَّ العقوبَة ، وأنَّ مَن استهزأَ بشيءٍ مِن كتابِ اللهِ أو سنَّةِ رسولِه الثابتَةِ عنه ، أو سَخِرَ بذلك ، أو تَنَقَّصَه ، أو استهزأَ بالرسولِ ، أو تنقَّصَه ، فإنَّه كافرٌ بالله العظيم وأنَّ التوبةَ مقبولةٌ من كلِّ ذنبٍ وإن كانَ عظيماً][1].

(١) تفسير الكريم الرحمن: ص٣٤٢.

قضية التلازم بين الباطن والظاهر

قال الإمامُ ابنُ القيِّم ۞:

[والقلبُ عليه واجبان لا يصيرُ مؤمناً إلا بهما جميعاً ؛ واجبُ المعرفةِ والعلمِ، وواجبُ الحُبِّ والانقيادِ والاستسلام، فكما لا يكونُ مؤمناً إذا لم يأتِ بواجبِ العلم والاعتقاد، لا يكونُ مؤمناً إذا لم يأتِ بواجبِ الحُبِّ والانقياد][1].

لعلَّ قائلاً يقول: كيف نحكمُ بالكفر على من نطقَ الشهادتين صادقاً غيرَ منافق، وقد رضيَ بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ ﷺ نبياً ورسولاً، وهو مصدِّق بالغَيبيَّاتِ لا يُنكِرُ منها شيئًا، ومع ذلك فهوَ من أَهلِ العِباداتِ الظاهِرَةِ ...إلخ ؟!

وقد يُشكِلُ على بعضِهم انطباقُ هذا الحُكم على مَن حَسُنَ حالُه الظاهرُ، كأَن يكونَ ذا صلاةٍ وصيامٍ وجهادٍ، ثمَّ يكفرُ بكلمةٍ عابرةٍ ليس يقصُد منها سوى إضحاكِ إخوانِه وتلطيفِ الجوِّ لهم، وإدخالِ السُّرور إلى قلوبهم !

وجَوابُ هذا الإشكال أن نعلَمَ أولاً أنَّ الذين نزَلَتْ فيهم آيةُ التوبةِ كانوا في طريق عودتهم من غزوةِ تبوك حينما قالوا ما قالوا، وقد خرجوا

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٩٥).

للجهاد بأَنفُسِهم معَ رسول الله ﷺ، ولا شكَّ أنَّهم كانوا من أهل العبادات الظاهرةِ الأُخرى كالصلاةِ وغيرها، فلم يقُل أحدٌ من أهل العلم قاطبـةً : إنَّ الأعمالَ الظاهرةَ من موانِع تكفيرِ المُعَيَّن، إلا أنَّنا نعتبرُها علاماتٍ وأماراتٍ على صلاح العبد توجِبُ علينا حُسنَ الظنِّ به، وحَملَ أقوالِه وأفعالِه على أَحسَنِ مَحمَل، إن كانت تحتَمِلُها وإلا فلا.

وقد ذكـرتُ فيمـا تقَـدَّمَ مفهـومَ الإيمـانِ وحقيقتَـه عنـد أَهـلِ السُـنَّة والجماعة، وأنَّه قولٌ(ظاهرٌ وباطنٌ)، وعملٌ(ظاهرٌ وباطنٌ) وأنَّ هناك تلازمـاً بين الظاهر والباطن، فلا ينفكَّان عن بعضِهما البعض.

قال الإمامُ ابنُ تيميَةَ ؒ:

[إنَّ الإيمانَ أصلُهُ الإيمانُ الـذي في القَلـبِ، ولا بُـدَّ فيـه مـن شَـيئينِ؛ تَصديقٍ بالقَلبِ وإقرارِه ومَعرفتِهِ، ويُقالُ لهذا: (قَولُ القلبِ).

قال الجُنَيدُ بنُ محمَّدٍ: "التوحيدُ: قولُ القلبِ، والتَّوَكُّلُ: عَمَلُ القلبِ"

فلا بُدَّ فيه من قولِ القَلبِ وعمَلِهِ، ثُمَّ قَولُ البَدَنِ وعَمَلِهِ، ولا بُـدَّ فيـه من عَمَلِ القلبِ مِثـلَ حُـبِّ اللهِ وَرَسُـولِهِ وَخَشـيَةِ اللهِ وحُـبِّ مـا يُحِبُّـهُ اللهُ ورَسُولُهُ، وبُغـضِ مـا يُبغِضُـهُ اللهُ ورسُـولُهُ، وإخـلاصِ العَمَـلِ للهِ وحـدَهُ، وتوَكُّلِ القلبِ على اللهِ وحدَهُ، وغيرِ ذلك من أَعمالِ القُلُوبِ الـتي أَوجَبَهـا اللهُ ورسُولُهُ وجعَلها مِن الإيمان.

ثُمَّ القَلبُ هو الأَصلُ، فإذا كانَ فيهِ مَعرِفَةٌ وإِرادَةٌ سَرى ذلك إلى البَـدَنِ

بِالضَّرُورَةِ، لا يُمكِنُ أَن يَتخلّفَ البَدَنُ عَمَّا يُرِيدُهُ القَلبُ، ولهذا قالَ النبيُّ ﷺ في الحَديثِ الصَّحِيحِ: (**ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ لها سائِرُ الجَسَدِ وإِذا فسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الجَسَدِ ألا وهي القَلبُ**)[1].

وقالَ أبُو هُرَيرَةَ E:

"القلبُ مَلِكٌ والأعضاءُ جنودُهُ فإذا طابَ المَلِكُ طابَت جنودُهُ وإذا خَبُثَ الملِكُ خَبُثَت جنودُه" وقولُ أبي هُرَيرةَ تقريبٌ، وقولُ النَّبِيِّ ﷺ أحسَنُ بياناً فإنَّ الملِكَ وإن كان صالِحاً فالجُندُ لهُم اختيارٌ قد يَعصُونَ به مَلِكَهُم وبالعَكسِ فيكونُ فيهم صلاحٌ معَ فَسادِهِ أو فسادٌ معَ صلاحِهِ، بخِلافِ القلبِ فإنَّ الجسَدَ تابعٌ له لا يَخرُجُ عن إرادتِهِ قَطُّ كما قالَ النَّبيُّ ﷺ:

(**إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ**).

فإذا كانَ القلبُ صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً لَزِمَ ضَرُورَةً صلاحَ الجَسَدِ بِالقَول الظاهرِ والعمَلِ بالإيمان المُطلَق، كما قال أئِمَّةُ أهلِ الحديث: قَولٌ وعَمَلٌ، قولٌ ؛ باطِنٌ وظاهِرٌ، وعمَلٌ ؛ باطنٌ وظاهِرٌ، والظاهرُ تابِعٌ لِلباطنِ لازِمٌ لَهُ متى صَلحَ الباطِنُ صَلَحَ الظاهِرُ وإذا فسَدَ فَسَدَ][2].

---

(١) رواه البخاري ٥٢ ، ومسلم ١٥٩٩.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٨٧-١٨٦).

وقال في ردِّه على المرجئة:

[فهؤلاءِ غَلطُوا في أصلين، أحدُهُما: ظَنُّهُم أنَّ الإيمانَ مُجَرَّدُ تَصديقٍ وعلمٍ فقط ليس معَهُ عمَلٌ وحالٌ وحرَكَةٌ وإرادَةٌ ومحبَّةٌ وخَشيَةٌ في القلب، وهذا من أَعظَمِ غَلَطِ المُرجِئَةِ مُطلَقاً......][1].

[والثاني: ظَنُّهُم أنَّ كُلَّ من حَكَمَ الشارعُ بأنَّهُ كافِرٌ مُخَلَّدٌ في النار فإنَّما ذاكَ لأَنَّهُ لم يَكُن في قلبِهِ شَيءٌ من العلم والتصديق، وهذا أمرٌ خالَفوا به الحِسَّ والعَقلَ والشرعَ وما أَجمَعَ عليه طوائِفُ بَني آدَمَ سَليمي الفِطرَةِ وجماهيرُ النظار؛ فإنَّ الإنسانَ قد يعرِفُ أنَّ الحَقَّ مع غيره ومع هذا يجحَدُ ذلكَ لحسَدِهِ إيَّاهُ أَو لِطَلَبِ عُلُوِّهِ عليهِ أو لهوى النفسِ، ويحملُهُ ذلك الهوى على أَن يعتديَ عليه ويَرُدَّ ما يقولُ بكُلِّ طريقٍ وهو في قَلبِهِ يعلَمُ أَنَّ الحَقَّ معهُ، وعامَّةُ من كذَّبَ الرُّسُلَ علِموا أَنَّ الحَقَّ معهم وأَنَّهُم صادقونَ لكن إمَّا لِحَسَدِهِم وإمَّا لإرادَتِهِم العُلوَّ والرِّياسَةَ، وإمَّا لِحُبِّهِم دينَهُم الذي كانُوا عليهِ وما يحصُلُ لهُم بهِ من الأَغراض كأَموالٍ ورياسَةٍ وصداقةِ أَقوامٍ وغير ذلك، فيرَونَ في اتِّباعِ الرُّسُلِ تَركَ الأَهواءِ المحبوبَةِ إليهم أو حُصولَ أُمُورٍ مَكروهَةٍ إليهِم فَيُكذِّبونَهُم ويُعادُونَهُم فيكونونَ من أَكفَرِ النَّاسِ كإبليس وفِرعونَ معَ علمهِم بِأَنَّهُم على الباطِلِ والرُّسُلَ على الحَقِّ][2].

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٩٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٩١).

وقال ۞ أيضاً:

[فَإِنَّا نَعلمُ أَنَّ من سَبَّ اللهَ ورسولَهُ طَوْعًا بِغيرِ كُرْهٍ، بل من تكلَّمَ بكلماتِ الكُفرِ طائِعاً غَيْرَ مُكرَهٍ، ومن استَهزَأَ باللهِ وآياتِهِ ورسوله فهو كافرٌ باطِناً وظاهِراً، وأَنَّ من قال: إنَّ مثلَ هذا قد يكونُ فِي الباطِنِ مُؤمِناً باللَّهِ وإنَّما هو كافِرٌ فِي الظاهرِ، فإنَّهُ قال قولاً مَعلومَ الفساد بالضَّرورَةِ من الدِّينِ][1].

وقال ۞ أيضاً:

[فمَن قال بلسانه كلِمَةَ الكفرِ من غَيرِ حاجةٍ، عامِداً لها، عالِماً بأنَّها كلِمَةُ كفر، فإنَّه يكفُرُ بذلك ظاهراً وباطناً، ولا يجوزُ أن يُقالَ: إنَّه في الباطن يجوزُ أن يكونَ مؤمِناً! ومَن قال ذلك فقد مَرَقَ من الإسلام][2].

وقال ۞:

[وإذا تبيَّنَ أنَّ مذهبَ سلفِ الأمَّةِ ومن اتَّبَعَهم من الخَلَفِ أنَّ هذه المقالة في نفسها كفرٌ، استحلَّها صاحبُها أو لم يستحلها، فالدليل على ذلك جميعُ ما قدَّمناه في المسألة الأولى من الدليل على كفر السابِّ، مثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ وما ذكرناه من

(١) مجموع الفتاوى (٧/٥٥٨- ٥٥٧).

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص ٥٢٣-٥٢٥).

الأحاديث والآثار فإنَّها أدلةٌ بيِّنَةٌ في أنَّ نفسَ أذى الله ورسوله كفرٌ، مع قَطعِ النظَر عن اعتقاد التحريم وجوداً وعدماً، فلا حاجةَ إلى أن نُعيدَ الكلامَ هنا، بل في الحقيقة كلُّ ما دلَّ على أنَّ السابَّ كافِرٌ وأنَّه حَلالُ الدَّم لكُفرِهِ، فقد دَلَّ على هذه المسألة، إذ لو كانَ الكفرُ المُبيحُ هو اعتقادَ أنَّ السبَّ حلالٌ، لم يجُزْ تكفيرُه وقتله حتَّى يظهر هذا الاعتقاد ظهوراً تثبت بمثله الاعتقادات المُبيحة للدماء][1].

وقال ابنُ تيمية ؒ أيضاً:

[فقد أمرَه أن يقول لهم: ﴿قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾، وقولُ مَن يقولُ عن مثلِ هذه الآيات: إنَّهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم لا يَصِحُّ، لأنَّ الإيمانَ باللسان مع كفرِ القلبِ قد قارَنَه الكفرُ فلا يقالُ: قد كفرتم بعدَ إيمانِكم، فإنَّهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر!!

وإن أُريدَ أنكم أظهَرتُم الكفرَ بعد إظهاركم الإيمانَ، فهم لم يُظهروا للناس إلا لخواصِّهم، وهم مع خواصِّهم ما زالوا هكذا، بل لما نافقوا وحذِروا أن تنزلَ سورةٌ تبيِّنُ ما في قلوبهم من النفاق وتكلَّموا بالاستهزاءِ صاروا كافرينَ بعد إيمانهم، ولا يدلُّ اللفظُ على أنَّهم ما زالوا منافقين][2].

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص ٥١٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٧ / ٢٧٢).

وقال رحمه الله تعالى في موضع آخر:

[فقد أخبرَ أَنَّهم كفروا بعدَ إيمانهم مع قولهم إنَّا تكلَّمنا بالكُفرِ من غير اعتقادٍ له، بل كنَّا نخوضُ ونلعَبُ، وبيَّنَ أنَّ الاستهزاءَ بآيات الله كفرٌ، ولا يكونُ هذا إلا ممَّن شرحَ صدره بهذا الكلام، ولو كان الإيمانُ في قلبه لمنعه أن يتكلَّمَ بهذا الكلام، والقُرآن يبيِّنُ أنَّ إيمانَ القلبِ يستلزمُ العملَ الظاهرَ بحسبِه، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١] فنفى الإيمانَ عمَّن تولَّى عن طاعةِ الرسول، وأخبرَ أنَّ المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكُمَ بينَهم سمعوا وأطاعوا، فبيَّنَ أنَّ هذا من لوازم الإيمان][1].

وقال رحمه الله:

[فَدَلَّ على أنَّهُ كانَ عِندَهُم إيمانٌ ضَعيفٌ ففَعَلُوا هذا المُحَرَّمَ الَّذي عرَفُوا أنَّهُ مُحَرَّمٌ ولكن لم يظُنُّوهُ كُفرًا وكانَ كُفرًا كفَرُوا به، فإنَّهُم لم يعتقدوا جوَازَهُ، وهكذا قالَ غيرُ واحدٍ من السلَف][2].

(١) مجموع الفتاوى (٧/٢٢٠-٢٢١).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/٢٧٣).

وقال العلامة محمد رشيد رضاﷺفي تفسير الآية :

[نبَّأَ اللهُ رسولَه نَبَأً مؤكَّداً بصيغةِ القَسَم، أنَّه إن سألَهم عن أقوالِهم هذه يعتذرون عنها بأنَّهم لم يكونوا فيها جادِّينَ ولا مُنكِرين، بل هازلين لاعبين، كما هو شأنُ الذين يخوضون في الأحاديث المختلفة للتسلِّي والتلَهِّي، وكانوا يظنُّون أنَّ هذا عذرٌ مقبولٌ، لجهلهم أنَّ اتخاذَ أُمورِ الدينِ لَعِباً ولهواً لا يكونُ إلا ممَّن اتَّخَذَها هزواً، وهو كفرٌ محضٌ، ويغفل عن هذا كثيرٌ من الناس، يخوضون في القُرآن والوَعدِ والوعيدِ، كما يفعلون إذ يخوضون في أباطيلهم وأمور دنياهم].

ثم قال بعدها :

[وقد بيَّنا في تفسير هذه الآية أنَّ الخطابَ فيها لكلِّ من يُظهِرُ الإسلامَ من مؤمنٍ ومنافق، وأنَّه يدخُلُ في عمومها المبتَدِعونَ المُحدِثون في الدين، والذين يخوضون في الداعين إلى الكتاب والسنَّة، ويستهزئون بهم لاعتصامهم بهما]

وقال بعدها :

[وبعد أن نبَّأ اللهُ تعالى رسوله بما يعتذرون به لقَّنَه ما يرُدُّ به عليهم بقوله: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

والمعنى: أنَّ الخوضَ واللَّعِب إذا كان موضوعُه صفاتِ الله وأفعاله

وشرعه وآياته المنزلة، وأفعال رسوله وأخلاقه وسيرته، كان ذلك استهزاءً بها، لأنَّ الاستهزاء بالشيء عبارةٌ عن الاستخفاف به، وكلُّ ما يُلعبُ به فهو مستخَفٌّ به .. . .. كما أنّ من يحترم شيئاً أو شخصاً أو يعظِّمُه فإنَّه لا يجعلُه موضوعَ الخوض واللَّعِب !

وتقديمُ معمولِ فعلِ الاستهزاءِ عليه يفيدُ القصْرَ، والاستفهامُ عنه للإنكارِ التوبيخيِّ.

والمعنى : ألم تجدوا ما تستهزئون به في خوضكم ولعبكم إلا اللهَ وآياتِه ورسولَه فقصرتم ذلك عليهما ؟!

فهل ضاقَتْ عليكم مذاهبُ الكلامِ تخوضونَ فيها وتعبثون دونَهما، ثمَّ تظنُّون أنَّ هذا عذرٌ مقبولٌ فتُدلون به بلا خوفٍ ولا حياءٍ].

ثمَّ قالَ (1) تعالى بعدها :

[والآيةُ نَصٌّ صريحٌ في أنَّ الخَوضَ في كتاب الله، وفي رسوله، وفي صفات الله تعالى، ووعده ووعيده، وجعلَها موضوعاً للَّعِبِ والهُزْءِ، كلُّ ذلك من الكفرِ الحقيقيِّ الذي يَخرُجُ به المسلمُ من الملَّةِ، وتجري عليه به أحكامُ الرِّدَّةِ، إلا أن يتوبَ ويُجَدِّدَ إسلامه][1].

---

(١) تفسير المنار بتصرف عند تفسير آية التوبة (ولئن سألتهم......).

شروط الحكم عليه بالكفر

من خلال استقراءِ أقوال العلماء في هذا الموضوع وجدتُ أنَّهم أشاروا إلى قيودٍ معيَّنَةٍ لا بدَّ من توفُّرها لكي نستطيعَ أن نحكـمَ بـالكفر علـى مـن صدَرَ منه ما يبدو أنَّه استهزاءٌ، ولعلَّنا نستطيعُ أن نعتبرَ هذه القيودَ شـروطاً يجبُ مراعاتُها ولا يجوزُ تجاوزُها عند الحُكم.

أولاً: أن يكونَ اللفظُ صريحاً بالاستِخفاف.

قال الإمامُ النوويُّω:

[والأفعالُ الموجِبَةُ للكفرِ هي التي تصدُرُ عن عَمْدٍ واستهزاءٍ بالدين صريح][1].

فيخرُجُ بهذا ما كان عن غيرِ عمـدٍ وهـو الخطـأُ، قـال رسـول الله ﷺ: (**وُضِعَ عن أمَّتي الخَطَأُ والنسيانُ وما استُكرِهوا عليه**)[2]، ومنه سبْقُ اللسان.

ويخرُجُ بقولِه **"صريحٌ"** ما كان من الألفاظ يحتمِلُ في دلالتِه عدَّةَ معـاني ولا يُعرَفُ مُرادُ المُتَكَلِّمِ منها، فيحتاجُ إلى مَعرفَة المعنى الذي أرادَه.

---

(١) روضة الطالبين/ كتاب الردة (٦٤/١٠).

(٢) (صحيح ابن ماجه للألباني : ١٦٧٧)، قال عنه: صحيح ، وفي (تخريج مشكاة المصابيح : ٦٢٤٨) له ، وقال: صحيح بمجموع طرقه .

الصريحُ والمؤَوَّل:

نحنُ لا يهمُّنا إسقاطُ الأَحكام على الأَعيان الـذين تصـدُرُ مـنهم تلـك الأقوالُ كيفما اتفق، وإنما يهمُّنا في بحثنا هـذا هـو إثبـاتُ أنَّ المقـالات الـتي يظهرُ فيها الاستخفافُ بالدين على نوعين:

الأوَّل: ما هو صريحٌ وظاهِرُ الدِّلالَةِ، فلا يَقبلُ التأويلَ ولا يَحتَمِلُ أكثرَ مِن وَجـهٍ، ولا يُمكـنُ أن يقولَـه مسـلمٌ ألبتَّـةَ، وإن قالَـه مَـن انتسَـبَ إلى الإسلام، فقد كفرَ ظاهراً وباطناً، مِثلُ الذين أَنزلَ اللهُ فيهم آيةَ التوبةِ، فـإنَّ أقوالَهم صريحَةٌ في الطعنِ بالرسول ﷺ وتكذيبِ خبَره، وهذا ممَّا لا يُتصَـوَّرُ أن يقولَه مُسلمٌ، ولا يحتمِلُ التأويلَ ألبتَّـةَ، ولا يُقبَـلُ مـن قائلِـه الاعتـذارُ، لقوله تعالى لأَمثالهم :﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ ﴾، كما لا يُتصَوَّرُ أن يقولَ شَـريفٌ عـن نفسه:" زوجتي أو أمِّي زانيةٌ" على سبيل الضَحِك والمِزاح!!

إنَّه لا يُمكنُ أن يقولَ هذه المقالةَ إلا دَيوثٌ عديمُ الغَيرَةِ، بِقَطْعِ النَّظَـرِ عن القائِل.

ومثلُ ذلك أن يقـولَ قائـلٌ: "أنـا الله"!! كالعِبـاراتِ الـتي نُقِلَـتْ عـن الحَلاَّج وابن عربيٍّ وابن سبعين، وغيرِهم من الزنادقة الذين لبسـوا ثَـوبَ التصوُّف، ودلالاتُ ألفاظِهم على الاتِّحادِ والحُلولِ غيرُ قابِلةٍ للتأويل.

النوع الثاني: هو اللفظُ الذي يَحتَمِلُ أكثرَ من وجهٍ، فإذا قالـه المسـلمُ

المعروفُ بصلاحه واستقامته فإنَّنا نحمِلُـه علـى أخَـفِّ الأوجُـه، مـعَ القَـولِ بتحريم القول تحريماً ظاهراً كالفسق ونحوه، حَسْبَ درجةِ ما قال.

ومثالُه: لو قالَ قائلٌ: "الخبزُ خيرٌ من الله"!!

فهذه العبارةُ تحتَمِلُ مَعنيين: أحـدُهما كفـريٌّ، إذا أرادَ بكلمـة "خـير" التفضيل !

والثاني لا بأسَ به، إذا أراد "الخبزُ نعمةٌ من الله"!

ولا شكَّ أنَّ الحُكمَ يعتمدُ على المقالةِ من جهةٍ، وعلى القائل من جهةٍ أخرى، فإذا كانت المقالةُ صريحةً ظاهرةً كمـا في الدرجـة الأولى، لا يُنظَـرُ إلى القائل، وإن كانت غيرَ صريحةٍ يُنظَرُ إلى القائـلِ، وإلى سـياق الكـلام، وإلى قرائِن الحال، فإن كانَ ممَّن عُرِفَ بالديانةِ والصـلاح وحفـظِ اللسـان، حملنـا عبارتَه على أَحسَنِ مَحْمَلٍ، واللهُ تعالى أعلم.

في المُقابل، قد يقترنُ بـالكلام مـا يـدلُّ علـى الاسـتخفافِ، كضَـحك المتكلِّم، أو ضحك السامعين، وكذلك أن يتكرَّر الفعلُ منه، فيدلَّ على أنَّه ديدَنٌ له، وليس هفوةً عابرةً منه، وهذا ما يُعرَف بالقرائن.

القرائنُ على الاستخفاف

وهذه المسألةُ في تقديري من المسائل الهامَّة جداً في هذه الرسالة، ذلكم بأنَّ مِنَ المشروع لأيِّ أحدٍ أن يسألَ، كيفَ لكم أن تحكموا على هذا القولِ الصادرِ من المتكلِّم بأنَّ فيه استخفافاً، وقد لا يدلُّ ظاهرُه على ذلك؟

فما هو الضابطُ والمِعيارُ الذي نستطيعُ وَفْقَهُ أن نحكمَ على المُتكلِّم أنَّه مُستهزئ؟

والجواب:

إنَّ الاستهزاءَ إمَّا أن يكونَ صريحاً جليًّا، وهذا لا يُحتاجُ فيه إلى ضوابطَ ومعايير، سوى ما يتعلَّقُ بشروطِ وموانعِ تكفيرِ المُعيَّنِ، وسيأتي الحديثُ عنها لاحقاً، وإمَّا ألاَّ يكون صريحاً، ويحتمِلُ أن يكون المتكلِّمُ جادًّا في كلامِه غيرَ هازِلٍ، فيكون ضابطَ الحكمِ عليه بذلك وجودُ القرائنِ وعدمُها.

والقرائِنُ التي تدلُّ على الاستخفافِ والهَزْلِ عديدةٌ، من أهمِّها ضحِكُ المتكلِّم أثناء كلامه أو بعدَه، فلو كان جادًّا فلماذا يضحَك ؟!

وكذلك ضحِكُ السامعينَ مِن حوله، حتَّى لو لم يضحَك هو، لأنَّ من فنون أهل الفُكاهة وطرائقهم الهزْلية تمكُّنَ المتحدِّثِ من إضحاك العشراتِ من حوله دونَ أن يضحَكَ هو أو حتَّى يتبسَّم، بل قد يكونُ هذا الفعلُ منه أدعى لإضحاكِهم، والسؤالُ هنا هو ذاتُ السؤال، ما الذي أضحكَ القومَ

إذا كان الحديثُ جادًا ؟!

وهناكَ قرائِنُ عُرفيةٌ، قوليةٌ أو فعليةٌ، تختلفُ فيها الشعوبُ وأجناسُ الناس من مكانٍ إلى آخرَ، فيعرِفُ القومُ أنَّ هذا اللفظَ أو هذا الأسلوبَ أو هذه الحركةَ أو هذا التعبيرَ فيه هزْلٌ ويستدعي الضحِكَ.

إنَّ هذا القولَ باعتبار القرائِن في الحكم ليس بِدْعاً، بل ذكرَهُ العلماءُ من قديم.

جاء عن الإمامين الرافعيِّ والنوويِّ رحمهما الله:

[نعم، إن ظهرَتْ منه قرينةُ استخفافٍ فالكفرُ ظاهرٌ]

[وهذه الصورُ تتبَّعوا فيها الألفاظَ الواقعةَ في كلام الناس، وأجابوا فيها اتفاقاً واختلافاً بما ذُكر، ومذهبُنا يقتضي موافقتَهم في بعضِها، وفي بعضِها يُشترَطُ وقوعُ اللفظِ في مَعرض الاستهزاء] انتهى كلام الشيخين[1].

وقال الإمامُ ابنُ تيميَةَ ۞:

[والكلامُ على أعيانِ الكلماتِ لا ينحصِرُ، وإنَّ جِماعَ ذلك: أنَّ ما يَعرِفُ الناسُ أنَّهُ سبٌّ فهو سبٌّ، وقد يختلفُ ذلك باختلافِ الأَحوالِ والاصطلاحاتِ والعاداتِ وكيفيَّةِ الكلام ونحو ذلك، وما اشتَبَه فيه الأمرُ

---

(١) الحاوي للفتاوى ـ للسيوطي (١/ ٢٣٠).

أُلحِقَ بنظيره وشَبَهِهِ، والله أعلم][1].

وقد جاء في كتاب بدر الرشيد الحنفيِّ ω:

[مَن ضحِكَ مع الرضاءِ عمَّن تكلَّمَ بالكفرِ كَفَرَ][2].

[رويَ عن أبي يوسفَ أنَّه قيلَ بَحَضرَةِ الخَليفةِ: إنَّ النبيَّ ﷺ يُحبُّ القَرْعَ، فقال رجلٌ: أنا لا أحبُّه، فأمَرَ أبو يوسف بإحضارِ النِّطْعِ والسيفِ ....وتأويلُ هذا، أن قال بطريق الاستخفاف!!][3].

وهذا يعني أنَّ الطريقةَ التي تكلَّم بها الرجلُ، تُشعِرُ مَن شاهدَها بأنَّه مُستَخِفٌّ، من غير حاجةٍ إلى سؤاله، ماذا كنتَ تقصِدُ من كلامِك؟!

[ومَن قرأ آيةً في القُرآن على وجهِ الهَزْل.....كفر][4].

قال الشيخُ عليٌّ القاري[5] ω:

[وفي المحيط: مَن جلسَ على مكانٍ مُرتَفعٍ، ويسألونَ منه مسائلَ بطريقِ الاستهزاءِ، ثمَّ يضربونَهُ بالوسائِدِ، أي: مثلاً وهم يضحَكون، كفروا جميعاً،

---

(١) الصارم المسلول: ص٥٤٣.

(٢) الجامع في ألفاظ الكفر: ص٢٣

(٣) شرح الشفا (٤٤٩/٢).

(٤) شرح الفقه الأكبر: ص ١٣٩.

(٥) هو علي بن سلطان بن محمد الهروي القاري الحنفي، ت ١٠١٤ هـ يُنظر " الأعلام " للزركلي (٢٩١/٤).

أي لاستخفافِهم بالشرع][1].

[ومن استخفَّ بالإسلام كفَرَ وإن لم يتلفَّظ، ويكونُ بالفعل أيضاً، إذا دلَّ على الاستخفاف دِلالَةً ظاهرةً، كما إذا ألقى المصحفَ في القاذورات اختياراً، فإنَّا نحكُمُ بكفرِه وإن أنكَرَ الاستخفافَ، لأنَّ الظاهرَ مِن حالِهِ يُكذِّبُه في إنكاره][2].

ومن القرائن على الاستخفاف:

أن يتكرَّرَ منه الفعلُ المَرَّةَ بعدَ المَرَّةِ، ممّا يدلُّ على أنَّه ليس من قبيل الهفوَةِ والزلَّة العابرَةِ غير المقصودة!

قال القاضي عياضω:

[وأمَّا مَن تكلَّم مِن سَقطِ القولِ وسُخْفِ اللَّفظِ مِمَّن لم يضبطْ كلامَه وأهمَلَ لِسانَه بما يقتضي الاستخفافَ بعظمةِ ربِّه وجَلالةِ مولاه، أو تمثَّلَ في بعض الأشياءِ ببعض ما عظَّمَ اللهُ من ملكوته، أو نزَعَ من الكلام لمخلوقٍ بما لا يليقُ إلا في حقِّ خالقِه، غير قاصدٍ للكفرِ والاستخفاف، ولا عامدٍ للإلحادِ، فإن تكرَّر هذا منه، وعُرِفَ به دلَّ على تلاعُبه بدينه واستخفافه بحُرمَةِ ربِّه، وجهلِه بعظيمِ عِزَّته وكبريائه، وهذا كفرٌ لا مِريَةَ فيه][3].

---

(١) شرح الفقه الأكبر: ص١٤٥

(٢) إخلاص الناوي (١٣٣/٤).

(٣)الشفا (٢٩٩/٢).

هل يشترطُ العلمُ وقيامُ الحُجَّة على المستهزئ،أي:هل يُعذر المستهزئ بالجهل؟

إنَّ من أُسُسِ عقيدةِ أهلِ السنَّةِ والجماعة أنَّ الله تعالى لا يُعَذِّبُ قوماً إلا بعدَ إرسال الرُّسُل وإبلاغ الحجَّة، لقوله تعالى:﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] وهم يفرِّقون بين التكفير المُطلَقِ وتكفيرِ الشخص المعيَّن ، لأنَّ الكفرَ قد يصدُرُ من شخصٍ ما ، ولا يكفرُ لاعتباراتٍ معيَّنَةٍ عدُّوها مانعةً من كُفره، وهي بمثابَةِ أعذارٍ شرعيةٍ لا يؤاخَذُ بسَببها، وموانع تكفير الشخص المعيَّن عندَهُم أربَعَةُ موانِعَ، وهي:

الإكراهُ، والخطأُ (سَبْقُ اللِّسانِ) والتأويلُ، والجَهلُ.

وهذه الأمورُ لا ينطبقُ على المستَهزئ منها شيء.

أمَّا الإكراه:

فإنَّ المُكرَهَ فاقدٌ للاختيار والرضا، وسُلطانُ المُستَكرِهِ على ظاهرِ المُكرَهِ لا على قلبه !! فلا يُمكنُ للمرءِ أن يُكرِهَهُ أحدٌ على الاستخفافِ الذي هو عمَلُ القلب، ولا يُتَصَوَّرُ منه الانبساطُ والضَّحِكُ مع عَدَم الرِّضا !!

قال الإمامُ ابنُ تيميَةَ، عن قوله تعالى:﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ

إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل:١٠٦]

[ومعلومٌ أنَّه لم يُرِدْ بالكُفرِ هُنا اعتقادَ القلبِ فقط، لأنَّ ذلك لا يُكرَهُ الرجلُ عليه، وهو قد استثنى من أُكرِهَ، ولم يُرِدْ مَن قال واعتقدَ، لأنَّه استثنى المُكرَهَ، وهو لا يُكرَهُ على العقد والقول، وإنما يكرَهُ على القول فقط، فعُلِمَ أنَّه أرادَ مَنْ تكلَّمَ بكلمةِ الكفر فعليه غضبٌ منَ الله وله عذابٌ عظيمٌ، وأنه كافرٌ بذلك، إلا من أُكرِهَ وهو مطمئنٌّ بالإيمان، ولكن من شَرَحَ بالكفرِ صَدراً من المكرَهين فإنَّه كافرٌ أيضاً، فصارَ كلُّ من تكلَّمَ بالكفرِ كافراً إلا من أكره فقال بلسانه كلمةَ الكفرِ وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان، وقال تعالى في حقِّ المستهزئين: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ فبيَّنَ أنَّهُم كفَّارٌ بالقول، مع أنَّهم لم يعتقدوا صحَّتَه!

وهذا بابٌ واسِعٌ، والفقهُ فيه ما تقدَّمَ من أنَّ التصديقَ بالقلبِ يمنعُ إرادةَ التكلُّمِ وإرادَةَ فعلٍ فيه استهانةٌ واستخفافٌ كما أنَّه يوجِبُ المحبَّةَ والتعظيم][1].

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول (٦/١٣).

وأمَّا الخَطأُ أو سَبْقُ اللسان:

فهو أن يُريدَ المرءُ قولَ شيءٍ فيُخطِئُ أو يتَلَعثَمُ فيُقَدِّم ويؤخِّر في الكلام، فيخرُج على معنىً آخرَ غيرِ مُرادٍ منه، كما جاء في الحديث الصحيح، عن فَرَحِ اللهِ تعالى بتوبة عبده.....وفيه قولُ العبد "اللَّهُمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأَ من شدَّةِ الفرح"

ولا أظنُّ أحداً يرى أنَّ هذا المانِعَ ينسحِبُ على الهازِلِ بحالٍ، فما الذي كان يريدُ أن يقولَه الهازِلُ بكلامِه، فأخطأَ فيه؟!! ، ولو جوَّزنا جريان سبق اللسان في الهزل وأنه ممكن في الواقع ـ فإنه في حكم القليل النادر، والعبرة بالغالب الشائع كما هو معلوم.

قال الإمامُ ابنُ القيِّم ():

[وقد تقدَّمَ أنَّ الذي قال لَّما وجَدَ راحِلَتَهُ: اللهمَّ أنتَ عبدي وأنا ربُّكَ، أخطأَ من شدَّة الفرح، لم يكفُر بذلك، وإن أتى بصريحِ الكفر، لكونه لم يُرِدْهُ، والُمكرَهُ على كلمةِ الكفر أتى بصريحِ كلمته ولم يكفُر لعدم إرادته، بخلاف الُمستهزئ والهازل فإنَّه يلزمُه الطلاقُ والكفرُ وإن كان هازلاً، لأنَّه قاصِدٌ للتكلُّم باللفظِ، وهزلُهُ لا يكون عُذراً له، بخلاف المكرَه والُمخطئ والناسي، فإنَّه معذورٌ مأمورٌ بما يقوله أو مأذونٌ له فيه، والهازلُ غيرُ مأذونٍ له في الهزل بكلمة الكفر والعقود، فهو متكلِّم باللفظ مُريدٌ له، ولم يصرفهُ

عن معناه إكراهٌ ولا خطأ ولا نسيانٌ ولا جهلٌ، والهزلُ لم يجعلْـهُ اللهُ ورسـولُهُ عُذراً صارِفاً، بل صاحبُه أحقُّ بالعقوبة !!][1].

وأمَّا التأويل:

فهو أن يكونَ اللفظُ حَمّالاً لعدَّةِ أوجُهٍ، فيُحمَلُ الكلامُ على معنىً غيرِ المعنى الظاهر لوجودِ قرينةٍ تدلُّ على أنَّ الظاهرَ غيرُ مُرادٍ، وإذا كان الأمرُ كذلك، فإنَّ الكلام الذي يظهرُ من المستهزئ وقد اقترَنَ به ما يدلُّ على الاستخفاف، كالضَّحِك مثلاً، يدلُّ على أنَّ هذا المعنى هو المرادُ لا غيره.

وأمَّا الجَهل:

فربَّما يلتبسُ الأمرُ في هذا المانع على بعـضِ طلبـة العلـم، فاشـتراطُ العلم وقيامُ الحُجَّة هنا غيرُ واردٍ، وحكمُه حكمُ السبِّ تماماً، لجامِع التنقُّص والإهانةِ بينَ الأمرين، ولا يُشتَرطُ كما هو معلومٌ لكـي يُحكَـمَ علـى المـرءِ بالكفرِ أن يَعلمَ أنَّ السبَّ حرام، فهذا مما لا يجهله أحـدٌ مِمَّـن شـمَّ رائحـةَ العلم، فـإذا كـان السـبُّ أو الاسـتهزاءُ صـريحاً، بمعنـى أنَّـه يُفيـدُ الإهانَـةَ والتنقُّصَ بِصورةٍ قطعيةٍ، فلا يُسألُ هنا عن علمِه بالحُرمَـةِ، حيـثُ لا يوجـدُ عاقِلٌ يَفهمُ من السبِّ غيرَ هذا، حتَّى لو زَعَم أنه لم يكن يقصد التنقُّص.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٦٣/٣) دار الجيل.

ونمثِّل هنا بقول النصارى فيما يعتقدونه ديانةً، أنَّ عيسى عليه السلام ابنُ الله، وهذا بلا شَكَّ من أعظَم السَّبِّ للذات الإلهية، وهو نسبةُ الولد إليه، قال الله تعالى:﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم]، مع أنَّهم حينما يقولون ذلك لا يقصدون التنقُّصَ من الذات الإلهية قطعاً، ولا سبَّه سبحانه، بل يرون ذلك عينَ تعظيمِه، وهذا القصدُ الحَسَنُ لا يشفعُ لهم، وجهلهُم بأنَّ هذا سبٌّ لا يُخفِّفُ من جُرمِهم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤] وضابطُ الأمرِ هنا في الحُكم على دلالةِ الألفاظ على المعاني هو العُرْفُ، فقد تختلِفُ الدلالاتُ باختلافِ الزَّمانِ والمَكان وعُرفِ الناس، فقد يكونُ لِلَّفظِ معنىً في بلدٍ، ومعنىً آخرُ في بلدٍ آخَرَ! أو يكونُ له مفهومٌ في زمنٍ، ومفهومٌ آخرُ في زمنٍ آخر.

خُذ على سبيل المثال لفظ "الشاطِر" فهي تُطلقُ اليومَ ويُرادُ بها المدحُ، فهي تدُلُّ على الذكاء والحِنكَةِ، بينما معناها في لغَةِ العرب واستخدامهم لها في القديم تدلُّ على معنىً قبيحٍ يتضمَّنُ وصفاً بذَمٍّ.

ولفظ "الأزْعَر" يُطلقُ في ديارنا (بلاد الشام) على الفاجِرِ سَيِّءِ الخُلُق، مع أنَّ معناها في لغة العرب يدلُّ على خفيفِ شَعر الرأس! وليس فيه سُبَّةٌ

للموصوف على الإطلاق.

فإذا دلَّ العُرْفُ في بلدٍ على أنَّ هذا اللفظَ يُطلَقُ ويُرادُ به التنقُّصُ والإهانةُ، أو يُرادُ به الهَزَلُ واللَّعِب، فهو المِعيارُ والضابطُ الذي يَجِبُ الصَيرورَةُ إليه.

قال الإمامُ ابنُ تيمية ۞:

[والاسمُ إذا لم يكن له حَدٌّ[1] في اللغة، كاسمِ الأرضِ والسماءِ والبَحرِ والشمسِ والقمرِ، ولا في الشرعِ، كاسمِ الصلاةِ والزكاةِ والحجِّ والإيمانِ والكفرِ، فإنَّه يُرجَعُ في حدِّهِ إلى العُرف، كالقَبض والحِرز والبيع، والرَّهن، والكِرى، ونحوه.

فيجبُ أن يُرجَعَ في الأذى والسَبِّ والشتمِ إلى العُرْفِ، فما عدَّهُ أهلُ العُرْفِ سَبًّا وانتِقاصاً، أو طَعناً، ونحو ذلك، فهو من السبِّ][2].

وقال كذلك بعدَها:

[والكلامُ على أعيانِ الكلماتِ لا يَنحصِرُ، وإنَّ جماعَ ذلك أنَّ ما يَعرِفُ الناسُ أنَّهُ سبٌّ فهو سبٌّ، وقد يختلفُ ذلك باختلافِ الأحوالِ

(١) الحدُّ: التعريف.

(٢) الصارم المسلول: ص٥٣٢.

والاصطلاحاتِ والعاداتِ وكيفيةِ الكلامِ ونحو ذلك، وما اشتَبَه فيه الأمرُ أُلحِقَ بنظيرِه وشَبَهِه، والله أعلم][1].

فأَرعِ انتباهَك ـ رعاكَ الله ـ لقوله (كيفيَّة الكلام)!!

قال ابنُ حَجَرَ الهيتَميُّ ω:

[وما ذكَرَهُ ظاهرٌ لِقَصدِ النَّقصِ، وهو كُفرٌ كما مَرَّ.....إذ لا يُعذرُ أحدٌ في الكُفرِ بالجَهالةِ ولا بدعوى زلَلِ اللسان، ولا بشيءٍ مّما ذكرناه، إذا كانَ عقلُه في فِطرتِه سَليماً، إلا من أُكرِهَ وقلبُه مُطمئنٌّ بالإيمان، أو نشأَ بحواضرِ الإسلام والعلم][2].

وقال القاضي عياضω:

[تقدَّمَ الكلامُ في قتلِ القاصِدِ لسَبِّهِ والإزراءِ به، وغمصِه بأيِّ وجهٍ كانَ من مُمكنٍ أو مُحالٍ، فهذا وجهٌ بيِّنٌ لا إشكالَ فيه.

الوجهُ الثاني لاحِقٌ به في البيانِ والجَلاءِ، وهو أن يكونَ القائلُ لما قال في جِهتِه ﷺ غيرَ قاصِدٍ للسَّبِّ والإزراء، ولا مُعتقدٍ له، ولكنَّه تكلَّمَ في جهتِه ﷺ بكلمةٍ الكُفر، من لَعْنه أو سَبِّه أو تكذيبِه أو إضافَةِ ما لا يجوزُ

---

(١) الصارم المسلول: ص٥٤٣.

(٢) الإعلام بقواطع الإسلام (٣٨٤/٢).

عليه، أو نَفَى ما يجبُ له مّما هو في حقِّه ﷺ نقيصَةٌ ،..........وإن ظهَـرَ بـدليلِ حاله أنَّه لم يتعَمَّد ذمَّهُ، ولم يقصِد سَبَّه، إمَّا لجَهالةٍ حَمَلَتهُ علـى مـا قالَـه، أو لضَجَرٍ أو سُكرٍ اضطرَّه إليه، أو قلَّةِ مُراقَبَةٍ وضَبطٍ للسانِه، وعَجرَفَةٍ وتَهَوُّرٍ في كلامِه، فَحُكمُ هذا الوَجهِ حُكـمُ الوَجـهِ الأوَّلِ القتـلُ دونَ تلَعْـثُمٍ، إذ لا يُعذَرُ أحَدٌ في الكُفرِ بالجَهالَةِ ولا بدعوى زَلَلِ اللسان، ولا بشيءٍ مّما ذكرناه، إذا كانَ عقلُه في فِطرَتِه سليماً، إلا من أُكرِهَ وقلبُه مُطمَئِنٌّ بالإيمان.

وعن أبي محمَّدٍ بنِ أبي زَيدٍ : لا يُعـذَرُ بـدعوى زَلَـلِ اللسـان في مِثـلِ هذا][1].

---

(١)الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، (٢/ ٢٣٢).

هل يشترط في الاستهزاء قصد التنقُّص؟ وهل يشترط في الكفر قصدُ الاستهزاء؟ وهل يشترط للكفر قصدُ الكفر؟

والكلامُ في هذه المسائل يزيدُ ما قبلَها وضوحاً :

ولا بدَّ لنا ابتداءً من التفريقِ بين شيئين ؛ بينَ الاستهزاءِ الجادِّ والاستهزاءِ الهَزْليِّ:

وقد تقدَّم كلامُ الشيخِ العُثيمين:

"فمن أتى بكلمَةِ الكُفرِ فهوَ كافرٌ، سواءٌ أتى بها جادًّا أم لاعبًا مازحًا"

وهذا ما قصَدَهُ العلماءُ كذلك بقولِهم: "عن عَمدٍ أو عن غير عمدٍ" ، أي أنَّ مِن المستهزئين مَن يتعمَّد أن يجعَلَ الدِّينَ مَسخَرَةً ولَعِبًا لمرَضٍ في قلبه، وعداوةٍ في نفسِه، وهذا الحالُ قد يصدُرُ من العَلمانيِّين واليساريين والليبراليين ونحوهم، فاستهزاؤهم عن عَمدٍ، وهُم يُريدون بذلك النيلَ من الدين والشريعة التي يعتقدون أنَّها لم تَعُد صالحَةً للتطبيق في هذا العصر، وأنَّ التمسُّكَ بها تخلُّفٌ ورَجعيةٌ وظلاميَّةٌ، وهُم يعتقدون وجوبَ فصل الدين عن الدولةِ ونِظامِ الحُكم، فما يُظهِرونَهُ من استهزاءٍ وتَهَكُّم، إنَّما هو وجهٌ من وجوهِ النَّيل من الدين، والعمَلِ على إسقاطِ هَيبَتِه وقُدسيَّتِه من النفوس، بجعلِهِ مادَّةً للتنَدُّر والفُكاهة !!

ومن صوَرِ الاستهزاءِ الجادِّ عندَهُم تناولُهُم لقضايا " تحرير" المرأة !! والدعوة لُمساواتها بالرجُل، وقضية تعدُّد الزوجات، وارتداء الخِمار، وإعفاء اللحية، وقضية تطبيق الشريعة بكلِّ تفاصيلها، وأمورٍ كثيرَةٍ لا تخفى على مُتَتَبِّعٍ ومُتابع.

من أمثلةِ ذلك: استهزاءُ الرَّافِضَةِ بصلاةِ أهلِ السُّنَّة، في صِفَةِ وَضعِ اليُمنَةِ على اليُسرَةِ، بقولهم: أنتم تصطفُّون لـ"ضربةٍ حُرَّةٍ غير مباشرة"!! وهذا معروفٌ في لَعِبِ الكُرَةِ لا في الصلاة !!

وصِنفٌ آخرُ من الْمُتَعَمِّدين القاصدين، هم من الفسَقَةِ الْمُستهترين من أهل الفسادِ والعَربَدة، الْمُسَجَّلين في سِجلاَّت المسلمين، حياتُهم لهوٌ ولَعِبٌ وغَفلة، وهُم لا يَحملون منهجاً فكرياً كحال الصنف الأول، وليس لديهم من مبادئ الأَخلاقِ وأصولها ما يَردَعُهم عن الرذائِل والقبائِح، ولا شيءَ مُقَدَّس عندَهم، وهؤلاء هم قذى العُيون وحُمّى الأَرواح، القُربُ منهم مَرَضٌ، والبُعد عنهم عافية، وما أكثرَهم في مجتمعاتنا !! لا كثَّرَهم الله.

وما زِلتُ أذكُرُ واحداً منهم كان له دُكَّانٌ إلى جوارِ المسجِد، فيتعرَّض لنا ونحنُ صبيةٌ في مُقتَبَل العُمُرِ، عند دخولنا للمسجد مُتَهكِّماً قائلاً: أنتم يا أهلَ الجَنَّةِ مساكينُ، يُرثى لحالِكم في فصل الشتاء، أمَّا نحنُ أهلُ النارِ فأفضلُ منكم حالاً، لأننا نَنعم بالدِفءِ!!

وهؤلاء لهم طرائفُ لا تُحصى عن الدين وأهله، وعن الرُّسُل علـيهم الصلاةُ والسلامُ، وعن الملائكـة الكِـرام، بـل حتَّـى عـن اللهِ سُـبحانَه ذي الجلال والإكرام !

وكثيرٌ من هؤلاء لا يَرَون أنَّهم قد أَتَـوا بـذلك كُفـراً، لأنَّهـم يقولـون ذلك من غيرِ اعتقادٍ له، بل هو على سبيلِ الدُّعابةِ والمَرَح!!

سَمعتُ أحدَهم يوماً يقول: أمَّا أنا فالمَلَكُ الموَكَّلُ بِكَتْبِ سَـيِّئاتي أُشـفِقُ عليه، فهو يعمَلُ ليلَ نهارَ بلا تَوقُّف، وأمَّا المَلَكُ الموَكَّـلُ بِكَتْـبِ الحسَـنات فهو مُستريحٌ بلا عَمَل !

ثمَّ راحَ يصرُخُ عن يمينِه قائلاً: قُمْ يا هذا وساعِدْ صاحبَك!!

وأمَّا الصِنفُ الثالثُ من أصنافِ القاصِدين الاستهزاءَ الجادَّ، فهُم أهـلُ الأهواءِ والبِدَع المخالفين في مسائل الدين لأهل السُنَّة والجماعة، سـواء في مسائل الاعتقاد أم في العبادات.

فمن أمثِلة الأوَّل: استِهزاءُ بعضِهم بصـفة النُّـزول الإلهـي إلى السـماء الدنيا في الثُلُثِ الأخير من كلِّ ليلـة، وكـذلك دُنـوُّهُ يـومَ عرفَـةَ مـن أهـل الموقِفِ من الحَجيج، وقد صَحَّت في ذلك الرواياتُ، فقـد بَلَغـني أنَّ بعـضَ المتبوعين من هؤلاء يقولُ لتلاميذِهِ ساخِراً مـن أَهـلِ السُّـنَّةِ : إنَّ ربَّ هـؤلاءِ يظَلُّ صاعِداً نازلاً، نازِلاً صاعِداً !!

والتلاميذُ بينَ يدَيه ومِن حَوله يتضاحَكون!

إنَّ هؤلاءِ القَومَ جادُّون في سُخريَتِهم، لأنَّهُم يعتَقِـدون أنَّ اللهَ تعـالى لا يجوزُ في حَقِّـه النُّـزولُ لأنَّـهُ صِـفَةٌ للحَـوادِث، فيتأوَّلونَـه إلى مَعـانٍ أُخـرى، زاعمينَ أنَّ النُّزولَ الإلهيَّ مجازيٌّ وليسَ حقيقياً !!

ومن صوَرِ ذلك الصِّنفِ، ما اشتُهِرَ عن أَحَدِ الشيوخ المبرَّزين منهم في زماننا، سُخريتُه من أحاديثِ الصراط، وأنَّه مدحَضَـةٌ مزَلَّـة، وأنَّـه أدقُّ مـن الشعر وأحدُّ من السيف، وأنَّ عليه كلاليبَ تخطِفُ العُصاةَ إلى الهاويَة، وأنَّ الناس يجوزونه بحسب أعمالهم، فيقولُ مُتَهَكِّماً ضاحِكاً: ينبغي علـى النـاس أن يتـدرَّبوا جيـداً لأنَّهُـم سـيلعبون (السـيرك) يـوم القيامـة !! مـا هـذه الخُزَعبَلات!!

وقد سبَقَهُ إخوَةٌ له من مدرسَتِهِ الفِكريَّةِ، وعلى شـاكِلَته، سَـخِروا مـن حديثِ (لَطْم موسى عليه السـلامُ عـينَ ملَـكِ المـوت)! وحـديثِ (الكلـبُ الأسودُ شَيطان)! ومسألةِ قِتالِ الملائِكةِ إلى جَنبِ المؤمنينَ يومَ بَـدر! وحـديثِ (إذا سقَطَ الذُّبابُ في إناءِ أَحَدِكم....) وغير ذلك كثير.

وضابطُ الحُكم عليهم في هذه الحالَةِ، أن يُنظَرَ في الأَمر الـذي سَـخِروا منه مما يعتقدون أنَّه ليس من الدين، وأنَّهُ لم يثبُـت عنـدَهُم، فـإن كـان مـن المُحكَمات القَطعيَّاتِ والمعلوماتِ من الدينِ بالضَّرورَةِ والخِـلافُ فيـه غـيرُ سائغٍ، ولا يحتَمِلُ التأويلَ، فإنَّه يكفُرُ بذلك ولا رَيب.

وأمَّا ما لم يكُن كذلك، وكان صاحبُه مُتأوِّلاً فلا يكفرُ بذلك ـ والله أعلم ـ مع التنبيه إلى أنَّ السُّخريَةَ بمثلِ هذه المسائِلِ من الخطورة بمكان، ولا تصدُرُ إلا من أَهلِ الفسوقِ والعِصيان، وليسَ مِن أَهلِ التَّقوى والإحسان.

وأمَّا مَسألةُ القَصد، فقد التبَسَ على كثيرٍ من طلبةِ العلم فلم يُفَرِّقوا بين قصدِ الفِعلِ وقَصدِ الكُفر، والفرقُ بينهما كما بين الثَرى والثُريَّا !

فعندما يَشترِطُ العلماءُ القصدَ فيمَن صدَر منه الكفرُ ليكونَ كافراً، إنَّما مُرادُهم قصدُ الفعلِ **ولا** ريبَ، كمَن داسَ المصحَفَ ولم يرَه، أو صلَّى إلى القِبلَةِ وفي جِهَتِها نارٌ، أو لَبِسَ الصليبَ وهو لا يعلَمُ أنَّه صليبٌ، ونحو ذلك.

أمَّا قصدُ الكفر، بمعنى أنَّ المرءَ يقولُ القولَ أو يفعلُ الفعلَ لأنَّه يريدُ أن يكفرَ بالله تعالى، ويبحَثُ عن **الوسيلة** التي يُحَقِّقَ بها مُرادَه، فهذا أمرٌ بعيدُ الوقوع.

وفي جميع الأَمثلةِ المتقدِّمَة، إذا كان مَن صدَرَ منه الكفرُ يعلمُ ما يفعَلُ، فهل ينطبِقُ عليه القولُ بأنَّه لا يقصِد؟! فما الشيءُ الذي لا يقصِدُه؟!

فالقولُ بأنَّه لا يكفرُ إلا إذا كان قاصداً الكفرَ، هذا من أشنَعِ أقوال أهل البدَعِ في الإيمان، وهو قولُ غُلاة المُرجِئة!

قال الإمام ُبدرُ الدين الزركشيُّ ۞:

[فمن **تكلَّم** بكلِمَةِ الكُفرِ هازلاً، ولم يقصِدِ الكفرَ كفَر، وكذا إذا أخذَ مالَ غيرِه مازحاً ولم يقصِدِ السَّرِقةَ حَرُمَ عليه][1].

قال الإمامُ النوويُّ ۞:

[الردَّةُ: **هي** قطعُ الإسلام، ويحصلُ ذلك تارةً بالقول الذي هو كفرٌ، وتارةً بالفعل، والأفعال الموجِبة للكفر هي التي تصدُرُ عن تعَمُّدٍ واستهزاءٍ بالدين صريحٍ،.....قال الإمام: في بعضِ التعاليق عن شيخي، إنَّ الفعلَ بمُجرَّدِه لا يكونُ كفراً، قال: وهذا زللٌ عظيمٌ من المُعَلِّقِ ذكرتُهُ للتنبيه على غَلَطِه وتحصُلُ الردَّةُ بالقول الذي هو كفرٌ، سواء صدَرَ عن اعتقادٍ، أو عنادٍ، أو استهزاء][2].

قال الإمامُ ابنُ تيميَةَ ۞:

[وبالجُملَةِ، مَن قالَ أو فَعَلَ ما هو كفرٌ كَفَرَ بذلك وإن لم يقصِد أن يكون كافراً، إذ لا يقصِدُ الكفرَ أحدٌ إلا ما شاءَ الله][3].

وقال: [فدلَّ على أنَّه كان عندَهم إيمانٌ ضعيفٌ، ففعلوا هذا المحرَّم

---

(١) يُنظر" المنثور في القواعد الفقهية" (٣٨٠/٢).

(٢) روضة الطالبين / كتاب الردّة، (٢٨٣/٧_٢٨٤).

(٣) الصارم المسلول: ص١٧٧

الذي عرفوا أنَّه محرَّم، ولكن لم يظنُّوه كفراً، وكان كفراً كفروا به، فـإنَّهم لم يعتقدوا جوازَه، وهكذا قالَ غيرُ واحِدٍ من السلفـ][1].

قال البيجوريُّ:

[....لكن لا يظهَرُ الاستهزاءُ في النيَّةِ، وإنَّما يظهَرُ في القَولِ والفِعل][2].

وقال ألكِيا الهرَّاسيِّ ω[3]:

[فيه دلالةٌ على أنَّ اللاعِبَ والخائِضَ سَواءٌ في إظهارِ كَلِمَةِ الكُفرِ على غير وجهِ الإكراهِ، لأنَّ المنافقين ذكروا أنَّهم قالوا ما قالوه لَعِبـاً، فـأَخبَرَ اللهُ تعـالى عن كُفرِهم باللَّعِب بذلك، ودَلَّ أنَّ الاستهزاءَ بآياتِ الله تعالى كفرٌ][4].

وقال محمَّدٌ ابنُ عابدين الحنفيُّ ω:

[وفي "الفتح": من هزلَ بلفظِ كُفرٍ ارتدَّ وإن لم يعتقِدهُ، للاسـتخفاف، فهو ككفر العناد]، وفي حاشية "ردُّ المُحتار" قال:

[قوله: (مَن هَزَلَ بلفظِ كُفر) أي تكلَّمَ به باختياره غير قاصدٍ معناه...وكما لو سجَدَ لصنَمٍ أو وضعَ مصحفاً في قاذورةٍ، فإنَّه يكفرُ وإن كان مصدِّقاً،...][5].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٧٣).

(٢) حاشية البيجوري على ابن قاسم (٢/٢٦٤).

(٣) عماد الدين علي بن محمد ألكيا الهراسي الشافعي، ت:٥٠٤ هـ.

(٤) في (أحكام القُرآن) عند تفسير آية التوبة.

(٥) ينظر، ردّ المحتار على الدرّ المختار(٦/٣٥٦ـ٣٥٨) دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.

وقال سليمانُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمَّدٍ بنِ عبدِ الوَهَّاب:

[أجمَعَ العلماءُ على كُفر من فعَلَ شيئاً من ذلك، فمن استهزأ بالله أو بكتابه أو برسوله أو بدينه كفَرَ ولو هازلاً لم يقصِد حقيقَةَ الاستهزاءِ إجماعاً][1].

وقد تقدَّمَ قولُ القاضي عياض ۞:

[وأمَّا مَن تكلَّمَ من سَقْطِ القول وسُخْفِ اللفظ ممَّن لم يضبط كلامَه، وأهمل لسانَه، بما يقتضي الاستخفافَ بعظمةِ ربِّه وجلالة مولاه، أو تمثَّلَ في بعض الأشياء ببعض ما عظَّمَ اللهُ من ملكوته أو نَزَعَ من الكلام لمخلوقٍ بما لا يليقُ إلا في حقِّ خالقه، غير قاصد للكفر والاستخفاف ولا عامد للإلحاد، فإن تكرَّرَ هذا منه، وعُرِفَ به، دلَّ على تلاعُبه بدينه، واستخفافِهِ بحُرمَةِ ربِّه، وجَهلِهِ بعظيم عِزَّتِهِ وكِبريائِهِ، وهذا كُفرٌ لا مِريَةَ فيه][2].

وقال الجردانيُّ ۞: [إظهارُ كلِّ عقيدةٍ أو فعلٍ أو قول قصداً، يدلُّ على الطعنِ في الدين، والاستخفافِ به، والاستهانةِ باللهِ تبارَكَ وتعالى ورُسُلِهِ عليهم الصلاةُ والسلام][3].

وقوله (قصداً) أي ليس من قبيل الخَطَإِ، أو الإكراه.

---

(١) تيسير العزيز الحميد: ص٦١٧

(٢) الشفا (٢/٢٩٩).

(٣) فتح العلام بشرح مرشد الأنام (٤/٥٣٨).

وقد تقدَّمَ معَنا قولُ الدكتور الأُصوليِّ عبد الكريم زيدان:

[ولهذا لو تكلَّمَ بكلمةِ الكُفر هازلاً صارَ مُرتداً عن الإسلام، وإنَّما كان الحكمُ هكذا وإن كان الهازلُ لا يقصِدُ الردَّة ولا يُريدُها، لأَنَّ التكلُّمَ بكلمة الكفر هزلاً استخفافٌ بالإسلام، والاستخفافُ به كفرٌ، فصارَ الناطقُ بكلمةِ الكفر مُرتدًّا بنفسِ الهزلِ وإن لم يقصِد حُكمَه][1].

قال فخرُ الدين الفَرغانيُّ الحنفيُّω[2]:

[من كفرَ بلسانه طائعاً وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان فإنَّه كافرٌ، ولا ينفعُه ما في قلبه، ولا يكونُ عندَ اللهِ مؤمناً][3].

وقال أبو المعالي الحنفيُّ ω [4]:

[لا شكَّ أنَّه يكفرُ وإن لم يعتقِد أنَّها لفظةُ الكفر، لأنَّه أتى بها عن اختياره، يكفرُ عندَ عامَّةِ العُلماء، خِلافاً للبعض، ولا يُعذَرُ بالجهل، وأمَّا إذا أرادَ أن يتكلَّمَ فَجَرى على لسانِهِ كلِمَةُ الكُفر من غيرِ قَصدٍ فلا يكفر][5].

---

(١) الوجيز: ص١١٧

(٢) الحسن بن منصور: ت٥٩٢ هـ

(٣) فتاوى قاضيخان على هامش الفتاوى الهندية (٥٧٣/٣).

(٤) تاج الدين أحمد بن عبد الرحمن التدمريُّ.

(٥) "رسالة في ألفاظ الكفر" نقلاً عن كتاب " الجامع في ألفاظ الكفر" ص٤٢٩.

وقد تقدَّم معنا كذلك كلامُ الشيخ عبد الله الغنيمان:

[وأمَّا (اللَّعِب): فكأن يذكرَ الأمورَ على سبيل المزحِ غيرِ مقصود، وإنَّما يقولُ مزحاً أو يقولُ كلاماً لا يعرفُ معناه أو لا يقصِدُ معناه؛ لأنَّ آياتِ الله، ورسولَ الله، وكذلك أسماء الله وصفاته ليسَت مَحَلاًّ للَّعِب، بل يجبُ أن تعظَّمَ غايةَ التعظيم وتُحتَرَمَ وتُقَدَّر، ولهذا أمرَ اللهُ جلَّ وعلا بتقديره وبتعظيمه، وكذلك تعظيم شرعه وتعظيم رسُلِهِ، فهؤلاءِ الذين نزَلَت فيهم الآيةُ جاءَ أنَّ منهُم من أتى إلى النبيِّ ﷺ يعتذرُ ويُقسِمُ بالله أنَّه ما أرادَ حقيقةَ الكلام ومدلولَه، وإنَّما قالَ ذلك على سبيلِ التَّرويحِ عن النَّفسِ، لأنَّ المسافِرَ يتعَبُ فإذا ذكَرَ شيئاً فيه ترويحٌ عن النفس يجدُ نشاطاً، فهو يقول: أردنا هذا فقط، ومع ذلك لم يلتفت الرسولُ ﷺ إليه، ولم يقبل عذرَه، وصارَ لا يزيدُ على قول الله جلَّ وعلا:

﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾...... ولم يقبَل عذرَه، ولم يقبل أنَّه ما كان قاصِداً، فدلَّ هذا على أنَّ عدَمَ قصدِ الحقيقَةِ بالكلام والسُّخريَةِ واللَّعِبِ يكونُ كفراً][1].

---

(١) تسجيل صوتي.

معنى الكفر وحقيقته وأنواعه

ولكي تكتَمِلُ الصورةُ من جَوانبها المختلفة، ينبغي أن نعلَمَ ماهيةَ الكفرِ وحقيقتَه، وأنواعَه، ولو بصورةٍ مُقتَضَبَة:

تعريفُ الكفر:

في اللغة: السَّترُ والتغطيَةُ، يُقال للابس السلاح كافِرٌ، وهو الذي غطَّاه السلاحُ، والكافر: الزَرَّاع، لسَتره البذرَ بالتُّراب، والكُفَّار: الزُرَّاع، ومنه قولُه تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠].

والكافرُ: الليلُ، وفي الصحاح: الليلُ المظلِمُ، لأنَّه يسترُ بظُلمَته كلَّ شيء.

والكفرُ: جحودُ النِّعمَة، وهو ضِدُّ الشُّكر، وكفَّرَ الرجلَ، بالتشديد: نسَبَه إلى الكفر[1].

حقيقتُه الشرعيَّة :

هو نقيضُ الإيمان، فالإيمانُ عندَ السَّلَفِ قولٌ واعتقادٌ وعمَلٌ، وضدُّ ذلك الكفرُ، ويكونُ كذلك بالقول أو الاعتقاد أو العمل.

(١) لسان العرب : (١٣/ ٨٤ ـ ٨٥)، مختار الصحاح ص ٢٧١، القاموس المحيط(٢/ ٢١٦ ـ ٢١٧).

والكفرُ نوعان:

الأوَّل: ما يخرُجُ صاحبُه من مِلَّةِ الإسلام، وهو ما كان منافياً لأَصل الإيمان، فيُحبِطُ العَمَلَ بالكُلِّية، واصطلحوا عليه "الكفرُ الأكبر".

والثاني: لا يخرجُ صاحبُهُ من الملَّة، وهو ما كان منافياً لكمال الإيمان، ولا يحبِطُ كلَّ العمَل، واصطلحوا عليه "الكفرُ الأصغَر" والتصغيرُ هنا ليس لأَجلِ التهوين من شأنِه، ولكن للتفريق بينَه وبين الأكبر، وإلا فهو من كبائر الذنوب ولا شَكَّ، بل سمَّاهُ الشرعُ كفراً للتغليظ له، والتنفير منه.

وقد قسَّم بعضُ العلماءِ الكفرَ الأكبرَ المُخرجَ من الملَّة إلى خمسةِ أنواعٍ، ورَدَ ذكرها في القُرآن والسُّنَّة.

قال الإمامُ ابنُ القَيِّم‏‏:

[وأمَّا الكفرُ الأَكبر، فخمسةُ أنواع: كفرُ تكذيب، وكفرُ استكبارٍ وإباءٍ مع التصديق، وكفرُ إعراضٍ، وكفرُ شكٍّ، وكفرُ نِفاق.

فأمَّا كفرُ التكذيب:

فهو اعتقادُ كذبِ الرُّسُل، وهذا القسمُ قليلٌ في الكفار، فإنَّ الله تعالى أيَّدَ رُسُلَهُ وأَعطاهُم من البراهين والآيات على صدقِهم ما أقامَ به الحجَّةَ وأزالَ به المعذِرَةَ، قال اللهُ تعالى عن فرعونَ وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل:١٤] وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[الأنعام:٣٣] وإن سُمِّيَ كفرَ تكذيبٍ أيضاً فصحيح، إذ هو تكذيبٌ باللسان.

وأمَّا كفرُ الإباءِ والاستكبار:

فنحو كفر إبليسَ، فإنَّه لم يجحَد أمرَ الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقَّاهُ بالإباء والاستكبار، ومِن هذا كُفْرُ مَن عَرَفَ صِدقَ الرسول، وأنَّه جاءَ بالحقِّ من عند الله، ولم يَنقَد له إباءً واستكباراً، وهو الغالبُ على كفرِ أعداءِ الرُّسُل ،كما حكى الله تعالى عن فرعونَ وقومه ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون:٤٧]، وهو كفرُ اليهود، كما قال تعالى:﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾[البقرة:٨٩]

وقال سبحانه:﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾[البقرة:١٤٦] وهو كفرُ أبي طالبٍ أيضاً، فإنَّه صدَّقَهُ ولم يشُكَّ في صِدقِهِ، ولكن أخَذَته الحَميَّةُ وتعظيمُ آبائِه أن يرغَبَ عن ملَّتهم، ويشهَدَ عليهم بالكفر.

وأمَّا كفرُ الإعراض:

أن يُعرضَ بسمعِه وقلبه عن الرسول، لا يصدِّقُه ولا يُكذِّبُه، ولا يواليه ولا يُعاديه، ولا يُصغي إلى ما جاءَ به البتَّةَ.

وأمَّا كفرُ الشَّكِّ:

فإنَّه لا يَجزِمُ بصدقِه ولا يكَذِبه، بل يشُكُّ في أَمره، وهذا لا يستَمرُّ شكُّهُ إلا إذا أَلزَمَ نفسَه الإعراضَ عن النَّظَرِ في صدق الرسولِ ﷺ جملةً، فلا يسمعُها ولا يلتفِتُ إليها، وأمَّا مع التفاته إليها، ونظَرِه فيها، فإنَّهُ لا يَبقى معهُ شكٌّ، لأنَّها مستلزِمَةٌ للصدق، ولا سيَما بمجموعها، فإنَّ دلالتَها على الصدقِ كدلالة الشمسِ على النهار.

وأمَّا كفرُ النفاق: فهو أن يُظهِرَ بلسانه الإيمانَ، وينطوي بقلبه على التكذيب، فهذا هو كفرُ النفاقِ الأكبر][1].

---

(١) مدارج السالكين(١/٣٦٦-٣٦٧).

الردَّةُ ، معناها وأحكامها

كفرُ المستهزئ بعدَ إيمانه ردَّةٌ، لأنَّ الردَّةَ هي الكفرُ بعدَ الإيمان.

وتكونُ بالقول أو بالفعل أو بالجحود أو بالشكِّ أو بالتَرك، ومن ذلك الاستهزاءُ بالقول أو الفعل، هذه عقيدةُ أَهلِ السنَّةِ والجماعة.

جاء في (كشَّاف القِناع عن مَتن الإقناع):

[باب حُكمُ المُرتدِّ وهو:

لُغةً: الراجِعُ، يُقالُ ارتَدَّ فهوَ مُرْتَدٌّ إذا رَجَعَ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

وشَرعاً: (الذي يكفُرُ بعدَ إسلامه) نُطقًا أَو اعتقاداً أَو شكّاً أَو فعلاً (ولو مُمَيِّزاً) فتَصِحّ رِدَّتُهُ كإسلامهِ ويأْتي(طَوعاً) لا مُكرَهاً، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦] (ولو) كان (هازِلاً) لِعُمُومِ قوله تعالى :﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة:٥٤] الآيةَ، وحديث ابن عبَّاسٍ مرفوعاً: (من بَدَّلَ دينَهُ فاقتُلوه) رواهُ الجماعةُ إلا مُسلماً.

وأجمعوا على وجوبِ قتله: قَال في المُغني والشَّرح:

[ولا ينبغي أَن يُكتَفى في الهازئ بذلك بمُجَرَّدِ الإسلامِ حتَّى يُـؤَدَّبَ أدَباً يَزجُرُهُ عن ذلك، لأنَّهُ إذا لم يُكتَفَ مِمَّن سَبَّ رسولَ الله ﷺ بِالتَّوبةِ فهـذا أَولى.

(أو أَتى بقولٍ أو فعلٍ صَريحٍ في الاستهزاءِ بالـدِّين) الـذي شـرَعَهُ اللهُ كفرَ لِلآيةِ السَّابقَةِ (أو وُجِدَ مِنهُ امتِهانٌ لِلقُرآن أو طَلبُ تناقُضه أو دعوَى أنه مُختَلفٌ أو) أنَّهُ (مُخْتَلِفٌ أو مقدُورٌ عَلى مثله أو إسقاط لحُرمَتِهِ) كفَـرَ، لقولِهِ تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: ٢١]

تعقيب:

انظُر ـ وفَّقَكَ الله ـ إلى قولـه: "فهـذا أولى"، أي أنَّ رَدعَ المستهزئِ وتأديبَه واجبٌ حتَّى لو تابَ ودَخَلَ في الإسلام، بقياسِ الأَولى على السابِّ التائبِ بعدَ الرِّدَّةِ، وهـذا يعـني أنَّ الاستهزاءَ أعظَمُ مـن السَّبِّ، وهـذا القياسُ بالأولى ظاهِرٌ، ولكنَّ كثيراً من الناس لا يفقَهون ذلـك، ويَـرَونَ أنَّ السَّبَّ أَعظَمُ كُفراً من الاستهزاءِ، فوَجَبَ التنبيهُ إلى ذلك.

وأظهَرُ الأوجُهِ في تغليظِ الهَزْل على السبِّ ـ في نظري ـ ما يلي:

أولاً: أنَّ السَّابَّ قد يسُبُّ في الغالِبِ وهو غَضبان، وأمَّا الهازِلُ فيَسُبُّ وهو يَضحَك !!

ثانياً: أنَّ السَّابَّ يعلَمُ أنَّه أَخطَأَ، وقد يدعوه ذلك للنـدَمِ والتوبَـةِ مـن قريب، بخِلافِ الهازل، فهو لا يشعُرُ عادَةً بخطورةِ ما يصنَعُ، ما يجعَلُـهُ مُكَـرِّرًا ومُعاودًا لصَنيعه !

ولماذا يتوبُ وهو عندَ نفسِه لم يصنَعْ ما يَستَوجِبُ التوبَةَ ؟!

ثالثاً: أنَّ مَن سَمِعَ الشَّاتِمَ يَستنكِرُ ذلكَ منـهُ ولا يَرضـاهُ، وقـد يُغلِـظُ عليه النَّكيرَ، بينَما سامِعُ الهازلَ غالِباً ما يُجامِلُهُ ويُشارِكُهُ في الضَّحِك.

وقالَ الإمامُ ابنُ تيميَةَ ۞:

[فإنَّ كانَ مُسلِماً وجَبَ قتلُهُ بالإجماع، لأنَّهُ بذلك كافرٌ مُرتَدٌّ وأَسوأُ من الكافر، فإنَّ الكافرَ يُعظِّمُ الرَّبَّ(١)، ويعتقدُ أنَّ ما هو عليه من الدِّينِ الباطِلِ ليسَ باستهزاءٍ باللهِ ولا سُبَّةٍ له][٢].

وقد مرَّ معنا آنِفاً قولُ الدكتور عبدِ الكريم زَيدان:

[ولهذا لو تكلَّم بكلمة الكفر هازلاً صار مرتَدًّا عـن الإسـلام، وإنَّمـا كان الحكمُ هكذا وإن كان الهازلُ لا يقصِـدُ الـردَّةَ ولا يُريـدُها، لأنَّ الـتكلُّمَ بكلِمَةِ الكفرِ هَزلاً استخفافٌ بالإسلام، والاستخفافُ به كُفر][٣].

---

(١) حيث أنَّ ذلك من صميم دينه، الذي يعتقد أنه دين الحق، وأن الله تعالى ارتضاه لعباده.

(٢) الصارم المسلول : ص٥٤٧.

(٣) الوجيز: ص١١٧.

جاءَ عن الإمام بَدر الرَّشيدِ ۞:

[من كفَرَ بلسانه طائِعاً وقلبُهُ مُطمَئِنٌّ بالإيمان فإنَّهُ كـافِرٌ، ولا ينفَعُـهُ مـا في قلبه، ولا يكونُ عندَ اللهِ مؤمناً][1].

قال الشيخُ العثيمينُ ۞:

[ولهذا قال العلماءُ، رحمهُم الله : مَن قالَ كلِمَةَ الكُفرِ ولو مازحـاً: فإنَّـهُ يكفُرُ، ويجبُ عليه أن يَتوبَ، وأن يعتقِدَ أَنَّهُ تابَ مِن الرِّدَّةِ، فيُجَدِّدَ إسلامَهُ، فآياتُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ورَسولُهُ أَعظَمُ مِن أَن تُتَّخَذَ هُزُوًا أو مَزْحًا][2].

لماذا لم يقبَل اللهُ اعتذارَهم في تبوك ؟!

يلتبسُ عندَ عامَّةِ النَّاس، معنى (الاعتذار) بمعنى (التَّوبَةِ والاستغفار)، فيتساءلُ بعضُهم، لِمَ لَمْ يقبل اللهُ توبَتَهُم وقالَ لهم : (لا تعتَذِروا) !!

وكذلك فعلَ رسولُ اللهِ ﷺ معَ وديعَةَ بنِ ثابتٍ، وكـانَ مُتَعَلِّقًـا بنِسـعِ دابَّتِهِ وقدماهُ تنكبُها الحِجارَةُ، ولا يلتفِتُ إليه، وأَغلَظَ معَهُ في الرَّدِّ !

ولتوضيح ذلكَ نقولُ وباللهِ التَّوفيق:

---

(١) ألفاظ الكفر : ص٢٣.

(٢) "لقاءات الباب المفتوح" (٦٠/ السؤال الأول).

إنَّ الاعتذارَ هو طلَبُ قَبولِ العُذرِ مِن الآخَر، وكأَنَّ المعتَـذِرَ يقـولُ: أَنـا لي عُذري السائِغُ فيما فعَلتُ، فلـم أُخطـئ، ممَّـا يقتضـي المُسـامَحَةَ وعَـدَمَ المؤاخَذَةِ، كما لو اعتَذَرَ المرءُ عن الجِهادِ الواجِبِ لأَنَّـه أَعمـى أَو أَعـرَجُ، أو اعتذرَ عن الموعِدِ لأَمرٍ أَلَمَّ بـه، وهـؤلاءِ أصـحابُ الأعـذارِ المقبولَـةِ لأَنَّهـا حقيقيَّةٌ، أمَّا لو جاءَ مَن لا عُذرَ لهُ حقيقيًا وطَلَـبَ الإعـذارَ عـن التَّخَلُّـفِ، فإنَّهُ لا يُعذَرُ وإن اعتَذَرَ، قالَ تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾[التوبة:٩٤].

والخلاصة:

المعتذِرُ هو من يذكُرُ عن نفسِهِ ما يَراهُ عُذرًا سائِغًا، ولكن قد لا يكـونُ كذلك في الواقِعِ ونَفسِ الأَمر، فيُرَدُّ ذلك عليه، بخِلافِ التَّائِبِ والمستَغفِر، الذي يتَضَمَّنُ استغفارُهُ الإقـرارَ والاعـترافَ بالخَطَأِ، فهـوَ يطلُـبُ الصَّـفحَ والعفوَ، ويعتقدُ أنَّه يستَحِقُّ المؤاخَذَةَ والمعاقَبَةَ، وهـو مُعتَـرِفٌ بالجنايَـةِ، أمَّـا المعتَذِرُ فهو يُطالِبُ بعدَمِ المؤاخَذَةِ، لأَنَّهُ يعتقِدُ بأَنَّهُ لا يسـتَحِقُّها بسَـبَبِ مـا يراهُ في نفسِهِ عُذرًا، فهؤلاءِ القَومُ المستَهزِئونَ لم يعتَرفوا بالجنايَةِ والخَطَأِ، بل اعتَذَروا بأَنَّهُم كانوا غيرَ جادِّينَ ولا قاصدينَ الإساءَةَ والتَّنَقُّصَ، وإنَّما فعلوا ذلك على سبيلِ اللَّهوِ واللَّعِبِ ودَفعِ سآمَةِ الطَّريقِ، فَهُم يرَونَ هذا الشـيءَ لا يستوجِبُ المؤاخَذَةَ!

لذا جاءَ الجوابُ ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾ أي : إنَّ عذرَكُم غيرُ مقبول! ولو قالوا: نستغفِرُ اللهَ، نتوبُ إلى الله، لما قالَ لهم التوَّابُ الرَّحيمُ " لا تستغفروا .. لا تتوبوا" فبابُ التوبَةِ مفتوحٌ، واللهُ تعالى لا يَرُدُّ التائبين.

من لوازم تعظيم الله تعالى تعظيم القُرآن لأنَّه كلامه

قال القاضي عياضω:

[اعلم أنَّ مَن استخفَّ بالقُرآن أو المصحَفِ أو بشيءٍ منهُ أو سبَّهما، أو جحَدَهُ أو حرفاً منهُ أو آيةً، أو كذَّبَ به أو بشيءٍ منه، أو بشيءٍ ممَّا صَرَّحَ به فيه من حُكمٍ أو خَبَرٍ، أو أثبتَ ما نفاهُ أو نفى ما أثبَتَهُ، على علمٍ منه بذلك، أو شَكَّ في شيءٍ من ذلك، فهو كافرٌ عندَ أهلِ العلمِ بإجماع][1].

وقال:

[والنَّصيحَةُ لكتابه: الإيمانُ به، والعمَلُ بما فيه، وتحسينُ تِلاوته، والتَخُشُّعُ عندَه، والتعظيمُ له، وتفهُّمُه والتفقُّهُ فيه، والذَّبُّ عنه من تأويلِ الغالينَ وطَعْنِ المُلحِدين....][2].

قال الإمامُ محمَّدُ بنُ نَصرٍ المروزيُّ ω:

[وأمَّا النَّصيحَةُ لكتابِ اللهِ، فشِدَّةُ حُبِّهِ وتعظيمُ قَدْرِه، إذ هوَ كلامُ الخالِقِ، وشِدَّةُ الرَّغبَةِ في فَهمِهِ، ثُمَّ شِدَّةُ العِنايَةِ في تَدَبُّرِهِ، والوقوفُ عندَ تلاوتِهِ لِطَلَبِ معانيَ ما أَحَبَّ مولاهُ أَن يفهَمَهُ عنه، ويقومُ لهُ به بعدَ ما يفهمُهُ، وكذلكَ النَّاصِحُ من القَلبِ يتَفَهَّمُ وَصيَّةَ مَن يَنصَحُهُ، وإن ورَدَ

---

(١) الشفا (٢/ ١١٠١).

(٢) الشفا (٢/ ٥٨٣).

عليه كتابٌ منه غُني بفَهمه][1].

والقُرآنُ كلامُ اللهِ تعالى، قالَ سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦] وكلامُهُ صِفَةٌ من صفاتِهِ جَلَّ جلالُه، وتعظيمُ أسمائِه وصفاتِهِ من ضَروريَّاتِ تعظيمِهِ، فلا يُتَصَوَّرُ أن يجتَمِعَ إيمانٌ صحيحٌ في القلبِ معَ استِخفافٍ بالقُرآنِ المجيدِ وآياتِهِ الكريمَةِ التي هي كلامُهُ !!

وقد ذكَرتُ آنِفاً أنَّ سبَبَ تأليفِ هذه الرسالَةِ إنَّما هو ما انتَشَرَ في أوساطِ المُلتَزمين من قُرَّاء القُرآنِ من تَلاعُبهم بآياتِ القُرآن، على وَجهٍ يجعلُهُم على خطَرٍ عظيمٍ ومجازفةٍ كبيرةٍ في دينِهم وإيمانِهم !

فقد أنزلَ اللهُ تعالى كُتُبَه لهدايةِ الناس إلى الإيمانِ والعمَلِ الصالح، وجعلها هدىً ونوراً لعباده، فيها مِنهاجُ حياتهم الصالحُ والكاملُ، وختَمَها بالقُرآن الكريم، الذي تكفَّلَ بحفظِه من أن تمتدَّ إليه يدُ التحريف والتزوير، فلا يأتيه الباطلُ من بين يدَيهِ ولا مِن خَلفِهِ تنزيلٌ مِن حَكيمٍ حميدٍ، قد شهِدَ الكُفَّارُ بعظَمَته وإعجازه، قال الله تعالى في حقِّه:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق]

---

(١) تعظيم قدر الصلاة (٢/٦٩٣).

حالُ المؤمنين عندَ سَماعِ القُرآن

مَن قرأَ القُرآنَ وهو يعلمُ ما هو القُرآن، وأدركَ أنَّه رسالةُ الله إلى عباده، فيه صلاحُ حياتِهم، ونورُ قلوبهم، وسموُّ أرواحهم، وعلوُّ شأنهم وسعادتُهم الأبديَّة، قرأهُ ولابُدَّ بنَفَسٍ آخرَ غيرِ النفَس الذي يخلو من هذا الإدراك، ويتفاوتُ الناسُ في ذلك بتفاوتِ تفاعُلِهم وتأثُّرِهم به عندَ تلاوَتِهِ أَو سَماعِه، فتَجدُ القلوبَ الخاشعةَ الوَجِلَةَ، والجلودَ المُقشَعِرَّةَ، والعيونَ الباكيةَ والنفوسَ الحانيةَ، فلا مجالَ للغَفلَةِ، ولا مكانَ للهَزلِ واللَّعِبِ والحالةُ هذه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء]

فلا عجَبَ أن نرى رسولَ الله ﷺ إذا قرأهُ في صلاته يُسمَعُ لصَدرِهِ أَزيزٌ كأَزيزِ المِرجَلِ[1] مِن البُكاءِ، وكانَ يقومُ به عامَّةَ ليله، حتَّى تورَّمَت قدماه !

ولا عجَبَ من بُكاءِ أبي بكرٍ في صـلاتِه حتَّـى أنَّـهُ لا يكـادُ يُفصِـحُ في قراءَته !

ولا عجَبَ مِن تهاوي عمَرَ الفاروقِ علـى شـدَّتِهِ وصَـلابَتِهِ أَمـامَ هَيبَـةِ القُرآنِ ومجدِهِ، فيَخِرُّ إلى الأَرض، لا تقوى قدماهُ على حملِهِ لسَماعِهِ آيَةً منـه، ويمرَضُ ويعودُهُ النَّاسُ شَهرًا لا يعلمونَ ما علَّتُه، وما به والله من علَّة سـوى الوَجَل.

وكان عِكرِمَةُ E يفتحُ المصحفَ فينظُرُ فيه ويبكي، ويقولُ "كلامُ ربِّي، كلامُ ربِّي"

وكما كان الحالُ مع الصحابةِ الكـرامِ فقـد كـان كـذلك مـع تـابعيهم بإحسانٍ، ومنهم من كان يخِرُّ صريعاً لما يعترِيه من حـالِ الوجَـلِ والتَّعظـيم، كما حَصَلَ مع زُرارَةَ بنِ أَبي أَوفى، عنـدَما سَـمِعَ قولَـهُ تعـالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر:٨] خرَّ ميِّتاً.

وكذلك مع عليٍّ بنِ الفُضيل بن عِياض، والقائمةُ تطول.

---

(١) المِرجَل: القِدر.

صورٌ من استهزاءِ سُفَهاءِ زمانِنا ومِن أعداءِ الدين

ذكرَ النبيُّ ﷺ، أنَّ المسلمين إذا ما تركوا الأمرَ بـالمعروف والنَّهـيَ عـن المنكَرِ، والجهادَ في سبيلِ اللهِ، فـإنَّ اللهَ تعـالى سيُسَـلِّطُ علـيهم ذلاً لا يرفَعُـهُ حتَّى يُراجِعوا دينَهُم.

وها نحنُ نرى اليـومَ تحقُّـقَ ذلـك الوعيـدِ، فقـد وصَـلَ المسـلمون في عصرنا إلى حَدٍّ من الذُّلِّ والهَوانِ أنَّهُم لا يملكونَ حتَّى الـدِّفاع عـن ديـنهم، والذبَّ عن جنابِ ربِّهم تبارك وتعالى، فترى المسلمَ يسمَعُ سَبَّ رَبِّه بأُذنَيـه ثمَّ لا يملِكُ إلا أن يُحَوقِلَ ويَستَرجِعَ، وتراهُ يقرأُ الكفرَ والاستهزاءَ بدينه في ما يُنشَرُ على المَلأ في الصُّـحُفِ والمجـلاَّتِ ووَسـائِلِ الإعـلامِ المختلفـة، ولا يستطيع أن يُغيِّرَ من ذلك شيئاً، ونحنُ نقولُ ما قاله اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١]، فـإذا لم يـترك المنتسـبون إلى الإسلام منا السُّخريَةَ والاستهزاءَ بدينهم، فإنَّا سنسمَعُهُ من الكفارِ أَعـداءِ الله تعالى على نطاقٍ واسِعٍ، ولـن يرفَـعَ اللهُ عنَّـا ذلـك الأَذى حتَّـى نُراجِـعَ ونُصلِحَ أنفُسَنا، ونُطَهِّرَ صُفوفَنا، ونتوبَ إلى الله تعالى توبةً نصوحاً.

وهذا بعضُ ما يحصلُ في زماننا من الكفر العَلَنيِّ، والاستهزاءِ الجَهـريِّ باللهِ ورَسولِه، نَسأَلُ اللهَ العَفوَ والعافيَةَ في الدُّنيا والآخِرَة.

وللشُعراءِ الحَداثيِّين نصيبٌ وافِرٌ من السُّخريَةِ الرَّعناءَ، والتي فيها تطاولٌ على ربِّ الأرض والسماء، وفي مقدِّمة هؤلاء:

○ **عبدُ العَزيز المقالح الذي يعُدُّونه من روَّاد الحَداثيين، يقول:**

[صارَ اللهُ رماداً، صمتاً رعباً في كف الجلادين، حقلاً ينبُتُ سُبحاتٍ وعمائمَ بين الرَّبِّ الأُغنيةِ الثروَةِ والرَّبِّ القادِمِ من هوليوود، كان اللهُ قديماً حُباً، وكان نهاراً في الليل أغنيةً تغسِلُ بالأَمطار الخَضراء تجاعيدَ الأرض][1].

○ **الشيوعيُّ الحداثيُّ عبدُ الوَهَّابِ البَياتيُّ، يقول:**

[اللهُ في مدينتي يبيعُه اليهود، الله في مدينتي مشرَّدٌ طريد، أراده الغزاةُ أن يكونَ لهم أجيراً شاعراً قَوَّاداً، يخدعُ في قيثارةِ المَذهب العبادَ لكنَّه أصيبَ بالجنون، لأنَّه أرادَ أن يصونَ زنابِقَ الحقولِ من جرادِهم أراد أن يكون..][2].

○ **شاعرُ الخَنا نزارُ قبَّانيُّ، يقولُ في قَصيدةٍ بعنوان "أصهارُ الله":**

[وهل غَلاءُ الفولِ والحُمُّصِ والطُّرشيِّ والجرجير شأنٌ من شؤون الله ؟!][3].

[يا إلهي ... إن تكُن رَبَّاً حَقيقيَّاً فَدَعنا عاشقينا][4].

---

(١) المجلة العربية: عدد شعبان ١٤٠٥ هـ(نقلاً عن كتاب الحداثة في ميزان الإسلام لعوض القرني ص ٨٦).

(٢) ديوانه كلمات لا تموت : ص ٥٢٦ (نقلاً عن كتاب الحداثة للقرني ص ٩٣) .

(٣) مجلة الناقد : العدد ١٣ سنة ١٩٨٩ م .

(٤) الأعمال الشعرية الكاملة (٦٥/٢) طبعة ١٩٨٣ م بيروت .

○ **الشاعرُ الشيوعيُّ محمود درويش يقول :**

[اقرأ باسم الفِدائي الذي خَلقا ..... خَلَقَ مِن جَزمةٍ أُفُقا][1].

وقال: [نامي فعينُ الله نائمةٌ عنا وأَسرابُ الشحارير][2].

○ **بدرُ شاكر السَّيَّابُ يقول:**

[فنحنُ جميعنا أمواتٌ، أنا ومحمَّـدٌ واللهُ !! وهـذا قبرُنـا أنقـاضُ مِئذَنَـةٍ مُعفَّرَةٍ، عليها يكتَبُ اسمُ محمَّدٍ والله][3].

ويقول: [وإنَّ الله باقٍ في قُرانا ما قتلناهُ، ولا من جوعِنا يوماً أكلناهُ][4].

وإذا نَظَرنا إلى ما يقَعُ من القَومِ في غـيرِ الشِّـعرِ والأَدَب، وجَـدنا مـا لا يُمكِنُ حَصرُهُ مِن الصُّوَرِ والأَمثِلَةِ، ومن ذلك:

○ ما يفعلُهُ بعضُ ذوي الصنائِعِ والباعَةُ من كتابَةِ بَعضِ الآياتِ القُرآنيَّةِ على دَكاكينِهم للدِّعايَةِ ولَفتِ الانتبـاه ! ككتابَـةِ بَعـضِ الخَيَّـاطينَ قولـه تعالى: (وكلَّ شـيءٍ فصَّـلناهُ تَفصـيلا)!! وكتابَـةُ الحلاَّقـينَ علـى واجِهَـةِ الصالوناتِ قولَهُ تعالى: (وجوهٌ يومَئِذٍ ناعِمَة) ! وأَغلَظُ من ذلك مـا كـان يحمِلُ معنىً قبيحاً، ككتابة أَحَدِ باعَةِ عَجَلاتِ السيَّاراتِ فَوقَ بابِ دُكَّانِـهِ (خُلِقَ الإنسانُ من عَجَل)!!

---

(١) سمعتُ ذلك منه في مهرجان عُقِدَ في (عمان) سنة ١٩٨٥م.

(٢) ديوانه ص ٢٤ الناشر : دار العودة – بيروت .

(٣) نفس المصدر ص٣٩٥.

(٤) نفس المصدر ص ٣٩٩.

- كم سَمِعنا مَن يقولُ وهوَ يُريدُ إسكاتَ مَن يُجادِلُه: "صَلِّ على كوم أو كَمشَة أنبياء" !!
- حذاؤهُ كبيرٌ ، فيُقالُ له: حِذاؤكَ مثلُ سفينَةِ نوح !!

مَن هو نوحٌ ؟! هل يستشعِرُ هؤلاءِ أنَّه نبيٌّ من أُولي العَزم مِن الرُّسُل؟!! وهل استشعروا أنَّ السفينةَ جرَت بحفظِ اللهِ تعالى وعِنايته؟!

قال تعالى عنها: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]

- وكم سمِعنا من يُهَوِّنُ من قدْرِ الصلاة فيقول: (اهبدْ) أو (غُزَّ) أو (طُقَّ) ركعتين !!

وكم سمِعنا من يَحُطُّ من قَدْرِ الدُّعاء فيقولُ: (اسلخْهُ دعاءً) أو (سَلَخَهُ دعاءً فأرداهُ صريعاً)....إلخ.

وهذا غيضٌ من فيضٍ، وقليلٌ من كثيرٍ، نقَلتُهُ على سَبيلِ التمثيلِ فحَسْبُ، واللهُ المستعان.

الاستهزاء في الإعلام الفاسد

لقد عمِلَ الإعلامُ العَلمانيٌّ لعقودٍ على تشويهِ صورةِ الصالحين عَبْرَ وسائِلِه المختَلِفَة، وقد أَظهَروا الشخصياتِ "الإسلامية" المحترَمَة، كالقاضي والإمام والمجاهد والمأذون الشرعيِّ، بصورة مَسخٍ، تثيرُ السُّخريَةَ والضحكَ، فلا بدَّ أن يكون معتوهاً، وأن يكون فيه عيبٌ خِلقيٌّ، كالحوَل مثلاً ! ويتكلَّم بالعربيةِ الفُصحى، ويقولُ: (تباًّ لكم يا قوم ! اتَّقوا اللهَ يا قوم !) وقد يُضربُ بالنِّعالِ والأَحذيَةِ والطماطِم، وهكذا، ليُسقِطوا هذه الشخصيات المحترَمَةَ من أعيُنِ الناس، ويكرِّسوا عَبْرَ التَّكرار في وَعي النَّاس، أنَّ أصحابَ هذه الصورَةِ هُم المتَخلِّفون الرجعيِّون الظلاميُّون، لأنَّهم مُرتَبطون بشَكلٍ أو بآخرَ بالدين!!

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف:٨]

ومن أشنَع صوَرِ الاستهزاءِ برسول الله ﷺ ما رَسَمَهُ رسَّامُ الكاريكاتير المعروفُ، في صحيفة "الأهرام" حيثُ رسَمَ صورةً هزليَّةً صوَّرَ فيها رجلاً بدوياً يرمزُ به إلى رسول الله ﷺ، يركَبُ حِماراً في وَضعٍ مقلوبٍ ليكونَ رَمزًا للرجعيَّةِ، وفي أرضيَّةِ الصورةِ ديكٌ وتِسعُ دَجاجاتٍ، وعنوان الصورةِ هو"محمَّد أفندي جوز التسعة"[١].

---

(١) ذكر ذلك الأستاذ محمد قطب في "واقعنا المعاصر" ص٣٥٨.

- نشَرَتْ إحدى الصُّحُف صورةً "كاريكاتيرية" لشيخٍ يلبَسُ الجبَّة والعمامة، وله لحيةٌ عظيمةٌ، وملامِحُ وجههِ تعكِسُ الشَّرَّ والغضَبَ وبيده سِلاحٌ ـ رشاشة ـ وأمامَهُ جمعٌ من النساء والأطفال يتساقطون على الأرض من الرصاص، وفي أسفل الصورة تعليقٌ يقول (الإسلامُ هو الحلُّ)!

- يسألُ أَحَدُهم: مَن يدري أينَ سيكونُ مصيرُ الفلسطينيين يومَ القيامة؟ في الجنَّةِ أم في النار؟ وعندما يفرغُ النَّاسُ من إجاباتهم وتوقُّعاتهم يقولُ ضاحكاً:

"ستُبنى لهم مُخيَّماتٌ في أرض المحشَر" !

- وكم من عرضٍ (تلفزيونيٍّ) سَخِروا فيه من الصحابَةِ الأَجِلاَّء، والعلماء الفضلاء، فتراهم يعرضون الصحابةَ بصورةٍ مشوَّهة، ونواياهم الخبيثَةُ في ذلك معلومَةٌ مكشوفَةٌ، وهذا التشويهُ هو جزءٌ لا يتجَزَّأُ من خِطَّة الأَعداءِ بغزوهم الفكريِّ لديار المسلمين، فالصحابيُّ الجَليلُ الذي تكونُ صورتُه عظيمَةً في أذهانِ الناس، يُمَثِّلُ شخصيَّتَه مَن هو فاسِقٌ فاجِرٌ، قد ظهَرَ في مشاهِدَ فاضِحَةٍ خليعةٍ في عروض أخرى ! فتنطبعُ صورَةُ هذا المُمَثِّلِ في الأَذهان، فإذا ما ذُكِرَ اسمُ الصحابيِّ الجليلِ فلا يستحضِرُ الذِّهنُ غيرَها.

ويُصَوِّرون الصحابةَ حليقي اللِّحى أو أَنَّها- ديكور- محلوقةٌ إلا الذَّقن، ويلبسونَ الثِّيابَ المنقوشَةَ المزَخرَفَةَ المُذَهَّبَةَ، ما يجعَلُهُ أَشبَهَ بالنِّساءِ منه بالرِّجال، وترى هذا الصحابيَّ الجليلَ يقعُ في حُبِّ امرأَةٍ جميلةٍ من الصحابياتِ الشريفات الطاهرات، تشغَلُ فِكرَهُ ليلَ نهارَ، ويتواعَدُ معَها عندَ عَينِ الماءِ، وكأَنَّها قَصَصُ عِشقٍ وغَرام.

ويُظهِرون الصَّحابياتِ والعابدات الصالحات، يرتَدين الحِجابَ على الطرازِ العَصريِّ الحديث، مِنديلُها الوَرديُّ يُغَطِّي مؤخَّرَةَ رأسِها فقط، وضفيرتاها مُتدلِّيتانِ على صدرها المُجَسَّمِ من ضيقِ الثِّيابِ، كاشِفَةً صَدرَها ونحرَها، ليَبرُقَ فيه العِقدُ المُنضَّدُ، والزينةُ والحُليُّ تُثقِلُها، قد دقَّقَت حاجِبَيها ومَلأَت وجهَها بأنواعِ الأَصباغِ ومَوادِّ التجميل، وكُلُّها ميوعَةٌ وميوعَةٌ، تُخالِطُ الرِّجالَ وتُصافِحُهُم وتُضاحِكُهم، ثمَّ تقِفُ على الحصيرِ لتُصَلِّيَ وتُناجيَ الجليلَ، ثمَّ ترفَعُ يدَيها وتقولُ بصوتِها المُتَكَسِّرِ الرَّقيقِ: يا ربُّ يا ربُّ !!

الهَزْلُ بالقُرآن في كُتُب الأدب

الشعرُ والنثرُ والروايةُ والقِصَّةُ ونحو ذلك، هو كـلامٌ، حَلالُـهُ حَـلالٌ، وحرامُهُ حَرامٌ، فليس للأَدَب حُكمٌ خاصٌّ مُستثنى من عمـومِ مـا يحـرُمُ مـن الهَزلِ والاسـتخفافِ بـدين المسـلمين، ولكنَّـكَ إذا قـرأتَ في كتـبَ الأَدَبِ المختلِفَةِ، القديمةِ منها والحديثة، لا سيما في كُتُبِ النوادِرِ والطُّرَفِ والأَخبار، ستجدُ العديدَ منها عارٍ عن الأَدَبِ والذَّوق، وبعضُها كفـرٌ وزندَقـةٌ ومُـروقٌ من الدين، وفي هذا المَقامِ من موضوعِ بحثِنا سأَنقُلُ إليـك بعـضَ مـا روتـهُ كتبُ الأدب العربيِّ من الروايات القادحةِ بعَظَمةِ الدين في النفوس، وفيها سُخْفٌ واستخفافٌ وسُخريَةٌ، تنقُضُ الدينَ والأَدَب:

- [قال الجاحِظُ: شُرِيَ لأَحمدَ بنِ جعفرَ بنِ سُـليمان دجـاج، ففقـد فخـذاً، فنادى في داره: من هـذا الـذي(تعاطى فعقـر)؟ والله (لأقطِّعـنَّ أيـديَكم وأرجُلَكَم من خلافٍ ولأُصَلِّبَنَّكُم أَجمعين).
  فقال له أكبرُ ولده: يا أَبَه (لا تؤاخِذنا بما فَعَلَ السُّفَهاءَ مِنَّا).
  فجالوا في الدار فأصابوا الفخِذَ، فقال: (لا تثريبَ علـيكم اليـومَ يغفـرُ اللهُ لكم وهو أرحمُ الراحمين)][1].
- [حدَّثَ الأَصمَعيُّ عن يونُسَ قال: صِرتُ إلى حيٍّ بني يربوع، فلـم أَجِـد إلا النِّساءَ، فأَضَرَّ بي الجوعُ، فصِرتُ إليهِنَّ وقلتُ: هل لكنَّ في صلاة؟ قُلنَ: أَيمُ اللهِ، إنَّ لنا فيها أَهلاً، فأَذَّنتُ وأَقَمتُ وكَبَّرتُ وقَرَأتُ: (الحمـدُ

---

(١) البيان (٢/٤٧٧).

للهِ رَبِّ العالمين) ثُمَّ قلتُ: يا أيُّها الـذين آمنـوا إذا نـزلَ بكـم الضـيفُ فلتقُم ربَّةُ البيت فتملأ قعباً ثريداً وقعباً تمـراً، فـإنَّ ذلـك خـيرٌ وأعظـمُ أَجرًا.

قال: فوَالله ما انقَلَبتُ من صلاتي إلا وصِـحافُ القَّـوم حَـولي، فأَكلْـتُ حتَّى امتلأتُ.

ثمَّ جاءَ رجالُ الحيِّ فسمِعتُ امـرأةً وهـي تقـولُ لزوجِهـا: يـا فُـلانُ، مـا سَمِعتُ قُرآناً أَحسَنَ مِن قُرآنٍ قَرَأَهُ اليومَ ضَيفُنا! فقالَ لها زوجُها: تبارَكَ ربُّنا، إنَّهُ ليأمُرُنا بمكارِمِ الأَخلاقِ][1].

- [قرأَ رَجُلٌ بحضرَةِ "الصَّاحِبِ" والعاديات، بأَقبَحِ قِراءَةٍ، فَتَناوَمَ الصاحِبُ تَبَرُّماً به، فَضَرَطَ القارئُ ضَـرطَةً ففَـتَحَ الصـاحِبُ عَينَيـهِ وقـال: نَـوَّمتَني بالعاديات، وأَيقَظتَني بالمرسَلات]!![2]

- [سَمِعَ (مَزْبَد) رَجُلاً يقولُ لآخَرَ: إذا استقبَلَكَ الكلـبُ بالليـلِ فـاقرأ في وجهِهِ ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾[الرحمن:٣٣] قال مزبَدُ: الوَجهُ عِنـدي أَن يكونَ معَكَ عَصا أو حَجَرٌ، فليس كلُّ كلبٍ يَحفَظُ القُرآنَ]!![3]

---

(١) التذكرة الحمدونية (٤١٩/٧).

(٢) محاضرات الأدباء (٤١/١).

(٣) التذكرة الحمدونية (٤٣٨/٩).

- [سُئل رجُلٌ: هل الحسَنُ أفضَلُ أم الحُسَين؟

فقال: الحسَنُ، لأنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١] ولم يقُل حُسينة] !! [١]

- [صلَّى أعرابيٌّ خلفَ إمامٍ فَقَرأَ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح:١] ثُمَّ وقَفَ وجَعَلَ يُرَدِّدُها.

فقال الأَعرابيُّ: أَرسِلْ غَيرَهُ يَرحَمُكَ اللهُ، وأَرِحنا وأَرِح نفسَك]. [٢]

- [ضرَبَ الحَجَّاجُ أَعرابياً سَبعمائةَ سَوطٍ، وهو يقولُ عندَ كُلِّ سَوط: (شكراً لك يا ربُّ)، فلقيه (أشعَبُ) فقال: أتدري لِمَ ضَرَبَكَ الحَجَّاجُ سَبعمائَةَ سَوطٍ ؟ قال: ما أَدري !

قال: لكَثرَةِ شُكرِكَ، فاللهُ تعالى يقولُ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]، فقال:

يا ربُّ لا شكرَ فلا تَزدني ... أَسأتُ في شُكرِكَ فاعفُ عَنِّي ... باعِد ثَوابَ الشاكرينَ مِنِّي][٣].

- أَتَت جاريةٌ أبا ضَمضَمَ، فقالت: إنَّ هذا قَبَّلَني ! فقال: قبِّليه، فإنَّ اللهَ يقول:

---

(١) محاضرات الأدباء (٤٨٢/٤).

(٢) المستطرف (٢٣٦/٢).

(٣) العقد الفريد (١٢٢/٨).

(والجُروحُ قِصاصٌ)[1].

■ [حدَّثَنا أبو الحَسَن المدايني، قالَ بعضُ العُلماء: كان لنا صديقٌ من أهلِ البَصرَةِ، وكانَ طريفاً أديباً، فوعَدَنا أن يدعونا إلى منزلِه، فكان يمُرُّ بنا، فكلَّما رأيناهُ قُلنا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟!، فيسكُت، إلى أن اجتمَعَ ما يُريدُ، فمَرَّ بنا فأعدنا عليه القولَ، فقال: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾][2].

■ [اجتَمَعَ جماعَةٌ على عَصيدَةٍ[3]، فأَخَذَ بعضُهُم لُقمَةً وألقاها في السَّمنِ وقال: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾، وجرَّ السَّمنَ إليه.

وقال الآخَرُ: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ وجرَّ السَّمنَ إليه.

وقال الآخَرُ: ﴿أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ وجرَّ السَّمنَ إليه.

فقال الآخَرُ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وجرَّ السَّمنَ إليه.

فقال الآخَرُ: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ وجرَّ السَّمنَ إليه.

فقال الآخَرُ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ وخلَطَ السَّمنَ بما

---

(١) محاضرات الأدباء (١٣٤/٨).

(٢) الأذكياء: ص١١٤، ط دار الكتاب العربي.

(٣) يبدو من العديد من الأمثلة أن القريحة الهزلية تتفتَّق على المائدة، كما تتفتق شهوة المعدة لرائحة الطعام .

بقي من العَصيدَةِ فأَخَذَهُ كُلَّه][1]!!

هل رأيتَ يا رَعاكَ اللهُ كيفَ يكونُ الأَدَبُ؟!

بل هل رأيتَ كيفَ تكونُ الزَّندَقَةُ والفُحشُ وسُقوطُ الحياءِ وقلَّةُ الأَدَب !!

علماً بأَنِّي قُمتُ بحَذفِ بَعضِ الشواهِدِ لشِدَّةِ ما فيها مِن فُحشٍ وقُبحٍ لم أَسمَح لنفسي بنَشرِه، فإنَّا للهِ وإنا إليه راجعون.

ورَحِمَ اللهُ الإمامَ القُرطبيَّ، وقد عَلَّقَ على ما قاله بعضُهم مِن جواز المسأَلَةِ والإلحاح فيها استدلالاً بما كان في قِصَّةِ موسى عليه الصلاةُ والسلامُ مع الخَضِرِ، قال مُعنِّفاً القائِل:

[وهذا لَعِبٌ بِالدِّين، وانسِلالٌ عن احترام النبيِّين، وهيَ شَنشَنَةٌ أدَبيَّةٌ، وهَفوَةٌ سخافيَّةٌ، ويَرحَمُ اللهُ السَّلَفَ الصالحَ، فلقَد بالَغُوا في وصيَّةِ كُلِّ ذي عَقلٍ راجِحٍ، فقالوا: مَهما كنتَ لاعِبًا بشيءٍ فإياكَ أن تلعَبَ بدِينِك][2].

---

(١) الأذكياء: ص٨٦.

(٢) أحكام القُرآن للقرطبي (١١/٢٥).

تعظيم الرسول وتوقيره
بل جميع رسل الله تعالى من لوازم الإيمان

قال القاضي عياض ():

[فصلٌ: في تعظيم أَمرِهِ وَوجوبِ توقيره وبرِّه:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٤٥]

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١]

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات:٢- ٣]

وقال جلَّ في علاه:

﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ﴾ [النور:٦٣].

قالَ الإمامُ ابنُ تيميَةَ ():

[أمَّا انتِهاكُ عِرض[1] الرسول ﷺ، فإنَّهُ مُنافٍ لدينِ الله بالكُلِّيَّةِ، فإنَّ

---

(١) العِرض: ما يُمدَحُ ويُذَمُّ من الإنسان، سواء كان في نفسه أو سلَفه، أو من يلزمه أمرُه. كما ورد في "المعجم الوسيط" (٢/ ٥٩٤).

العِرضَ إذا انتُهِكَ سَقَطَ الاحترامُ والتعظيمُ، فسَقَطَ ما جاءَ به من الرسالة، فبَطَلَ الدِّينُ، فقيامُ المِدحَةِ والثناءِ عليه، والتعظيمُ والتوقيرُ له، قيامُ الدين كلِّه، وسقوطُ ذلك سقوطُ الدين كلِّه][1].

وقال في وجوب توقيره وإجلاله:

[إنَّ اللهَ أمَرَ بتَعزيره وتوقيره، فقال: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح:٩]

والتعزيرُ: اسمٌ جامِعٌ لِنَصرِهِ وتأييدِهِ ومَنعِهِ من كُلِّ ما يؤذيه.

والتوقيرُ: اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ ما فيه سَكينَةٌ وطُمَأنينَةٌ من الإجلال والإكرام وأن يعامَلَ من التشريفِ والتكريم والتعظيم بما يصونَهُ عن كلِّ ما يُخرِجُهُ عن حَدِّ الوَقار.

ومن ذلك: أنَّهُ خَصَّهُ في المخاطَبَةِ بما يَليقُ به، فقال:

﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور:٦٣]، فنهى أن يقولوا: يا محمَّدُ، أو يا أحمَدُ، أو يا أبا القاسم، ولكن يقولوا: يا رسولَ الله، يا نبيَّ الله، وكيف لا يُخاطبونَهُ بذلك واللهُ سبحانهُ وتعالى أكرَمَهُ في مخاطبته إيَّاهُ بما لم يُكرِم به أَحَدًا من الأنبياء فلم يَدعُهُ باسمه في القُرآن قط.

(١) الصارم المسلول (٩٣/١)، انظر رحمك الله هذا الكلام الجليِّ البَهيِّ في حقِّه عليه الصلاة والسلام من هذا الإمام الكبير المفترى عليه من شانئيه بأنه لا يُقدِّرُ النبيَّ ﷺ حقَّ قدره، وذلك بسبب تصدِّيه للغالين !!

ومن ذلك: أنَّه حَرَّمَ التقدُّمَ بين يديه بـالكلام حتَّـى يـأذَنَ، وحَـرَّمَ رفـعَ الصوت فوقَ صوتِه، وأن يُجهَرَ له بالكلام كما يجهَرُ الرجُلُ للرجل.

ومن ذلك: أنَّ اللهَ رَفَعَ له ذكرَهُ، فلا يُـذكَرُ اللهُ سـبحانه إلا ذُكِـرَ معـه، وأَوجَبَ ذكرَه في الشهادتين اللتين هما أسـاسُ الإسـلام، وفي الأَذانِ الـذي هو شِعارُ الإسلام، وفي الصلاة التي هي عِمادُ الدين][1].

قال الإمامُ محمَّدُ الأمينُ الشنقيطيُّ ꙮ:

[اعلم أنَّ عدمَ احترام النبيِّ ﷺ المُشـعِر بـالغَضِّ منـه أو تنقيصِـهِ ﷺ والاستخفافِ به أو الاستهزاءِ به رِدَّةٌ عن الإسلام، وكفرٌ بالله][2].

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب] والأذى أخفُّ الضَّـرَر، ويَـدُلُّ عليـه قولُهُ تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾

فالعبدُ لا يملِكُ أن يضُرَّ اللهَ تعالى، ومع ذلك فقـد يقَـعُ منـه مـا يؤذيـه سبحانه، وقد جاءَ ذلك في الحديثِ القُدُسيِّ: (يؤذيني ابنُ آدمَ يسُـبُّ الـدَّهرَ وأنا الدهرُ بيدي الأَمرُ أقَلِّبُ الليلَ والنهارَ)[3].

والآيةُ الكريمةُ تنصُّ على أنَّ مؤذيَ اللهِ ورسولِهِ ملعونٌ مطرودٌ من رحمةِ

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول (٥/ ١٢٧-١٢٦).

(٢) تفسير (أضواء البيان) عند تفسير قوله تعالى :{ يا أيها الذين آمنوا لا تقدِّموا بين يدي اله ورسوله}.

(٣) رواه البخاري: ٤٨٢٦ ، و مسلم : ٢٢٤٦ بدون قوله : (بيدي الأمر).

ربِّه، وهو مَن يقَعُ منه أدنى الضَّرَر، فكيفَ بما هو فوقَ ذلك؟!

ومما يقدَحُ في مَقام الرُّسُلِ عليهم الصلاةُ السلامُ، ويُنقِصُ مكانَتَهم التي رفَعَها اللهُ تعالى، ما يفعَلُهُ بعضُهُم في مَزحِهِ عندَ الطعام، حينَما يقولُ لجُلَسائه على المائدَةِ، مَن يَقُصُّ علينا قِصَّةَ يوسُفَ؟! ويريدُ بذلك إشغالَ المُتَحَدِّثِ عن تناولِ الطعام، ليَستأثِرَ الباقون بالطعام دونَهُ، باعتبار أنَّ قِصَّةَ يوسفَ عليه السلامُ طويلةٌ وفيها الكثيرُ من التفاصيل !

وأقبحُ من ذلك ما يَروونه عن أَحَدِ الحُذَّاق، أنَّهم قالوا له ذلك ذاتَ يوم، ففَطِنَ لمُرادِهم، فقال لهم: صبيٌّ فقَدَه أهلُه ثمَّ وجَدوه !!

هكذا يتطاوَلُ "الصالحون" على أَحَدِ أنبياءِ الله عليهم السلام، في أحاديثِ الفُكاهَة والتسليةِ، وهذا النبيُّ هو الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريم، عليهم الصلاة والتسليم.

صور من تعظيم الصحابة للرسول ﷺ

قال الإمامُ علي القاري ():

[عن ابن شِماسَةَ المهريِّ، قال: حضَرنا عمرو بن العاص ... فذكَرَ حديثاً طويلاً فيه عن عمرو، قال: وما كان أحدٌ أحَبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ، ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنتُ أُطيقُ أن أملأَ عينيَ منهُ إجلالاً له، ولو سُئِلتُ أن أصفَهُ ما أَطَقتُ، لأنِّي لم أكن أملأُ عيني منه].

وروى الترمذيُّ عن أنَسٍ ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يخرُجُ على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوسٌ، فيهم أبو بكر وعمَرُ، فلا يرفَعُ أحدٌ منهم إليه بصرَهُ إلا أبو بكرٍ وعمَرُ، فإنَّهما كانا ينظرانِ إليه وينظرُ إليهما، ويتبسمان إليه ويتبَسَّم إليهما.

وروى أسامةُ بن شَريكٍ، قال: أَتيتُ النبيَّ ﷺ وأصحابُه حولَه كأنَّما على رؤوسهم الطير.

وفي حديثِ صِفَتِه: إذا تكلَّمَ أطرَقَ جُلَساؤهُ كأَنَّما على رؤوسِهم الطير.

وقال عروةُ بنُ مسعود ـ حينَ وَجَّهَتهُ قُرَيشٌ عامَ القَضيَّةِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، ورأى من تعظيمِ أَصحابه له ما رأى، وأنَّهُ لا يتوضأُ إلا ابتَدَروا وَضوءَهُ، وكادوا يقتَتِلونَ عليه، ولا يبصُقُ بُصاقاً، ولا يتنَخَّمُ نُخامَةً إلا تلقَّوها بأَكُفِّهِم فدَلكوا بها وجوهَهُم وأَجسادَهُم، ولا تسقُطُ منه شَعرَةٌ إلا ابتَدَروها،

وإذا أمرَهم بأمرٍ ابتدروا أَمـرَه، وإذا تكَلَّـمَ خَفَضـوا أصـواتَهم عنـده، ومـا يُحِدُّون إليه النظرَ تعظيماً له.

فلمَّا رجَعَ إلى قُريشٍ قال: يا معشَرَ قريش، إنِّي جئتُ كِسرى في مُلكـه، وقيصَرَ في مُلكه والنَّجاشيَّ في مُلكه، وإنِّي واللهِ ما رأَيتُ مَلِكاً في قَـومٍ قـطُّ مثلَ محمَّدٍ في أَصحابه.

وفي رواية: إن رأيتُ مَلِكاً قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصحابُهُ ما يُعَظِّمُ محمَّدًا أصحابُهُ، وقد رأيتُ قوماً لا يُسلِمونَهُ أَبَدًا][1].

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٣٨-٣٩).

في تعظيم النبي ﷺ بعد موته

قال إبراهيمُ التجيبيُّ ﷺ:

[واجبٌ على كلِّ مؤمنٍ متى ذكرَه، أو ذُكِرَ عندَه ـ أن يخضعَ ويخشع، ويتوقَّر ويسكن من حركته، ويأخذ في هيبته وإجلاله بما كان يأخذُ به نفسَه لو كان بين يديه، ويتأدَّب بما أدَّبَنا اللهُ به.

ولقد كان عبدُ الرَّحمن بن القاسم يذكُرُ النبيَّ ﷺ فيُنظَرُ إلى لونه كأنَّه نزَفَ منه الدَّمُ، وقد جَفَّ لسانُه في فمِه هيبةً لرسول الله ﷺ.

ولقد كنتُ آتي عامرَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَير فإذا ذُكِرَ عندَهُ النَّبيُّ ﷺ بكى حتَّى لا يَبقى في عَينيه دُموع.

ولقد رأَيتُ الزُهريَّ ـ وكان من أَهنأ الناس وأَقرَبهِم، فإذا ذُكِرَ عندَهُ النبيُّ ﷺ فكأنَّهُ ما عَرَفَكَ ولا عَرَفتَه.

ولقد كنتُ آتي صَفوانَ بنَ سليم، وكان من المتعَبِّدين المجتهدين، فإذا ذَكَرَ النبيَّ ﷺ بكى، فلا يزالُ يبكي حتَّى يقومَ الناسُ عنه ويتركوه][1].

(١) " الشفا بتعريف حقوق المصطفى" (٤٦/٢).

حال المحدِّثين عند رواية الحديث

قال عبدُ اللهِ بنُ المباركِ ω:

[كنتُ عندَ مالكٍ وهو يُحَدِّثُنا حديثَ رسولِ اللهِ فلدَغَته عَقرَبٌ سِتَّ عشرَةَ مرَّةً، ومالكٌ يتغيَّرُ لونُهُ ويَصفَرُّ، ولا يقطَعُ حديثَ رسولِ الله، فلمَّا فرَغَ من المجلِس وتفرَّقَ الناسُ، قلتُ: يا أبا عبد الله، لقد رأيتُ منكَ عجَبًا!

فقال: نعم إنَّما صبَرتُ إجلالاً لحديثِ رسولِ الله ﷺ.

وقال مصعَبُ بنُ عبدِ الله: كان مالكٌ إذا ذَكَرَ النبيَّ ﷺ يتغَيَّرُ لونُهُ، وينحَني حتَّى يصعُبُ ذلك على جُلَسائه، فقيلَ لهُ يوماً في ذلك، فقالَ لو رأيتُم ما رأيتُ لما أَنكرتُم عليَّ ما تَرَون، ولقد كنتُ أَرَى محمَّدَ بنَ المنكَدِر، وكانَ سيِّدَ القُرَّاءَ لا نكادُ نسأَلُهُ عن حديثٍ أبَدًا إلا يَبكي حتَّى نَرحَمَه.

ولقد كنتُ أَرَى جعفَرَ بنَ محمَّدٍ الصادق، وكان كثيرَ الدُّعابَةِ والتَّبَسُّمِ، فإذا ذُكِرَ عندَهُ النبيُّ ﷺ اصفَرَّ، وما رأيتُهُ يُحَدِّثُ عن رسولِ اللهِ ﷺ إلا على طَهارَة!

وقد اختَلَفتُ إليه زماناً فما كنتُ أراهُ إلا على ثلاثِ خِصال: إمَّا مُصَلِّياً، وإمَّا صامِتاً، و إمَّا يَقرأُ القُرآن، ولا يتكلَّمُ فيما لا يعنيه، وكان من العُلماءِ والعُبَّادِ الذين يخشَونَ اللهَ عزَّ وَجَلَّ.

عن عَمرو بنِ مَيمون، قال: اختلفتُ إلى ابنِ مسعودٍ سَنَةً، فما سمعتُهُ يقولُ: قالَ رسولَ اللهِ ﷺ، إلا أنَّهُ حدَّثَ يوماً فجرَى على لسانه: قالَ رسولُ الله ﷺ، ثمَّ عَلاهُ كَربٌ، حتَّى رأيتُ العَرَقَ يتَحَدَّرُ عن جبهَتِهُ، ثمَّ قال: هكذا إن شاءَ اللهُ، أو فوقَ ذا، أو ما دون ذا، أو ما هو قريبٌ من ذا.

وفي رواية: فَتَرَبَّدَ وجهُهُ، وفي رواية: وقد تغَرغَرَت عيناهُ، وانتَفَخَت أوداجُه.

وقال مالكٌ: جاءَ رجلٌ إلى ابنِ المسَيِّب، فسألَهُ عن حديثٍ وهو مضطَجِعٌ، فجَلَسَ وحدَّثَهُ، فقال له الرجُلُ: ودِدتُ أنَّكَ لم تتَعَنَّ، فقال: إنِّي كرِهتُ أن أُحَدِّثَكَ عن رسولِ اللهِﷺ وأنا مُضطَجِعٌ.

قال مَطرَف: كان إذا أتى الناسُ مالِكاً خرَجَت إليهم الجاريةُ فتقولُ لهم: يقولُ لكم الشيخُ: تريدون الحديثَ أو المسائِلَ؟ فإن قالوا المسائل خرَجَ إليهم، وإن قالوا الحديث دخلَ مُغتَسَلَه، واغتَسَلَ وتَطَيَّبَ، ولَبسَ ثياباً جُدُدًا، ولبس ساجَهُ وتعَمَّمَ، ووضَعَ على رأسِهِ رداء، وتُلقى له مِنَصَّةٌ، فيخرُجُ فيجلِسُ عليها، وعليه الخشوعُ، ولا يزالُ يُبَخَّرُ بالعود حتَّى يفرَغَ من حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ.

قالَ غيرُه: ولم يكن يجلِسُ على تلك المِنَصَّةِ إلا إذا حَدَّثَ عن رسول اللهِﷺ. قال ابنُ أَبي أُوَيس: فقيلَ لمالكٍ في ذلك، فقال: أُحِبُّ أن أُعَظِّمَ حَديثَ رسولِ اللهِ ﷺ، ولا أُحَدِّثَ به إلا عن طهارَةٍ مُتَمَكِّنًا.

قال: وكان يكرَهُ أن يُحَدِّثَ في الطريق، أو وهو قائِمٌ، أو مُستَعجِلٌ.

وقال: أُحِبُّ أن أَفهَمَ حديثَ رسولِ اللهِ ﷺ.

قالَ ضَرارَةُ بنُ مُرَّةَ: كانوا يكرهون أن يُحَدِّثوا بحديثٍ على غيرِ وضوء. وكان الأعمَشُ إذا حدَّثَ وهو على غيرِ وضوءٍ تيمَّم.

وكان قَتادَةُ لا يُحَدِّثُ إلا على طَهارة، ولا يقرَأُ حديثَ النَّبيِّ ﷺ إلا على وضوء.

ولما كثُرَ على مالكٍ الناسُ قيل له: لو جعَلتَ مُستمليًا يُسمِعُهُم؟ فقال: قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات:٢] وحُرمَتُهُ حَيًّا وميتًا سَواء.

وكانَ ابنُ سيرينَ ربَّما يضحَكُ، فإذا ذُكِرَ عندَهُ حديثُ النبيِّ ﷺ خشَعَ.

وكانَ عبدُ الرَّحمن بنُ مَهديٍّ إذا قَرأَ حديثَ النبيِّ ﷺ أمَرَهم بالسكوت، وقال: لا ترفَعوا أصواتَكم فوقَ صَوتِ النبيِّ، ويتأوَّلُ أنَّه يجبُ له من الإنصاتِ عندَ قِراءَةِ حَديثِه ما يجبُ له عندَ سَماعِ قولِه] (١).

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٤٣ ـ ٤٦).

صورٌ من السخرية
من الحديث النبوي الشريف ومن السنة عموماً

ولحديثِ النبيِّ ﷺ مِن هَزَلِ القَومِ نَصيبٌ، كما هو الحالُ مع القُرآنِ الكريم، فلم تسلَم السنَّةُ المُطَهَّرةُ من تلاعُبهِم كذلك، فلم يُقيموا لها ولا لصاحبها ﷺ الوزنَ الذي تستَحِقُّ.

- قيلَ لأَحَدِ الدُّعاةِ الكِبار: هذا الحديثُ الذي رويتَهُ في مُحاضَرَتِكَ ضَعيفٌ ! فأُحرِجَ من ذلك فَضَحِك، ثمَّ قال: هَلاَّ أطعمتَهُ شَعيراً؟!!

ويقولون عن روايةٍ مكذوبَةٍ: حَديثٌ موضوعٌ رواهُ مَفجوعٌ !!

- ركِبَ المشايخُ في الحافِلَةِ الصغيرةِ فاكتَظَّت بهم لأَنَّ عدَدَهُم كان كبيرًا، فقالَ أَحَدُهم: أَطَّت الحافِلَةُ وَحُقَّ لها أن تَئِطَّ !!
- دخَلَ الوَلَدُ على أبيهِ في المسجدِ وهو جالِسٌ بينَ المصَلِّين بعدَ انقِضاءِ الصَّلاةِ صارخاً: أبتاهُ أمِّي تُريدُك، فاستأذَنَ الرجُلُ وقامَ مُسرِعاً مع وَلَدِه.

قالَ إمامُ المسجد:

يا إخوان.. "سَلوا لأَخيكُم التَّثبيتَ فإنَّهُ الآنَ يُسأَلُ" !!

○ أَخَذَ شَيئًا من مَتاعِ أَخيهِ وأَدخَلَهُ في بيتِهِ مُمازِحـاً لـه، فَعَلِـمَ صـاحِبُهُ وطالَبَهُ بردِّه، فقالَ الآخِذُ: لا تَخشَ عليه" فمَن دخَلَ دارَ أَبي سُفيانَ فهوَ آمِنٌ"!!

قال إدريس بن بيديكين ω:

[فلا يحلُّ لمسلمٍ أن يمزَحَ بشيءٍ مـن كتـاب الله تعـالى، ولا بشـيءٍ مـن حديثِ رَسولِ اللهِ ﷺ، كقولِ بعضِ مَن خَذَلَهُ اللهُ في مَزحِهِ بالحديث:

أنَّ مَغربيًا رَمَدَت عينُهُ فتَذَكَّرَ الحديثَ المرويَّ:(**شِفاءُ أُمتي في ثلاثٍ: آيةٍ من كتابِ اللهِ، أو لَعقَةٍ مِن عَسَلٍ، أو مِشرَطٍ من حَجَّام**) فقَـرَأَ المغربـيُّ آيةً فلَم تَبرَأ عينُهُ، ولَعِقَ العَسَلَ فلم يَصِحَّ، فَشَرَطَها فوَرَمَـت! فعنـدَ ذلـك قال: يا حَبيبي يا رسولَ اللهِ، إذا لم تكُن تَعرِف الطِّبَّ فلِمَ تتكلَّمُ فيه؟!

فانظُر إلى هؤلاءِ المفتونين كيف يرمون نبيَّهُم بالجهلِ حـينَ يمزَحـون][1]. ويقصِدُ بهذا الذينَ يتناقَلونَ مِثلَ هذه الحِكاياتِ في مجالِسِهم.

---

(١) اللمع في الحوادث والبدع (١٧٨/١).

السخرية بالمؤمنين لأجل إيمانهم وخاصة أهل العلم منهم

والاستهزاءُ بالعُلماءِ له حالتان:

الأولى: أن يكونَ قصدُ المُستهزئِ بالعالِمِ عِلمَهُ وفقهَهُ ودينَهُ، فهذا كفرٌ لا مِريَةَ فيه.

قال الشيخُ عليٌّ القاريω:

[لأنَّه إذا أبغَضَ العالمَ من غير سبَبٍ دُنيويٍّ أو أخرَويٍّ، فيكون بغضُه لعلمِ الشريعة، فلا شكَّ في كُفرِ مَن أنكرَهُ فضلاً عمَّن أبغَضَه][1].

وقال أيضاً:

[ونقَلَ الأُستاذُ نجمُ الدينِ الكندَريُّ بسمَرقَند: من تشبَّهَ بالعالِم على وَجهِ السُّخريَةِ، وأخَذَ الخشَبَةَ ويضربُ الصبيانَ، كَفَرَ، يعني لأَنَّ مُعلِّمَ القُرآنَ مِن جُملَةِ عُلماءِ الشريعَةِ، فالاستهزاءُ به ويعلمِه يكونُ كُفرًا][2].

---

(١) شرح ألفاظ الكفر ص ٥٥.

(٢) شرح ألفاظ الكفر ص (٥٧ ـ ٥٨).

وجاءَ عن الإمام بدرِ الرَّشيدω:

[ومنها : لو رأى الغُزاةَ الذينَ يخرُجون للغَزو، وقال: هؤلاءِ أَكَلَةُ الأَرُزِّ، فقد قيلَ : يُخشى عليه الكفرُ، يعني ؛ إن أرادَ به مجرَّدَ إهانَتِهم من جِهَةِ طاعَتِهم كَفَرَ، وأمَّا إن قالَ ذلك نَظَرًا إلى عدَمِ تصحيحِ نيَّتِهم وتحسينِ طَويَّتِهم، فلا يكونُ كُفرًا][1].

ونظيرُ ذلك في زماننا ما نسمَعُهُ من الطَّعنِ الصريحِ بأهلِ الحِسبَة، من هيئةِ الأَمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنكَر، والسُّخريَةِ منهم بإطلاقِ الأَلقابِ الهَزليةِ عليهم، كقولِ بعضِهم : (جاءَ أعضاءُ شَرِكةِ صَلُّوا)!!

قال العلاَّمَةُ محمَّدُ بنُ إبراهيمَ ω:

[الذين شأنُهم الاستهزاءُ بأهلِ الدين، هذا قد يصِلُ إلى الكفرِ، الذي يكونُ دَيدَنُه، لا يسمَعُ بأحَدٍ من أهلِ الخَيرِ إلا وتكَلَّمَ فيهم[2]، فهذا لا يكادُ يصدُرُ إلا من مُنافِقٍ، ولهذا أشارَ الوالدُ الشيخُ عبدُ الرحمن بنُ حسن في حاشيته على التوحيد، أنَّه يخشى عليه أن يكون بذلك مُرتَداً، أمَّا كونُه وقَعَ في أمرٍ عظيمٍ ووقَعَ في نفاقٍ بارز، فهذا واضِحٌ، وليس المُرادُ مَن يكونُ بينَه وبينَهُم شَحناءُ دونَ بقيَّةِ أهلِ الخَير، وهو من الأمور المُحرَّمة][3].

---

(١) شرح بدر الرشيد (٣٥ـ ٣٦).

(٢) كقول كثير من هؤلاء: "أنا أكرهُ الشيوخ " !! هكذا بإطلاق، أي : إنَّ الألف واللام للجنس لا للعهد !!

(٣) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم (١/١٧٥ ـ ١٧٦).

وما أجملَ ما قاله الإمامُ عبدُ الله بنُ المبارَك ω:

[حُـقَّ علـى العاقِـلِ أن لا يَسـتَخِفَّ بثلاثـةٍ ؛ العُلمـاء، والسـلاطين، والإخـوان، فـإنَّ مَـن اسـتَخَفَّ بالعُلمـاءِ ذَهَبَـتْ آخِرَتُـه، ومـن اسـتخَفَّ بالسُلطان ذهبتْ دنياه، ومن استخَفَّ بالإخوان ذهَبَتْ مُروءَتُه][1].

(١) "سير أعلام النبلاء" للذهبي (٢٥١/١٧).

الواجبُ على سَامِعِ الاستهزاء

إنَّ الشريعَةَ لم تَدَع هذه المسألَةَ دون بَيان، بل جاءَت النصوصُ العَديدةُ في بيان ما يجبُ على من يحضَرُ مَجلِساً يقَعُ فيه الاستهزاءُ، من القول والفعل والاعتقاد !

أولاً: الإنكارُ باللسان:

وقد صحَّ في السنَّة قولُه عليه الصلاةُ والسلامُ فيمَن شَهِدَ مُنكراً:

(مَن رأى منكم مُنكَراً فليُغيِّرْهُ بيدِه، فإن لم يستَطِع فبلسانِه، فإن لم يستَطِع فبقَلبه وذلك أَضعَفُ الإيمان)[1].

ولا شكَّ أنَّ هذا الحديثَ يشمَلُ جميعَ المنكَراتِ بلا استثناءٍ، وأَنَّ الاستهزاءَ بالدين من أعظَم المنكرات، فمن جلَسَ مَجلساً سَمِعَ فيه تعريضاً بالدين، وهزلاً بالمُقَدَّسات، واستِهزاءً بالآيات، فالواجبُ الأَوَّلُ في حَقِّه هو الإنكارُ باللسان، بحسب القُدرة والإمكان، وَفقَ القواعدِ الشرعية في إنكار المنكر، وإن عَلِمَ فيهم خَيرًا وصلاحًا فواجِبُ اللسان هنا الوعظُ والنُصحُ والتذكيرُ بخطورَةِ هذا الجُرم، وأَنَّهُ من نواقِضِ الإيمان.

---

(١) رواه مسلم(١/٥٠).

ثانياً: الإعراضُ عنهُم وتركُ مُجالسَتِهم :

وقد ورَدَت نصوصٌ خاصَّة في مجالس الاستهزاءِ بالدين والخَوضِ في آياتِ اللهِ بوجوبِ تَركِها واعتِزالها، وأَنَّ من لم يفعَل ذلك مع القُدرَةِ فهو منافِقٌ، وشريكٌ للخائِضينَ في باطِلِهم، وأَنَّهُ يستَحِقُّ العُقوبَةَ مِثلَهُم، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[النساء: ١٤٠]

قال الشيخُ حَمَدُ بنُ عَتيقٍ رحمه الله[١]:

[وفي أجوبَةِ آلِ الشَّيخِ رحمهم اللهُ تعالى، لَمَّا سُئلوا عن هذه الآية، وعن قوله ﷺ: (**مَن جامَعَ المشركَ أو سَكَنَ معَه فهو مِثلُه**)[٢]، قالوا: الجوابُ، إنَّ الآيةَ على ظاهرها، أنَّ الرجلَ إذا سَمِعَ آياتِ الله يُكفَرُ بها ويُستَهزأُ بها، فجلَسَ عند الكافرينَ المستهزئين بآياتِ الله، من غير إكراهٍ ولا إنكارٍ، ولا قيامٍ عنهُم، حتَّى يخوضوا في حديثٍ غيره، فهو كافرٌ مثلُهم وإن لم يفعل فعلَهم، لأنَّ ذلك يتضمَّنُ الرِّضا بالكفر، والرِّضا بالكُفر كفرٌ، وبهذهِ الآيَةِ ونحوِها استَدَلَّ العُلماءُ على أنَّ الرِّضا بالذَّنبِ كفِعلِهِ، فإن ادَّعَى أنَّهُ يكرَهُ

(١) من علماء نجد الكبار، ت ١٣٠١ هـ

(٢) رواه أبو داوود، والحاكم، وحسنه الألباني(السلسلة الصحيحة) برقم٢٣٣٠.

ذلك بقلبه، لم يُقبَلْ منهُ لأَنَّ الحُكمَ بالظاهِرِ، وهو قد أَظهَرَ الكفرَ، فيكونُ كافراً][1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام]

ثالثاً: البراءَةُ منهم وتركُ موالاتهم:

قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٧].

فالجلوسُ مع المُستَهزئينَ وعدَمُ النَّكيرِ عَليهم أو الإعراضِ عنهم يدُلُّ على الرِّضَى والقَبول بصَنيعِهِم، والانبساطِ لحَديثِهِم، ولو سَمِعَ المرءُ في مَجلِسٍ ما يَسوؤهُ فلا يُتصَوَّرُ منه مع العَجزِ إلا مُغادَرَةُ المكان، كحَدٍّ أدنى في الدِّلالَةِ على الرَّفضِ والكُره.

(١) سبيل النجاة والفِكاك: ص ٥٤ .

أمَّا إذا انبَسَطَ لذلك الخَوضِ وَظَهَرَ عليه أَثَرُهُ مِن الضَّحِكِ والتبَسُّم، فذلك هوَ المحظورُ الأَعظَمُ!

وقد تقدَّم معَنا قولُ أبي المعالي الحنفيِّ ۞:

[ومنها أنَّ مَن تكلَّمَ بكلمةٍ توجِبُ الكفرَ فضُحِكَ من ذلك، كفَرَ المُضحِكُ والضاحِكُ أيضًا، ولو تكَلَّمَ بها مُذكِّرٌ ـ أي واعِظٌ ـ وقَبِلَ منه القَومُ، كفَروا جميعًا](1).

وكذا قولُ ابنِ بيديكن المتقَدِّم:

[ومن البدَعِ القَوليَّةِ: مَزْحُ الإنسانِ بشيءٍ من كتابِ اللهِ تعالى ممَّا يكفُرُ فاعِلُهُ أو يُذَمُّ، أمَّا الذي يكفُرُ فاعلُهُ، كمَن يصعَدُ في مكانٍ مُرتَفِعٍ والناسُ تحتَهُ فيتشبَّهُ بالواعِظِ والخطيبِ، يتلو كلامَ الحبيبِ ثمَّ يأخُذُ في مَدِّ صَوتِهِ وهَزِّ رأسِهِ بقولِهِ: أَيُّها الناسُ، وهُم تحتَهُ يتَضاحَكونَ، كفَروا كُلُّهُم أَجمعون!!

وكذلك المُديرُ الذي يُصَلِّي تحتَ الواعِظِ على البشيرِ النَّذير، الكُلُّ قَد سَقَطوا مِن عَينِ الملِكِ القَدير، وتَجَهَّزوا بهذا الزادِ لجَهَنَّمَ وَبئسَ المصير].

---

(١) رسالة في ألفاظ الكفر، لأبي المعالي الحنفي. نقلاً عن "الجامع" في ألفاظ الكفر: ص٤٢٩

البواعِثُ على الاستهزاء

إنَّ أسبابَ وقوعِ الناس في هذا الفعل القَبيحِ مُتَعَدِّدَةٌ، وهيَ مِن حَيثُ الجُملَةُ، إمَّا دَوافِعُ نفسيَّةٌ، أو دَوافِعُ عَقَديَّةٌ، وأَهَمُّ تلكَ الدَّوافِعِ ما يلي :

○ **الكِبرُ :**

فالمتكبِّرُ ينُظرُ إلى الناسِ مِن عَلٍ، ويَرَى نفسَهُ فَوقَهُم، ولذا فهو مُستَخِفٌّ بهم، مُزدرٍ لهم، كما قالَ الصادقُ المصدوقُ ﷺ :

(الكبرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ الناسِ)[1].

لقد سَخِرَ فرعونُ الذي علا في الأرض، بنبيِّ اللهِ وكَليمِه، واستكبَرَ هو وجنودُهُ في الأرض بغيرِ الحَقِّ، فقالَ فيما حكاهُ عنهُ القُرآنُ: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾[الزخرف:٥٢] فسَخِرَ بخير أَهلِ الأَرضِ، برسولٍ مِن أُولي العَزْمِ، بسَبَبِ ما في نفسِهِ من العَظَمَةِ، والأَنَفَةِ عن اتِّباعِ غيره.

○ **العداوةُ الدينيَّةُ :**

وهذا من أَعظَمِ أَسبابِ كُفرِ قُرَيشٍ، فقَد حَكَى القُرآنُ عنهُم قولَهُم:

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

---

(١) رواه مسلم : ٩١.

يقولُ ابنُ تيميَةَ ⍵:

[فاستَهزأوا بالرسولِ ﷺ لما نَهاهُم عن الشركِ، ومازالَ المشركون يسبُّونَ الأَنبياءَ ويَصفونَهُم بالسفَاهَةِ والضَّلالِ والجنونِ، إذا دَعَوهُم إلى التَّوحيد، لما في أنفُسِهِم من عَظيم الشِّركِ، وهكذا تجدُ مَن فيه شَبَهٌ منهُم إذا رأَى مَن يَدعو إلى التوحيدِ استَهزَأَ بذلك، لما عِندَهُ مِن الشِّركِ][1].

○ **إثباتُ الذاتِ ولَفتُ الانتباه:**

وهذا الباعِثُ -في نَظَري- هوَ الأَهَمُّ في مَوضوعِ بَحثِنا، حيثُ نَتَناوَلُ مُشكِلَ الهَزلِ عندَ "الصالحين" وهُم أَهلُ المساجدِ، وحَفَظَةُ القُرآن، والدعاةُ إلى الله، فهم يحبُّون دينَهم ويحبُّونَ نبيَّهُم وكِتابَهُم، ولكنَّ الإيمانَ ليسَ مَبناهُ على المحبَّةِ فقَط، بل لا بُدَّ من التعظيم لِيَصحَّ الإيمانُ، وقد تقدَّمَ الحديثُ عن ذلك، وقد ذكرَ بعضُ الأئِمَّةِ أنَّ مَن عبَدَ الله بالحُبِّ فهو زنديق !![2].

فلم تنفِ المحبَّةُ للهِ عن أَهلِ الكِتابِ صِفَةَ الكُفرِ، فَهُم يَدَّعونَ مَحَبَّةَ اللهِ تعالى ! كما لم تَنفِ عن المُحِبِّينَ العاشِقينَ من غُلاةِ أَهلِ التَّصَوُّفِ صِفَةَ الزَّندَقَةِ، لأَنَّ خِطابَ المُحِبِّينَ مِن غَيرِ تَعظيمٍ خِطابٌ أَرْعَن، واسمَع إلى أَحَدِ الغُلاةِ المنتَسِبينَ لمدرسَةِ العِشقِ الإلهيِّ ! كيفَ يُخاطِبُ رَبَّه !

يقولُ أبو يزيدٍ البَسطاميُّ: "ما النارُ ؟! لأَستَنِدَنَّ إليها غَدًا، وأقول:

---

(١) "دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية" (٣٣٢/٣) جمع الدكتور محمد الجليند.

(٢) التحفة العراقية في الأعمال القلبية : ٦٧، ومعنى (بالحبِّ): أي يحبُّ الله وحده بلا تعظيم ولا إجلال ولا خشية .

اجعَلني فِداءً لأَهلِها وإلا بلَعتُها ...ما الجَنَّةُ ؟! لُعبَةُ صِبيانٍ، ومُرادُ أهلِ الدنيا، ما المُحَـدِّثون ؟! إن خـاطَبَهُم رَجُـلٌ عـن رَجُـلٍ، فقـد خاطَبَنـا القلـبُ عـن الربِّ"[1].

هَل رأيتُم سوءَ أَدَبٍ ووَقاحَةٍ في خِطابِ الربِّ كهذه؟! ومِمَّن؟ من أدعياءِ المَحَبَّةِ والعِشقِ!!

وهذا درسٌ لكلِّ مَن يَرى في نفسِه صلاحاً وعبادةً ومحبَّةً لله تعالى ودينه، أن يعتقدَ أنَّ ذلك يُبيحُ له التطـاولَ علـى اللهِ تعـالى ودينِـهِ وشَـرعِهِ بـالهَزلِ واللَّعِب ! بل عليه أن يَعلَمَ أنَّ واجِبَ التَّعظيمِ والإجلالِ لله تعـالى في حقِّـهِ أعظَمُ منه في حَقِّ غيره من العامَّةِ، قالَ تعالى :

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، ثمَّ لأَنَّهُ قُدوةٌ لهم ومتَّبَعٌ ، فإذا رأَوا منه هذا الاستِخفافَ واللَّعِـبَ بالـدين، فمـاذا تُـرى سيَصـنَعون هم؟!

إنَّ بعضَ الناسِ قـد يفعَـلُ العَجائِـبَ لِلَفْـتِ الانتبـاه، ولديـه شَـهوَةٌ نَفسانيةٌ عارِمَةٌ لإضحاكِ النـاسِ، ليسـتَحوذَ بـذلك علـى إعجـابهم وأَسْـرِ قلوبهم، ويُقالَ : فلانٌ خفيفُ الظِلِّ، وروحُهُ مَرِحَةٌ، ونَحـو ذلـك، فيجعـلَ من أولويَّاتِه إضحاكَ الآخَرين لاستِقطابهم واستِمالَةِ قلوبهم!

وقـد انـتَهَجَ بعـضُ العـاملين في حَقـلِ الـدعوةِ مـن الصـالحين هـذا

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٨٨).

الأسلوبَ الفُكاهيَّ، بِذرائِعَ عَديدةٍ، منها: جَذبُ العُصاةِ وتحبيبُهم في الدين، ومنها إعطاءُ انطِباعٍ تَصحيحيٍّ عن شخصيَّةِ المُلتزِمِ التي يُظهِرُها الأعداءُ بمَظهَرِ الانغِلاقِ وغِلظَةِ الطَبعِ، وإلى آخرِ ذلك من الذَّرائعِ الجاهزة، والحِيَلِ النفسيةِ البائسةِ، والتي أدَّتْ ببَعضِهِم إلى الإغراقِ في الهَزلِ وإضحاكِ الناس إلى درجةٍ صارَ فيها الداعيةُ أشبَهَ بالمُهَرِّجِ !! وصارَت مُحاضَرَةُ فُلانٍ الفُلانيِّ عبارةً عن مَسرَحيَّةٍ (كوميدية)، يأتي إليها مَن يأتي، لا بقصدِ العلم والفائِدَةِ، بل بقَصدِ المُتعَةِ والمَرَحِ والفُكاهَة !!

لقد اقترنَت هذه الصِّفَةُ ببعضِ هؤلاءِ الدُّعاةِ، حتَّى أَنَّه لم يعُد يستطيع أن يغيِّرَ من نَمَط إلقائِه إلى نوعٍ من الجدِّيةِ، حتَّى في المناسبات التي تتَطَلَّبُ قدرًا منها؛ لأَنَّه سيخسَرُ جمهورَهُ العَريضَ لو فَعَل، فالدعاةُ غيرُهُ كثيرٌ، وهو لا يتميَّزُ عنهم بعِلمٍ ولا مَعرِفَةٍ، فليكُن التميُّزُ إذن بالفُكاهَة، وبأيِّ ثَمَنٍ! حتَّى لو كانَ الثَّمَنُ هو المُجازَفَةَ في الوقوعِ بناقضٍ من نواقِضِ الإسلام، والتي لا يَعوزُهُ كثيرُ تَعريفٍ بها !!

إنَّ سَقَطاتِ هؤلاء لا تكادُ تخلو منها مُحاضرَةٌ، فتارَةً بذكر "نكتة" فيها مساسٌ بالدين، خُذ على سبيل المثال، مقطَعَ "الفيديو" المنتشِر في مُعظَم الهواتِفِ الجوَّالة لدى الشباب، من محاضرَةٍ للداعية الشيخ فُلانٍ الفلانيِّ، وهو يحكي طُرفَةً عن حادِثَةٍ وقَعَتْ لرجُلٍ "بنغاليٍّ" في زحامِ الحَجِّ، فأُغشيَ عليه ونُقِلَ إلى المَشفى، وأَنَّهُ فتَحَ عَينَيه بعدَ ذلك فَرأى كُلَّ شَيءٍ من حَولِهِ أَبيَضَ، فظَنَّ أَنَّهُ قَد ماتَ وهو الآنَ في الجنَّة !!

وبينما هو كذلك إذ دَخَلَ عليه بعضُ المُمَرِّضات، فظنَّهُنَّ الحورَ العينَ قد أقبَلْنَ عليه !!

فقال لهُنَّ: الزَمْنَ الدَّورَ، وتقدَّمْنَ واحدة واحدة !!!

وشيخ آخر من الدعاة يحكي للناس في المحاضرة قصَّةَ رجلٍ له أغنام، كان كلَّما صلى ركعتين ماتت شاة ! فشاهد شاةً هائجةً تقفزُ بين جماعتها فخاطبها قائلاً: هل ستسكنين أم أقوم أصلي ركعتين؟!

وتارةً بالمحاكاةِ الجسدية، وتغير نبرَةِ الصوتِ ومَلامِح الوَجهِ عند الحديث بطريقة المهرِّجين الساخِرَة، وقد كان آخرَ ما سمعتُ من أَحَدِ هؤلاء المشاهير، سؤالُه أحَدَ الشباب الحاضرين، ماذا لو رجَعَتَ إلى البيتِ بعدَ سماعِكَ لمحاضَرَةٍ إيمانيَّةٍ زادَ بها لديكَ منسوبُ الإيمانِ والتَّقوى حتَّى صارَ يخرجُ من أذنيك![1] فوجَدْتَ أخَواتكَ يجلِسنَ أمامَ الشاشَةِ يُتابعنَ مُسَلسَلاتٍ أَجنَبيَّةً فاضِحةً، ماذا كنتَ ستفعَل؟

قال أحدُهُم: أقولُ لهنَّ اتقينَ اللهَ، فهذا حَرامٌ ولا يجوز.

قال الشيخُ : هل تقولُ لهُنَّ ـ وراحَ يصرَخُ ويمدُّ صَوتَهُ ـ اتقوا اللهَ ! تَبًّا لكم يا قَوم ؟! اجلس لقد خرَّبتها .

وبعدَها ذكَرَ شابًا يقولُ لوالِدِه وهو يَضربُهُ بالعِقال" أَحَدُ أَحَد، أَحَدُ

---

(١) تأمَّلْ فيما قاله الإمامُ بدر الرشيد ۞:

[لو قال لعابد: مَهلاً أو اجلس حتَّى لا تتجاوز الجنَّةَ، أو تقَعَ وراءَ الجنَّة، أي بزيادة الطاعة والعبادة، كَفَرَ، أي : لاستهزائه]. ص٦٨

أَحَد" وهو يُحرِّكُ كَتِفَيهِ مَعَ الكلامِ، محاكياً ذلك الشابَّ، بطَريقَةٍ جَعَلَت الضَّحِكَ مُتواصِلاً لا يكادُ ينقَطِع !!!

فيا للغَفلة !

مَهلاً يا وَرَثَةَ الأَنبياءِ ! مَهلاً.. إنَّكُم أَئِمَةٌ يُقتَدى بكُم !!

هذه الكلِمَةُ قالها الفُضَيلُ بنُ عياض Ѡ لبعض أصحاب الحديث، وقد ضجِرَ منهم إذ رآهم يُكثِرون من الضَّحِكِ، ويحِبُّون الدَّعَةَ والمَرَح[1].

وهذه النصيحَةُ حَريٌّ بها أَن يسمَعَها أحدُ الدُّعاةِ المرموقين، ولهم حضورٌ بارزٌ في مجالِ الدعوةِ والتعليم، وفي الوقت نفسِهِ، لهُ سَقَطاتٌ كلاميَّةٌ مُنكَرَةٌ، وليس آخِرَها سقطتُهُ في "سورة التُّفَّاح"

هكذا قالَ بالحَرفِ مع ابتسامةٍ عَريضَةٍ بدَتْ لها نواجِذُه "هذه سورَةُ التُّفَّاح"!!

أمَّا الجمهور، وأظنُّهم كانوا بالأُلوف، فقد ضَجَّتْ القاعَةُ بقَهقَهَتِهم، وقالَ على الفَور "أستغفِرُ الله".

لماذا تستغفرُ أيُّها الداعيةُ المِقدام؟!

هل شعَرْتَ أنَّكَ اقتَرَفتَ ذَنباً بكلمتك تلك؟

أَكادُ أجزمُ بذلك، فأنتَ من أَعلَم الناس بعَظَمَةِ القُرآن، وحُرمَةِ آياتِهِ

---

(١) حلية الأولياء(٨/١٠٠)، السير(٨/٤٣٥).

وسوَره، وأنَّهُ كلامُ الله، وكلامُهُ صِفَةٌ من صِفاتِهِ، وصِفاتُهُ مُنَزَّهَةٌ عن العَبَثِ واللَّعِب بها، وقد دَرَستَ ودرَّستَ نواقضَ الإسلامِ العَشَرة، ومنها ناقض الاستهزاء بالدين !

ولعلكَ أدركتَ أنَّ تسميتَك لسورةٍ بهذا الاسم "التفاح" فيه هَزْلٌ ظاهرٌ، وامتِهانٌ مُنكَرٌ لِعَظَمةِ السوَر القُرآنيةِ الكريمةِ، ولعلَّك تذكَّرتَ قولَه تعالى:﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [الطارق:١٣-١٤] فقلتَ:"أستغفرُ الله" !!

إنَّه لا عُذرَ لك بأنَّ السياقَ كان في بابِ إظهارِ عظَمَةِ القُرآنِ، وأنَّ الأعاجِمَ يُدركون الفرقَ بين القُرآن وغيره وإن لم يفهَموا المعنى، وهذا من إعجاز القُرآن ! لأَنَّكَ أردتَ أن تُظهِرَ عظَمَةَ القُرآنِ نَظَريًا، فأَسقَطتَ هيبَتَهُ عندَ النَّاس عَمَليًا، بجَعلِكَ إيَّاهُ مادَّةً للهَزلِ والضَّحِكِ، فليتَكَ سَكَتَّ فنَجَوتَ، لا لك ولا عليك.

الجدِّيَّة وعلوُّ الهِمَّة...الداءُ والدواء!

أعتقدُ أنَّ واحدًا من أسبابِ هذه الآفَةِ هي ثقافَةُ المجتَمَعات المعاصِرَةِ عموماً على كثرَةَ المِزاح واللامُبالاة، وغيابُ الجِدِّيـةِ أو ضَعفُها في حياتِهم، فيكونُ نشرُ ثقافَةِ الجِدِّيَّة، وعلوِّ الهمَّة، وتربيَةُ أبناءِ الأُمَّةِ على معالي الأُمور، جُزءاً مُهِّماً من العِلاج الذي نَصبوا إليه، ولا يَعني هذا بحالٍ من الأَحوال الدَّعوَةَ إلى التشدُّدِ مع النفس، ومُخالَفَةِ الطَّبع، والغِلظَةِ والجَفاءِ مع الناس وعُبوس الوَجهِ، وتَقطيبِ الحاجبين !! فهذا طَرَفٌ مذمومٌ آخَرُ يُقابلُ الطرَفَ الأوَّلَ، وخيرُ الأمور أوسَطُها وأَعدَلُها، والحقُّ دائماً بين الإفراط والتفريط، واللهُ الموفِّق.

ما المقصودُ بالجِدِّية ؟ وما دَليلُها ؟

قال تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة:٦٣] وقالَ سُبحانه: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم:١٢] وقال جَلَّ جلالُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الأعراف:١٧٠]

وقال عليه الصلاةُ والسلامُ :

(لو تَعلمونَ ما أَعلَمُ لضَحِكتُم قَليلاً ولَبَكيتُم كثيراً)[1].

قال الإمامُ ابنُ حَجَر العَسقلانيُّ ω:

[المرادُ بالعِلم هنا ما يتعَلَّقُ بعَظَمَةِ اللهِ وانتقامِهِ ممَّن يَعصيه، والأَهـوالِ التي تقَعُ عندَ النَّزعِ والموتِ وفي القَبر ويومَ القيامة][2].

وقال عليه الصلاةُ والسلام:

(لا تُكثِروا الضَحِكَ، فإنَّ الضَحِكَ يُميتُ القلبَ)[3].

قال الإمامُ الحسَنُ البَصريُّ ω:

[حقيقٌ لمن كانَ الموتُ مَوعِدَه، والقَـبرُ مـورِدَه، والحِسـابُ مَشـهَدَه، أن يطولَ بُكاؤه وحُزنُه][4].

---

(١) رواه البخاري ١٠٤٤، ومسلم ٤٦٢

(٢) فتح الباري (٣١٩/١١).

(٣) رواه البخاري في "الأدب المفرد" وابنُ ماجة في "السنن" وجوَّده الألبانيُّ في " السلسلة الصحيحة " برقم: ٥٠٦

(٤) (الحدائق) لابن الجوزي (٢١٦/٣).

ورأى غُلاماً له ضاحكاً، فقال له:" يا غلامُ، أَجتَزْتَ الصراط ؟! قال: لا، قال: أنَزَلَ كتابٌ من السماءِ براءةً لك من النار؟! قال: لا، قال: ففيمَ الضَّحِك؟!"

وعن عائِشَةَ I قالَت: (ما رأَيتُ رَسولَ اللهِ ﷺ مُستَجمِعاً قَطُّ ضاحِكاً حتَّى تُرى لهواتُه[1]، إنما كان يتَبَسَّم)[2].

عن ابن عَبَّاس Γ قال:

(من أذنَبَ وهو يضحَكُ دَخَلَ النارَ وهو يَبكي)[3].

قال السَّريُّ السَقَطيُّ ω:

[ودِدتُ أنَّ حُزنَ الناسِ كلِّهم أُلقيَ عليَّ][4].

قد رشَّحوكَ لأَمرٍ لو فَطِنتَ له   فاربأ بنَفسِكَ أَن تَرعى معَ الهَمَلِ

---

(١) اللهوات: بفتح أوَّليه، جمع (لهاة) وهي اللحمة التي في أقصى الفَم.

(٢) رواه البخاري ٦٠٩٢، ومسلم ٨٩٩.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب (٥٧٨/٣)

(٤) حلية الأولياء (١١/١٠).

المِزاحُ والضَّحِك في ميزانِ الشرع

قد يظنُّ بعضُهُم مما تقَدَّم أنَّني أذهبُ إلى الانغلاق وسَدٍّ باب المزاح بإطلاق ! وليس الأمرُ كذلك، فالمزاح المنضبط بحدوده الشرعية والأدبية أمرٌ مُحَبَّذٌ وممدوح، يدلُّ على نفسٍ سويةٍ ومزاجٍ مُعتدلٍ، وطبعٍ مُنفتح...... وقد كان رسول الله ﷺ يمزح، وكان أصحابه يمزحون، وكذا الحال مع العديد من العلماء والصالحين ممن اتَّبعوهم بإحسان.

قال القرطبيُّ رحمه الله في تفسيره قوله سبحانه: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾[البقرة:٦٧]

[مسألة : في الآية دليلٌ على منع الاستهزاءِ بدين اللهِ ودين المسلمين ومَن يجبُ تعظيمُهُ وأنَّ ذلك جَهلٌ، وصاحبُهُ مُستَحِقٌّ للوعيد وليس المزاحُ من الاستهزاءِ بسبيل ، ألا تَرى أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يمزَحُ والأَئِمَّةُ بَعدَه!][١].

قال الغزاليُّ رحمه الله **، في آفات اللسان:**

[الآفَةُ العاشِرَةُ "المزاح": وأصلُهُ مذمومٌ مَنهيٌّ عنهُ إلا قَدرًا يَسيرًا يُستثنى منه، قال ﷺ: **(لا تُمار أخاكَ ولا تُمازحْه)**[٢].

فإن قلتَ: المُماراةُ فيها إيذاءٌ لأنَّ فيها تكذيباً للأخِ والصديقِ أو تجهيلاً له، وأمَّا المِزاحُ فمطايبَةٌ، وفيه انبساطٌ وطيبُ قلبٍ فلِمَ ينهى عنه؟!

(١) الجامع لأحكام القُرآن/ للقرطبي(١/٤٤٧).

(٢) رواه الترمذي: ١٩٩٥، وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وضعفه ابن حجر في (بلوغ المرام: ٤٤٣) ، ووافقه الألباني في (ضعيف الجامع الصغير: ٦٢٧٤).

فاعلم أنَّ المنهيَّ عنهُ الإفراطُ فيه، أو المداوَمةُ عليه.

أمَّا المداومةُ : فلأنَّهُ اشتغالٌ باللَّعِب والهَزلِ فيه، واللَّعِب مباحٌ ولكنَّ المواظَبَةَ عليه مذمومةٌ، وأمَّا الإفراطُ فيه فإنَّه يورثُ كثرَةَ الضَّحِكِ، وكثرَةُ الضَّحِكِ تُميتُ القلبَ، وتورثُ الضَّغينةَ في بعضِ الأحوالِ، وتُسقِطُ المَهابَةَ والوَقارَ، فما يخلو عن هذه الأمور فلا يُذَمُّ،

كما روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: (**إنِّي لأَمزَحُ ولا أقولُ إلا حَقًّا**)[1].

إلا أنَّ مِثلَه يَقدِرُ على أن يَمزَحَ ولا يقولَ إلاَّ حَقًّا، وأمَّا غيرُه إذا فتحَ بابَ المِزاحِ، كان غرَضُه أن يُضحِكَ الناسَ كيفما كانَ.

وقد قال رسولُ الله ﷺ:

(**إنَّ الرجُلَ لَيتكلَّمُ بالكلمةِ يُضحكُ بها جُلساءَه يهوى في النار أبعَدَ من الثُريّا**)[2].

وقال عمرE:

(مَن كثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيبَتُه، ومَن مَزَحَ استُخِفَّ به، ومَن أكثَرَ من شيءٍ عُرِفَ به، ومَن كثُرَ كلامُه كثُرَ سَقَطُه، ومَن كثُرَ سَقَطُه قلَّ حَياؤهُ، ومَن قَلَّ حياؤه قلَّ ورَعُه، ومَن قلَّ ورَعُه ماتَ قلبُه).

---

(١) "حديث صحيح"، صحيح الجامع: حديث رقم: ٢٤٩٤

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء (١٤٣/٣)"إسناده حسن"، وحسنه الألباني في (السلسلة الصحيحة : ٥٤٠) ، و(التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان : ٨/ ٢٢٤).

ولأَنَّ الضَّحِكَ يدُلُّ على الغفلَةِ عن الآخِرَة، قال رسولُ الله ﷺ:

(**لو تعلمون ما أعلمُ لبكيتُم كثيرًا ولَضحِكتُم قليلاً**)[1].

وقالَ رجلٌ لأَخيه: يا أخي هل أتاك أنَّكَ وارِدُ النـارَ؟! قـال: نعـم، قـال: فهل أتاكَ أنَّك خارِجٌ منها ؟! قال: لا، قال: ففيم الضـحِك؟! قيـلَ فمـا رؤي ضاحكاً حتَّى مات.

وقال يوسفُ بنُ أسباط: أقامَ الحسَنُ ثلاثين سنَةً لم يضحَك.

وقيلَ أقامَ عطاءُ السُلَميُّ أربعين سنةً لم يضحك[2].

ونظَرَ وهَيبُ بنُ الوَرد إلى قومٍ يَضحكون في عيدِ فِطـرٍ فقـال: إن كـان هؤلاءِ قد غُفِرَ لهم، فما هذا فعلُ الشاكرينَ، وإن كان لم يُغفَرْ لهم فمـا هـذا فعلُ الخائفين.

وكان عبدُ الله بنُ أبي يعلى يقول: أتضحكُ ولعلَّ أكفانَك قد خرَجَـتْ من عندِ القَصَّارِ.

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) ألاَّ يضحك الإنسان ثلاثين سنةً هذا خلاف الطبع والواقِع، وقد ضحِكَ من هو أعلى مقاماً وأجلُّ قدراً !! إلاّ إذا حَملنا ذلك على معنى الغفلة أو السَّفه أو القهقهة بالضحك، فيكون معقولاً مقبولاً، والله أعلم.

وقال محمدُ بنُ واسِع: إذا رأيتَ في الجنَّةِ رجلاً يَبكي ألستَ تعجبُ من بُكائِه؟ قيل: بلى، قال: فالذي يضحكُ في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصيرُ هو أعجبُ منه.

فهذه آفةُ الضحكِ، والمذمومُ منـه أن يسـتغرِقَ ضـحكاً، والمحمـودُ منـه التبَسُّمُ الذي ينكشفُ فيه السِنُّ ولا يُسمَعُ له صوتٌ، وكذلك كان ضـحكُ رسولِ الله ﷺ.

وأمَّا أداءُ المِزاحِ إلى سقوطِ الوَقارِ فقد قال عمرُ E: "من مزَحَ اسـتُخِفَّ به"، وقال محمدُ بنُ المُنكَدِرِ: "قالت لي أمِّي: يـا بُنَـيَّ، لا تُمـازِحِ الصِـبيانَ فتهونَ عندهم".

وقال عمَرُ بنُ عبدِ العزيز ω:

"اتَّقوا اللهَ، وإياكُم والمزاح، فإنَّهُ يـورِثُ الضَّـغينَةَ، ويجُـرُّ إلى القَبـيحِ، تحدَّثوا بالقُرآن، وتَجالسوا به، فإن ثَقُلَ عليكم فَحَديثٌ حَسَنٌ مِن حـديثِ الرجال".

وقال عمرُ E:

"أتدرون لِمَ سُمِّيَ المِزاحُ مِزاحاً؟ قالوا: لا، قال: لأنَّـه أزاحَ صـاحِبَهُ عـن الحَقِّ".

وقيلَ: "لكلِّ شيءٍ بُذورٌ، وبُذورُ العَداوةِ المزاحُ".

ويقالُ: "المزاحُ مَسلَبَةٌ للنُهى، مَقطَعَةٌ للأصدقاءِ".

فإن قلتَ: قد نُقِلَ المِزاحُ عن رسولِ الله ﷺ وأصحابِه، فكيفَ يَنهى عنه؟ فأقولُ:

إن قَدِرتَ على ما قَدِرَ عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، وهو أن تمزحَ ولا تقولَ إلا حقاً، ولا تؤذيَ قلباً، ولا تُفرِطَ فيه، وتقتصِرَ عليه أحياناً على الندور، فلا حرَجَ عليك فيه، ولكن من الغَلَطِ العظيمِ أن يَتَّخِذَ الإنسانُ المِزاحَ حِرفَةً يواظِبُ عليه، ويفرِطُ فيه، ثم يتمسَّكُ بفعلِ الرسول ﷺ، وهو كمَن يدورُ نَهارَهُ معَ الزنوجِ يَنظرُ إليهم وإلى رَقصِهم، ويتمسَّكُ بأنَّ رسولَ الله ﷺ أذِنَ لعائشةَ في النظرِ إلى رَقصِ الزنوجِ في يومِ عيدٍ، وهو خطأٌ، إذ مِن الصغائرِ ما يَصيرُ كبيرَةً بالإصرارِ، ومِن المُباحاتِ ما يصيرُ صغيرَةً بالإصرارِ، فلا ينبغي أن يُغفَلَ عن هذا، نعم، روى أبو هريرة أنَّهم قالوا: يا رسولَ الله، إنَّكَ تُداعبُنا ! فقال: إنِّي وإن داعبتكم لا أقولُ إلا حَقًّا.

وروي أنَّه كانَ كثيرَ التَّبَسُّمِ[1].

وعن الحسَنِ قال: أَتَت عَجوزٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال لها ﷺ: (**لا يدخُلُ الجنَّةَ عجوزٌ**) فبكتْ، فقال: (**إنَّكِ لَستِ بعجوزٍ يومئذٍ**، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ * فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾)[2].

---

(١) "حديث صحيح" عن عبد الله بن الحارث، جزء: قال: ما رأيتُ أحداً أكثر تبسماً من رسول ﷺ. (صحيح مختصر الشمائل ١٩٤، المشكاة ٥٨٢٩ التحقيق الثاني).

(٢) " حديث صحيح"، السلسلة الصحيحة (٢٩٨٧).

وقال زيد بن أسلم إنَّ امرأةً يُقالُ لها أمُّ أيمنَ جاءتْ إلى النبيِّ ﷺ فقالت: إنَّ زوجي يدعوكَ، قال: **"ومن هو؟ أهو الذي بعينِه بياضٌ؟"**، قالت: والله ما بعينه بياض، فقال : **"بلى إنَّ بعينه بياضاً "** فقالت: لا والله ! فقال ﷺ: **"ما من أحدٍ إلا وبعينه بياض"**[1].

وأراد به البياضَ المحيطَ بالحَدَقة.

وقال أنَسٌ : كان لأَبي طلحةَ ابنٌ يُقالُ لهُ أبو عُمير، وكانَ رسولُ الله ﷺ يأتيهم ويقول : **"يا أبا عُمَير ما فَعَلَ النُغَير؟!"**[2].

وما رويَ عن عائشةَ I، أنَّها كانَت معَ رَسولِ اللهِ ﷺ في سَفَرِه وهي جاريَةٌ، قالت: لَم أَحمِلِ اللَّحمَ ولَم أَبدَنْ، فقالَ لأصحابه: **"تَقَدَّموا"** فتقدَّموا، ثمَّ قال: **"تعالَي أُسابِقْكِ"** فَسابَقتُه، فسبقتُه على رجلي، فلمّا كانَ بَعدُ، خرجتُ معَه في سفَرٍ، فقالَ لأَصحابِه: **"تقدَّموا"** ثمَّ قال: **"تعالَي أسابِقُكِ"** ونسيتُ الذي كان وقد حملتُ اللَّحمَ وبدِنْتُ، فقلتُ: كيفَ أسابِقُكَ يا رسول الله وأنا على هذه الحال؟

فقال: **"لتفعَلِنَّ"**، فسابقتُه فسَبَقَني، فجعَلَ يضحَكُ، وقال: **"هذه بتلك"**[3].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا من حديث عبد الله بن سهم الفهري، وذكره الزبيدي في "إتحاف السادة المتقين" (٢٢٦/٩).

(٢) رواه البخاري : ٦٢٠٣ ، والنُغَير فرخ العصفور.

(٣) سنده (صحيح) كما قال العراقي في (تخريج الإحياء) ، وقال الألباني في إرواء الغليل(٣٢٧/٥): إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين.

فهذه مُطايَباتٌ يُباح مثلُها على النُّدور لا على الدوام، والمواظَبَةُ عليها هَزَلٌ مذموم وسَبَبٌ للضحِكِ المميتِ للقَلب][1].

معنى الضحك في اللغة:

[هو انبساطُ الوجه حتَّى تظهَرَ الأسنانُ من السُّرور، فإن كان بصَوتٍ وكان بحيثُ يُسمَعُ من بُعدٍ فهو القهقهةُ، وإلا فالضَحِك، وإن كانَ بلا صوتٍ فهو التبسُّم، والتبسُّمُ أوَّلُ مراتب الضحِك][2].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ١٢٧ -١٣١) بتصرف.

(٢) ملخَّص من عدَّة معاجم لغوية، وبعضها في (فقه اللغة) للثعالبي.

ضوابط المزاح المشروع

من خلال ما تقدَّمَ ، نستطيعُ أن نتعرَّفَ على ضَوابِطَ المزاحِ المباحِ ، ونُلخِّصُها بما يلي :

أولاً: ألا يقولَ المازحُ إلا صِدقاً

وذلك لأنَّ الكذبَ فيه كالكَذِبِ بغيره ، واللهُ تعالى يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩].

وقال رسولُ الله ﷺ: (**وإيَّاكم والكَذِب ، فإنَّ الكذبَ يَهدي إلى الفُجور ، وإنَّ الفُجور يهدي إلى النَّار ، ولا يَزالُ الرَّجُلُ يكذِبُ ويتَحَرَّى الكذِبَ حتَّى يُكتَبَ عندَ اللهِ كذَّاباً**)[١].

بل وردَنا عن النبيِّ ﷺ ما يُفيدُ أنَّ الكذِبَ في المزاح أعظَمُ وأَخطَرُ، وهو قولُهُ ﷺ: (**ويلٌ لِمن تحدَّثَ بحديثٍ لِيُضحِكَ الناسَ فيكذِب، ويلٌ له، ويلٌ له**)[٢].

قال المناويُّ: [(**ويلٌ له ويلٌ له**) كرَّرَه إيذانًا بشدَّةِ هلَكَتِه ، وذلك لأَنَّ

(١) رواه البخاري ٦٠٩٤ ، ومسلم ٢٦٠٧.

(٢)رواه الترمذي: ٢٣١٥ وقال حديث حسن ، وقوى إسناده ابن حجر في (بلوغ المرام/ ٤٤٦) ، وقال الألباني في (صحيح الجامع: ٧١٣٦) : حسن .

الكَذِبَ وحدَهُ رأسُ كلِّ مذموم ، وجماعُ كلِّ فضيحَةٍ فإذا انضَمَّ إليه استِجلابُ الضَّحِكِ الذي يُميتُ القَلبَ ويجلبُ النِّسيانَ ويورثُ الرُّعونَةَ كان أَقبَحَ القَبائِح ، ومن ثمَّ قالَ الحُكَماءُ: إيرادُ المضحِكاتِ على سبيلِ السُّخفِ نِهايَةُ القَباحَة][1] .

ثانياً : عَدَمُ الإكثارِ منه

فيصدُرُ منه المزاحُ على سبيل النُدرة ، لأنَّ الإكثارَ منه يُذهِبُ المروءَةَ ، ويُسقِطُ الهَيبَةَ والوَقارَ ، ويجلبُ الضَّغينَةَ والأَحقادَ ، وإنَّما ينبغي أن يكونَ مِقدارُ المَزْحِ في الكلام كَمِقدارِ المِلحِ في الطعام، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ:

(لا تُكثِرِ الضَّحِكَ، فإنَّ كثرَةَ الضَّحِكِ تُميتُ القَلبَ)[2].

وقال عمرُ بنُ الخطَّابِ E:

[من كثُرَ ضَحِكُه قلَّتْ هَيبتُه، ومَن مَزَحَ استُخِفَّ به][3].

قال سعيدُ بنُ العاص E **لابنه:**

[اقتصِدْ في مِزاحِك، فإنَّ الإفراطَ فيه يُذهِبُ البَهاءَ، ويجرِّئُ عليكَ السُّفَهاء][4].

---

(١) فيض القدير: (٣٦٨/٦).

(٢) حسنه الألباني في: صحيح الجامع: (٧٤٣٥)، السلسلة الصحيحة:٩٣٠ .

(٣) صحيح الجامع : رقم ٨٦

(٤) "أدب الدنيا والدين" للماوردي، ص٢٣٢.

وقال الإمامُ الراشِدُ عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيز ω:

[اتَّقوا المزاحَ، فإنَّهُ حُمقَةٌ تورِثُ الضَّغينَة][1].

قال الإمامُ النَّوَويُّ ω:

[المزاحُ المنهيُّ عنه هو الـذي فيـه إفـراطٌ، ويُـداوَمُ عليـه، فإنَّـه يـورِثُ الضَّحِكَ وقسوَةَ القلبِ، ويَشغَلُ عن ذِكرِ الله تعـالى، ويـؤولُ في كـثيرٍ مـن الأوقاتِ إلى الإيذاء، ويورثُ الأحقادَ، ويُسقِطُ المَهابَةَ والوَقارَ، فأمَّا مَن سَلِمَ من هذهِ الأمورِ فهوَ المُباحُ الذي كانَ رسولُ الله ﷺ يفعلُه][2].

ثالثاً : ألا يكونَ فيه ترويعٌ لأَحَد

والترويعُ يكونُ باستخدامِ آلةٍ حادَّةٍ، أو مفاجأتـهِ في الظـلام والصُـراخِ بوجههِ، أو لِبسِ قِناعٍ مُفزعٍ والهُجومِ عليه، أو ترويعِه بخَبَرٍ يَطـيرُ لـه قلبُـه، ونحو ذلك، عن أبي ليلـى قـال: حـدَّثنا أصـحابُ محمـدٍ ﷺ، أنَّهـم كـانوا يَسيرون مع النبيِّ ﷺ، فنامَ رجُلٌ منهم، فـانطلَقَ بعضُـهم إلى حَبْـلٍ فأخـذَهُ ففزِعَ، فقال رسولُ الله ﷺ: **(لا يَحِلُّ لِمسلمٍ أن يُروِّعَ مُسلماً)**[3].

---

(١) المصدر السابق، ص ٣١٨.

(٢) " الأذكار " للنووي، (٣٢٦ـ ٣٢٧).

(٣) رواه أبو داود. في السنن ٥٠٠٤، ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح : (٣/ ٤٠٧) وحسنه كما في المقدمة.

رابعاً : مُراعاةُ مراتبِ الناسِ وأقدارِهم

فليس كلُّ ما يجوزُ مع الصغيرِ يجوز مع الكبيرِ، وليس كلُّ ما يصلُح أن يكون مع من تعرفُه ويعرفُكَ يصلُح مع من لا تعرِفُه ولا يعرِفك، وما يتقبَّلُه العامَّةُ قد لا يتقبَّلُه وجَهاءُ الناس وأشرافُهم، فيجِبُ على من يمزحُ أن يُراعيَ منازلَ العلماءِ وذوي الهيئاتِ، وفي ما يُقابِل ذلك، تجنُّبُ المزاح مع السفهاء والحَمقى خشية أن يجترِئوا عليه.

خامساً : ألا يكونَ فيه غيبة

لأنَّ الغيبةَ من كبائر الذنوب، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[الحجرات:١٢] وقد بيَّن النبيُّ ﷺ حقيقةَ الغيبة بقوله:

(ذكرك أخاك بما يكرَه)[(١)].

وكثيراً ما تخرُجُ الغيبةُ في قالبِ المِزاحِ والضحِك، ويغفلُ الناس عن ذلك، لأنَّ الغيبة بهذه الصورة قد لا يكون فيها عداوةٌ أو بُغض لمن يغتابونه، بل قد يكونُ صديقاً حميماً، فيذكرون عنه بعضَ المواقِفِ المُضحِكة وهو يكرهُ ذلك، فيقعون في غيبته ولا يُبالون.

سادساً : أن يكون في وقته المناسب

---

(١) رواه مسلم ٢٥٨٩، وأبو داود ٤٨٧٤، والترمذي ١٩٣٤.

فلكلٍّ مقامٍ مقال، ولكلِّ حادثٍ حديث، فيكونُ مناسباً حينما يكونُ المقامُ مقامَ انبساطٍ وفرحٍ، وتكونُ الأجواءُ فيها بهجةٌ، أو يريدُ بالدُّعابة والطُّرفة أن يدخل السرورَ على مَهموم مَغمومٍ، يُزيحُ به عنه الهَمَّ والغَمَّ، ولا يكونُ المِزاحُ مُناسباً مع شخصٍ غيرِ مُتهيِّئٍ لقبوله، لكونه منشغِلاً بأمرٍ آخر ذي بال، أو لكونه في حالِ غضَبٍ وتوتُّر، وما إلى ذلك من الأسباب المختلفة.

قال رجلٌ لسفيانَ بنِ عُيَينَةَ: المزاح هُجنَةٌ ـ أي مستنكَرـ ؟ فأجابه قائلاً:

[بل هو سُنَّة، ولكن لمن يُحسِنُه ويضعُه في موضعِه][1].

فالجدُّ في موضِعِ الهَزلِ مَذمومٌ، كالهَزل في موضِعِ الجدِّ.

ووضْعُ النَّدى في موضِعِ السَّيفِ بالعُلا مُضِرٌّ كوضعِ السيفِ في موضِعِ الندى

سابعاً : أن يكون بأدب

وذلك بأن يَتَجنَّبَ البَذاءَةَ والفُحشَ والألفاظَ النابيَةَ التي تَخدِشُ الحَياءَ وتقدَحُ بالذَّوقِ العامِّ، والحَقُّ أنَّ العديدَ من النُّكاتِ والطرائِفِ التي يتناقلُها الناسُ في تَسامُرِهم لا تخلو من ذلك !

ثامناً : ألا يكونَ فيه شَيءٌ من الاستهزاءِ بالدين

فإنَّ ذلك من نواقِض الإسلام، وهوَ موضوع هذه الرسالة.

---

(١) شرح السنة / للبغوي: (١٣ / ١٨٤).

الاقتباسُ من القُرآن.. وصورٌ من الاقتباس المشروع والممنوع

ما الاقتباسُ ؟

لغةً: قالَ ابنُ فارس:

[قبَس: القافُ والباءُ والسينُ أَصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على صِفَةٍ من صفاتِ النَّار، ثمَّ يُستَعارُ . من ذلك القَبَسُ : شُعْلَةُ النَّار، قالَ اللهُ تعالى في قِصَّةِ موسى عليه السلام﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾.....][1].

[وقال الليثُ: القَبَسُ: شُعْلةٌ من النارِ يقتبسُهَا أيْ: يأخذُها مِنْ معظَمِ النارِ][2].

اصطلاحًا :

[هو أن يُضمَّنَ الكلامُ ـ شِعرًا كان أو نثرًا ـ شيئًا من القُرآنِ أو الحَديثِ لا على أَنَّهُ منه، كقول الحَريريِّ : "فلم يكن إلا كلمح البَصَرِ أو هو أَقرَبُ، حتَّى أنشَدَ فأَغرَبَ"][3].

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٤٨/٥).

(٢) (تهذيب اللغة) للأزهري/ باب القاف والصاد.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة(٣٨١/١).

وعليه يكونُ إسنادُ الكلامِ المقتَبَس إلى الله تعالى أو إلى الرسول ﷺ ليسَ من قَبيل الاقتباس.

والاقتباسُ عندَ البَلاغيِّين أَحَدُ الفنون البديعَية، وأوَّلُ من وضَعَ هذا الاصطلاحَ فَخرُ الدِّين الرَّازيُّ، وكانَ معروفاً قبلَ الرَّازيِّ باسم التَّضمين.

والاقتباسُ عندَهُم تضمينُ الكلام ـ نَثرًا كان أو شعرًا ـ شيئًا مِن القُرآنِ أو الحديث، من غَير دِلالةٍ على أنَّهُ منهُما، أي بأَن يكونَ خالياً من الإشعار بذلك، والإشعارُ به كأَن يقولَ: قالَ اللهُ كذا، أو قالَ رسولُ اللهِ ﷺ.

نقلَ السيوطِيُّ (1): عن "شَرح بديعيةِ ابن حُجَّةَ" أنَّ الاقتباسَ ثلاثةُ أقسام:

الأوَّل: مقبولٌ، وهو ما كان في الخُطَبِ والمواعظِ والعهود.

والثاني: مُباحٌ، وهو ما كانَ في الغَزَل والرَّسائِل والقَصَص.

والثالث: مردودٌ، وهو على ضَربَين.

أَحَدُهما: اقتباسُ ما نَسَبَهُ اللهُ إلى نفسِه، ونَعوذُ باللهِ ممن ينقُلُه إلى نفسِهِ كما قيلَ عن أَحَدِ بَني مَروان أَنَّه وقَعَ على مُطالَعَةٍ فيها شِكايَةُ عُمَّالِه: إنَّ إلينا إيابَهُم ثمَّ إنَّ علينا حِسابَهُم .

والآخرُ تضمينُ آيةٍ في معنى هَزلٍ، ونعوذُ بالله من ذلك كقوله:

أَوحَى إلى عُشَّاقِهِ طَرفُهُ ... هَيهَاتَ هَيهَاتَ لما توعَدون

وردفُهُ ينطِقُ من خَلفِهِ ... لمثل ذا فَليعمَل العامِلون !!.

قال السيوطيُّ ω: [وهذا التقسيمُ حَسَنٌ جدًّا، وبه أقول][1]. انتهى.

وبهذا التقسيم الأَخير يقولُ العُلماء المحققون، وليس ثمةَ فرقٌ بين الشِّعر والنثر عندهم.

ومما يحرُمُ في الاقتباسِ ما أضافَهُ اللهُ تبارَكَ وتعالى إلى نفسِهِ من كلامِه، كقوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ وقوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ ونحو ذلك.

ومثالُهُ ما أَخبَروني به عن أَحَدِ المشايخ المُبرِّزينَ أنَّهم طَلَبوا منهُ شَيئًا فقالَ لهم: "أَبشِروا، هو عَلَيَّ هَيِّن"!!

ومما يحرُمُ اقتباسُهُ ما أَقسَمَ اللهُ به من مخلوقاته، فإذا اقتبَسَ هذا صارَ من كلامِ المقتبِسِ نَفسِهِ فيكونُ قَسَماً منهُ بغير الله، وهو شِركٌ كما في قولِ بعضِهِم: والتينِ والزَّيتونِ ... وطورِ سينينَ .... وهذا البَلَدِ المحزون ...

ومما لا يجوزُ اقتباسُهُ ما خوطِبَ بِهِ الرَّبُّ جَلَّ وَعَلا .. كما وقَعَ في كتابٍ لعَبدِ الرَّحمنِ المرشِديِّ إلى القُضاة .. جاءَ فيه: (يا أَعدَلَ قاضٍ به عِمادُ الدِّين، آمنا بما أَنزَلتَ واتَّبَعنا الرَّسولَ فاكتُبنا معَ الشَّاهِدين).

ومنه ما يَتبادَرُ إلى السامِعِ أَنَّهُ مِن القُرآنِ مع تَغيير بَعضِ الكلِماتِ

---

(١) الإتقان في علوم القُرآن / للسيوطي(١/ ٢٩٧).

كقَولِ أَحَدِهِم: (والنَّجمِ إذا هَوى .. ما ضَلَّ يَرَاعُكَ وما غَوى، عَلَّمَـهُ شَـديدُ القوى ، ذو مِرَّةٍ فاستوى)

ومنهُ ما يُعَدُّ مُحاكاةً للقُرآنِ واستِعمالاً لـهُ في غَـير مَعنـاهُ كَقَـولِ النَّبيـهِ يَمدَحُ القاضيَ الفاضِلَ : (لا تسـمهُ وَعـدًا بغَـير نَـوَال .... إنَّـهُ كـانَ وَعـدُهُ مَفعولاً).

وكَقَـولِ القائِـل، لِمـن جـاءَهُ وكـانَ يرجـو حُضـورَهُ ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾، وقولِ الآخَرِ ـ لمـن جـاءَهُ مـن مكـانٍ بَعيـدٍ، أو كـان بمنـأى عنـه: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾، وكقول بعضهم ـ إذا تأخَّرَ عليه مُضيِّفُه في تقديم الطعام ـ : ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

وإليكَ طائِفَةٌ من فَتاوى بَعضِ العُلَماءِ حَولَ هذِهِ المسأَلَة:

قال الإمامُ بدرُ الرَّشيدُ (ﷺ):

[ومَن اسـتعملَ كـلامَ الله تعـالى بـدَلَ كلامِـه، كمَـن قـالَ في ازدحـامِ الناس:(فجمعناهم جمعاً) كفَر][2].

[ومَن قال لمن يَقرَأُ القُرآنَ ولا يَتَذَكَّرُ كَلِمَةً: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾....أو مَلأَ قَدَحاً جاءَ به وقال: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾، أو قال ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ بطَريـقِ المِـزاحِ،

(١) هذا الكلام وقريب منه موجود في معظم كتب البلاغة في باب الاقتباس.

(٢) رسالة في ألفاظ الكفر: ص٦٦.

كفرَ][1].

وقال ابنُ حَجَرٍ الهيتميُّω:

[ومنها أيضاً: لو قَالَ لمن يَقرأُ القُرآنَ بالاستِهزاءِ ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أو ملأ قدحاً فقال: ﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا﴾ أو فرَّغ شراباً فقال: ﴿فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ أو قال عندَ الوَزنِ أو الكَيلِ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ أو رأى جَمعًا فقَرأَ بالاستِخفافِ: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ .....كفَرَ، وذلكَ إذا استَعمَلَ القُرآنَ في غَير ما وضِعَ له، بقَصدِ الاستِخفافِ والاستهزاءِ، بخلافِ استعمالِهِ لا بهذا القَصدِ، ولكن لا تَبعُدُ حُرمَتُهُ، وليسَ كالتَّضمينِ كما هوَ ظاهِرٌ، على أنَّ جمعًا ـ يَعني من أَهلِ العِلم ـ قالوا بحُرمَةِ التَّضمين][2].

وسُئلَ عُلَماءُ اللَّجنَةِ الدائِمةِ في بلادِ الحَرَمين الشَّريفين، عن استِعمالِ بَعضِ آياتِ القُرآنِ في المزاحِ ما بَينَ الأَصدِقاءِ، مِثل: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾، ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾، ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم﴾، هل يجوزُ استِعمالُ هذِهِ الآياتِ في المزاحِ ما بَينَ الأَصدقاءِ؟ فأجابوا:

[لا يجوزُ استعمالُ آياتِ القُرآنِ في المزاحِ على أَنَّها آياتٌ من القُرآنِ،

---

(١) المصدر السابق: ص(٧٧- ٧٨).

(٢) الإعلام بقواطع الإسلام (٢/٣٨٤).

أمَّا إذا كانت هناكَ كلِماتٌ دارجَةٌ على اللسانِ لا يَقصِدُ بها حِكايَةَ آيَةً من القُرآنِ أو جُملَةً منه : فَيَجوزُ وباللهِ التَّوفيقُ، وصَلَّى اللهُ على نَبيِّنا محمَّدٍ، وآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّم][1].

وجاءَ في قَرارِ مَجمَعِ البُحوثِ الإسلاميَّةِ بالأَزهَرِ الشَّريف:

[إنَّ الاقتباسَ من القُرآنِ الكريم غَيرُ جائزٍ في المجالاتِ الآتيَة:

أولاً: حَديثُ اللهِ عن نَفسِهِ، فلا يجوزُ لإنسانٍ أن يَنسِبَهُ إلى نَفسِهِ.

ثانياً: مَواطِنُ الاستِخفافِ والاستهزاءِ والسِّياقِ الهَزليِّ.

ثالثاً: استِخدامُ النَّصِّ القُرآنيِّ لِغايَةٍ مُخالِفَةٍ لِهدايَتِهِ وَمَقاصِدِه.

أمَّا إذا كانَ الاقتباسُ مِن القُرآنِ الكريم لا يوهِمُ إسنادَ الآياتِ القُرآنيَّةِ إلى غَيرِ اللهِ، فَهوَ جائزٌ، أمَّا إذا كانَ الاقتباسُ موهِماً يكونُ حَرامًا][2].

وسُئِلَ الشَّيخُ محمَّدُ بنُ صالِحِ العُثَيمينَ ﵀، السؤالَ الآتي :

كثيرًا ما يَتَناقَلُ بعضُ النَّاسِ أَثناءَ الحَديثِ على أَلسِنَتِهِم آياتٍ من القُرآنِ الكريم، أَو من السُّنَّة على سَبيل المزاحِ، مثالُه: كأَن يَقولَ بعضُهُم: فلانٌ ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا﴾ واليومَ رأَينا نون وما يعلمون، وهكذا، ومن السنَّة: كأَن يقولَ أَحَدُهُم ــ إذا ذُكِّرَ ونُصِحَ بتَركِ المعصيَةِ ــ يا أَخي (التَّقوى

(١) السؤال الرابع من الفتوى رقم ٦٢٥٢.

(٢) من أرشيف قرارات مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر في مصر.

هاهُنا)، أَو قَوله: (إنَّ الدينَ يُسرٌ) وهكذا ... فما قولُكُم في أَمثالِ هَؤلاء؟ وما نَصيحَتُكُم لهُم ؟

فأجَاب:

[أمَّا مَن قالَ هذا على سَبيلِ الاستهزاءِ والسُّخريَةِ، فإنَّهُ على خَطَرٍ عَظيم، وقد يُقالُ : إنَّهُ خَرَجَ من الإسلام، لأَنَّ القُرآنَ لا يجوزُ بأَيِّ حَالٍ من الأَحوالِ أَن يُتَّخَذَ هُزُوًا، وكذلِكَ الأَحكامُ الشَّرعيَّةُ، كما قالَ اللهُ تبارَكَ وتَعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ....الآية﴾.

ولهذا قالَ العُلماءُ، ـ رحِمَهُم اللهُ ـ : من قالَ كلِمَةَ الكُفرِ وَلَو مازحًا، فإنَّهُ يكفُرُ، ويجبُ عليه أَن يَتوبَ، وأَن يَعتَقِدَ أَنَّهُ تابَ من الرِّدَّةِ، فَيُجَدِّدَ إسلامَهُ، فآياتُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ورَسولُهُ أَعظَمُ من أَن تُتَّخَذَ هُزُوًا أو مَزحًا.

أمَّا مَن استَشهَدَ بآيَةٍ على وَاقِعَةٍ جَرَت وحدَثَت، فهذا لا بأسَ به، فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ استشهَدَ بالآياتِ على الوَقائِع، فاستشهَدَ بقوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، حينما جاءَ الحسَنُ والحُسَين يَتعثَّران في أثوابهما، فنَزَلَ من المنبَرِ ﷺ، وقال:﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، فالاستشهادُ بالآياتِ على الوَقائِع، لا بأسَ به، وأَمَّا أن تُنَزَّلَ الآياتُ على ما لم يُرِد اللهُ بها، ولاسيَّما إن قارَنَ ذلك سُخريَةٌ واستهزاء،فالأَمرُ خطيرٌ جدًّا](1).

---

(١) لقاءات الباب المفتوح (٦٠/السؤال الأول).

وسُئِلَ الشيخُ صالحُ بنُ فَوزانَ ما يَلي:

نسمَعُ كثيرًا من الإخوانِ يَستَخدِمون الآياتِ القُرآنيَّةَ لِضَربِ أَمثلَةٍ، كقوله تعالى: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾، وقوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾.

فهل هذا جائزٌ أم لا ؟ وإذا كانَ جائِزاً: ففي أَيِّ الحالاتِ يُمكِنُ ذِكرُها وترديدُها ؟ فأَجاب:

[لا بأسَ بالتَّمَثُّلِ بالقُرآنِ الكريم إذا كان لغَرَضٍ صَحيح، كأَن يقولَ: هذا الشيءُ لا يُسمِنُ ولا يُغني من جوعٍ، أو يقول: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، إذا أرادَ التذكيرَ بحالةِ الإنسانِ مع الأرض، وأنَّهُ خُلِقَ منها ويعودُ إليها بعدَ الموتِ ثمَّ يبعثُهُ اللهُ منها، فالتمثُّلُ بالقُرآنِ الكريم إذا لم يكُن على وَجهِ السُّخريَةِ والاستِهزاءِ لا بأسَ به.

أمَّا إذا كانَ على وجهِ السُّخريَةِ والاستِهزاءِ، فهذا يعتَبَرُ رِدَّةً عن الإسلام، لأَنَّ مَن استَهزَأَ بالقُرآنِ الكريمِ أو بشيءٍ من ذكرِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وهَزلَ بشَيءٍ من ذلك، فإنَّهُ يرتَدُّ عن دين الإسلام، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فيجبُ تعظيمُ القُرآنِ واحترامُه][1].

يتبيَّن مما تقَدَّمَ الفَرقُ بينَ تَضمينِ آياتِ القُرآنِ الكريم بطريقَةٍ هَزليَّةٍ وبينَ الاستشهادِ بها في موضِعِها المناسِبِ على وَجهِ التَّعظيم والتَّوقير،

---

(١) المنتقى من فتاوى الشيخ الفوزان (٢/ ٧٩).

فتُذكَرُ الآيَةُ في مَوضِعٍ يصلُحُ فيه الإسقاطُ عليه والتَّمَثُّلُ بـه، لوجـودِ وَجـهِ شَبَهٍ على الأَقَلِّ، والغَرَضُ منهُ حُصـولُ العِـبرَةِ والعِظَـةِ، ولا يقـترِنُ ذلـك بضَحِكٍ أو سُخفٍ من القول.

فلو رأى جماعةً يتركون صلاةَ الجماعةِ وينطلقونَ إلى المقهى مثلاً، فقـال لهم: "أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هـو خَـير؟!" فهـذا توظيـفٌ حسَـنٌ للآية الكريمة، وهو إسقاطٌ صالحٌ على الحَدَث، وإن كانَت الآيَةُ تحكـي قـولَ نبيِّ الله موسى ﷺ لقومِهِ في شأنٍ آخر.

وكذا لو لقيَ شخصًا صُدفةً من غير ميعادٍ وكان يتمنَّى لقاءَه، فقال عند ذلك: "ولو تواعدتُم لاختلفتُم في الميعاد" فلا بأسَ في ذلك.

قال سُفيانُ بنُ عُيَينَةَ ؒ:

[لا تأتونَ بمَثَلٍ مشهورٍ للعَرَبِ إلا جئتكم به من القُرآن، فقال له قائل: فأينَ في القُرآن "أعطِ أخـاكَ تمـرَةً فـإن لم يقبـلْ فأَعطِـهِ جَمـرةً ؟" فقـال: في قوله:{ومن يَعْشُ عن ذِكرِ الرَّحمنِ نُقَيِّض لهُ شَيطانًا}!!][1].

وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيميَةَ ؒ:

[وأمَّا إن تلا الآيَةَ عندَ الحُكم الذي أُنزلَت لَهُ أو يُناسِبُهُ مـن الأَحكـام فحسَنٌ، ومن هذا البابِ ما بيَّنَهُ الفُقَهاءُ من الأَحكام الثابتَـةِ بالقيـاسِ ومـا

(١) الفوائد/ لابن القيم، ص١٣٥.

يتكلَّمُ فيه المشايخُ والوعَّاظُ، فلو دُعيَ الرجُلُ إلى مَعصيةٍ قد تابَ منها فقال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾، وكذا لو قالَ عندَ هَمِّهِ وحُزنِهِ ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ونحو ذلك، كانَ حَسَنًا، ولو قَصَدَ به التِّلاوَةَ والتَّنبيهَ على معنىً يُخاطبُ به للحاجَةِ كانَ جائِزًا، مِثلَ ما قيلَ لِعَليٍّ E في الصلاةِ: لئِن أَشرَكتَ لَيَحبَطَنَّ عمَلُك، فقال: فاصبر إنَّ وعدَ اللهِ حَقٌّ، فهذا ونحوه رخَّصَ فيه العُلماءُ][1].

(١) مختصر الفتاوي المصرية لابن تيمية (٢/ ٤١).

قِصَّة المَرأةِ المُتَكلِّمةِ بالقُرآن

من العَجيب أنَّني عندما كنتُ أتكلَّمُ في هذا الموضوع في بعض المجالِس كان يَتقدَّم إليَّ بعضُ المستَمِعينَ من المثقَّفين مُحتَجًّا عليَّ بالقِصَّة المشهورةِ في كُتُبِ الأَدَب، والتي تحكي محاوَرَةَ المرأَةِ التي لا تَتَكلَّمُ إلا بالقُرآن وكأنَّها دليلٌ شرعيٌّ على جواز ما يفعلُه من ننتقِدُهُم في هذه الرسالة !! مع أنَّ هذه المرأَةَ مجهولَةٌ، بل ذكَرَتْ بعضُ الرواياتِ أنَّها شيعيَّةٌ ! وحتَّى لو لم تكن كذلك، فأَينَ الحُجِّيَّةُ في قَولها أَو فِعلِها !!

ثمَّ إنَّ موضوعَنا عن التكلُّم بالقُرآنِ بطريقِ الهَزلِ واللَّعِب، وليس في القِصَّةِ ما يُشير إلى ذلك !!

وتتضَمَّنُ الروايةُ، أنَّ المرأةَ كانت تخشى أن تتلفَّظَ بكَلِمةٍ لا تُرضي اللهَ تعالى فتَزِلَّ بها، فهي إذن تفعَلُ ذلك ديانَةً وتقوى، وهذا شَيءٌ لا تستَحِقُّ عليه المدحَ، فهي ليسَتْ بأَتقى للهِ تعالى من الصَّحابَةِ Φ، ولم يَرِدْ عن أَحَدٍ منهُم أَنَّهُ فعَلَ ذلك ! بل نَربأُ بهم أن يفعَلوا ذلك لما فيه من التَنَطُّعِ والتكلُّفِ ما لا يخفَى، ومَن اعتقَدَ أَنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ من عِبادِهِ أَن لا يتكلَّموا بكلام الناسِ فقد افتَرى على اللهِ الكَذِب ! ومَن اعتقَدَ أَنَّ هذا الفعلَ مِمَّا يجوزُ فِعلُه على وجهِ العِبادَةِ فإِنَّهُ يقولُ بجوازِ البدعَةِ !

فقد رأَى النَّبيُّ ﷺ رجُلاً قائِمًا في الشمس فسأَلَ عنه، فقيلَ: إنَّهُ نذَرَ أن يقومَ ولا يقعُدَ، ولا يستَظِلَّ، وأَن يَصومَ، فأَمَرَهُ النَّبيُّ ﷺ "أن يقعُدَ

ويستَظِلَّ وأَن يُتِمَّ صَومَهُ" فلم يجعَل قيامَهُ وبروزَهُ في الشَّمسِ قُربَةً يوفى بنذرهما.

وقد روي أَنَّ ذلك كان في يومِ جُمعَةٍ عندَ سَماع خُطبَةِ النبيِّ ﷺ وهو على المنبَرِ فنَذَرَ أَن يقومَ ولا يقعُدَ ولا يستَظِلَّ ما دامَ النبيُّ يخطُبُ إعظامًا لسَماع خُطبَةِ النَّبيِّ ﷺ.

وقد أورَدَ هذهِ القِّصَّةَ ـ قصَّة المرأة ـ ابنُ حِبَّانَ في كتابه (روضَةُ العُقلاء):

فابنُ حِبَّانَ ؆ لما روى القصَّةَ جاءَ في سلسِلةِ رواتِها راوٍ اسمُهُ محمَّدٌ بنُ زَكريَّاءَ الغلابيُّ، وهذا الرجُلُ قال فيه المحدِّثون: إنَّه واهٍ يروي المناكيرَ متَّهَمٌ بالوَضع، وقد قالَ فيه الدارقطنيُّ: إنَّه متَّهَمٌ بالوَضع، كما ذكرَ ذلك الألبانيُّ في تخريجاته لكتاب (المراجعات)، وابنُ حِبَّانَ نفسُهُ قال عنه: يَروي عن المجاهيل.

نصُّ القِصَّةِ بالسَنَد:

[قال الإمامُ ابنُ حِبَّانَ: أنبأَنا عمرو بنُ محمَّدٍ الأنصاريُّ، حدَّثَنا الغلابيُّ، حدَّثَنا إبراهيمُ بنُ عَمرو بنُ حَبيب، حدَّثَنا الأَصمَعيُّ قال: بينا أَنا أَطوفُ بالباديَةِ إذا بأَعرابيَّةٍ تَمشي وحدَها على بعيرٍ لها، فقُلتُ: يا أَمَةَ الجبَّار، مَن تَطلُبين ؟

فقالت: {مَن يَهدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له ومَن يُضلِل فلا هاديَ له}.

قال: فعَلِمتُ أنَّها قد أَضَلَّت أَصحابَها.

فقلتُ لها: كأَنَّكِ قد أَضلَلتِ أَصحابَكِ؟

فقالت: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾

فقلت لها : يا هذه، من أين أنت؟

قالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ فعلمتُ أَنَّها مَقدِسيَّةٌ،

فقلت لها: كيف لا تتكلَّمين؟

قالت: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

فقال أحَدُ أصحابي: ينبغي أن تكونَ هذه من الخوارج!

فقالَت: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾

فبينَما نحنُ نماشيها، إذ رُفِعَت لنا قبابٌ وخيَمٌ، فقالت: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾

قال: فلم أفطَن لقَولها، فقلتُ: ما تقولين؟

فقالت: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ﴾

قلت: بمن أصوِّتُ وبمَن أدعو؟

قالت : ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ﴾ ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾، قال فإذا نحنُ بثلاثةِ إخوةٍ كاللآلئ، فقالوا: أُمُّنا ورَبِّ الكَعبَةِ، أَضلَلناها مُنذُ ثَلاث.

فقالت: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

فأومَـأت إلى أَحَـدِهِم فقالـت: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾.

فقلت: إنَّها أَمرَتهُم أن يُزَوِّدونا، فَجاؤوا بخُبزٍ وكَعكٍ،

فقلت: لا حاجَةَ لنا في ذلك، فقلتُ للفِتية: مَن هذه منكم؟

قالوا: هذه أُمُّنا، ما تكلَّمَت مُنذُ أَربَعينَ سَـنَةً إلا مِـن كِتـابِ اللهِ، مَخافَـةَ الكَذِبِ، فدَنَوتُ منها، فقلتُ: يا أَمَةَ اللهِ أَوصيني.

فقالت: ما ﴿أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، فعلِمتُ أَنَّها شـيعيةٌ، فانصَرَفت .اهـ

وقد علَّقَ الشيخُ ابنُ العُثَيمين في (الشَّرح الممتِع) علـى هـذه القِصَّـةِ بقوله:

[يحرُمُ جَعلُ القُرآنِ بَدَلاً من الكلام، ...... وأَنا رَأَيتُ زَمَنَ الطَّلَبِ قِصَّةً في جَواهِرِ الأَدَب، عن امرَأَةٍ لا تتكلَّمُ إلا بالقُرآن، وتَعَجُّب النـاس الـذين يخاطبونَها، وقالوا: لها أَربَعونَ سَـنَةً لا تَـتكلَّمُ إلا بـالقُرآن، مَخافَـةَ أَن تَـزِلَّ، ويغضَبُ عليها الرَّحمَنُ نقول هي زَلَّت، فالقُرآن لا يُجعَلُ بدلاً من الكلام، لكن لا بأسَ للإنسان أَن يَستَشهدَ بالآيَةِ على قَضيَّةٍ وقَعَت]. اهـ

وروى القِّصَّةَ أبو نَعيمٍ في الحُلية[1]، ومتنُها قريبٌ مما رواهُ ابنُ حِبَّان.

وقد ورَدَ في كتاب "تلبيسُ إبليس" ما يلي:

---

(١) "حلية الأولياء" لأبي نعيم (١٨٢/١٠).

[قال ابنُ عَقيل: كان أبو إسحاق الخَزَّازُ صالحاً وهو أوَّلُ من لقَّنَني كتابَ اللهِ وكانَ من عادَتِهِ الإمساكُ عن الكلامِ في شَهرِ رَمَضانَ فكانَ يُخاطِبُ بآيِ القُرآنِ فيما يَعرِضُ لهُ من الحَوائِجِ فيقولُ بإذنه: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ ويقول لابنه في عشيَّةِ الصوم: ﴿مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا﴾ آمِراً له أن يشتريَ البَقلَ، فقلتُ له هذا الذي تعتقِدُهُ عبادَةً هو معصيَةٌ فصَعُبَ عليه، فقُلتُ: إنَّ هذا القُرآنَ العَزيزَ أُنزلَ في بَيانِ أَحكامٍ شَرعيَّةٍ فَلا يُستَعمَلُ في أَغراضٍ دنيويَّةٍ، فهَجَرَني ولم يُصغِ إلى الحُجَّة][1].

(١) " تلبيس إبليس" للإمام ابن الجوزيِّ، ص ١٤١.

عقوبَةُ المُستهزئ في الدنيا

المقصودُ بهذا العنوان، عقوبَةُ المُستَهزِئِ قَضائياً، ومعلومٌ أنَّ الذي يُقيمُ الحدودَ على المُجرمين والجُناةِ هو السلطانُ المسلمُ، وليس الأفراد، فإذا حَكَمَ القاضي بردَّةِ المُسلمِ المُعيَّنِ، فإنَّ حُكمَ المرتَدِّ عن الإسلام غَيرُ خافٍ، لحديثِ ابنِ عَباسٍ Γ المرفوعِ: (**مَنْ بَدَّلَ دينَهُ فاقتُلوه**)[1]، وقد أَجمَعَ العُلَماءُ على وجوبِ قَتلِ المرتَدِّ.

قال القاضي عياضٌ Ω:

[قال ابنُ عتاب: الكتابُ والسنَّةُ موجِبان أنَّ من قَصَدَ النبيَّ ﷺ بأذىً أو نقص، مُعَرِّضاً أو مصرِّحاً، وإن قلَّ، فقتلُهُ واجبٌ، فهذا البابُ كلُّه ممّا عدَّهُ العلماءُ سَبًّا أو تنقُّصاً يَجِبُ قتلُ قائِلِه، لم يختلفْ في ذلك متقدِّمُهم ولا مُتأَخِّرُهم][2].

قال الإمامُ ابنُ تيميَةَ Ω:

[فإن كان مُسلماً وجَبَ قتلُهُ بالإجماع، لأَنَّهُ بذلك كافِرٌ مُرتَدٌّ وأَسوأُ من الكافِرِ، فإنَّ الكافِرَ يُعَظِّمُ الرَّبَّ، ويَعتَقِدُ أنَّ ما هو عليه من الدين الباطِلِ

---

(١) رواه البخاري: ٦٩٢٢ و ٣٠١٧، وأحمد (٣٤٩/٤)، وأبو داود ٤٣٥١.

(٢) الشفا (٩٤٢/٢).

ليسَ باستهزاءٍ باللهِ ولا سُبَّةٍ له][1].

وجاءَ في "مُعجَم البُلدان":

[كان في المدينةِ مخنَّثٌ يُقالُ له: "النفاشيُّ"، فقيل لمروانَ بنِ الحَكَم: إنَّهُ لا يقرَأُ من كتابِ اللهِ شَيَئًا، فبَعَثَ إليه يَومَئِذٍ فاستَقرَأَهُ أُمَّ الكِتابِ (الفاتحة)،

فقال: واللهِ ما مَعي بناتُها، أو(ما قرأتُ البنات) فكيفَ أقرأُ أُمَّهُنَّ؟

فقال: أتَهزَأُ لا أمَّ لك! فأَمَرَ به فقُتِلَ في مَوضِعٍ يُقال له: "بُطحان"][2].

ونَقَلَ الإمامُ الذَّهَبيُّ ۞ عن خُرَّزادَ العابدِ، قال:

[حدَّثَ أبو معاويةَ الرَّشيدَ بحَديثِ "احتجَّ آدمُ وموسى"[3]، فقالَ رجُلٌ شريفٌ: فأَينَ لَقيَه؟

فغضِبَ الرَّشيدُ وقال: النِّطعُ[4] والسَّيفُ، زنديقٌ يطعَنُ في الحديث.

---

(١) الصارم المسلول: ص٥٤٧

(٢) معجم البلدان (٤/٤٣٣).

(٣) رواه البخاري برقم: ٦٦١٤

(٤) النِّطع: بساط من الجلد، كثيراً ما كان يُقتَل فوقه المحكوم عليه بالقتل، كما في "المعجم الوسيط" (٩٣٠/٢).

فما زالَ أبو معاويَةَ يُسَكِّنُهُ، ويقولُ: بادِرَةٌ منـهُ يـا أَمـيرَ المـؤمنين، حتَّـى سَكَن][1].

وجاءَ في كتاب "الجامع في ألفاظ الكُفر":

[أمَرَ الإمامُ الفَضليُّ[2] بقَتلِ مَن قالَ لفَقيهٍ تَرَكَ كتابَهُ في دُكَّان وذَهَبَ، ثُمَّ مَرَّ على ذلك الدُّكان: ههُنا نَسيتَ المِنشارَ، فقالَ الفَقيهُ: عِندَكَ لي كِتابٌ لا مِنشار!

فقال صاحبُ الدُّكان: النَّجارُ بالمنشار يقطَعُ الخشَبَ، وأَنتُم تقطَعون بـه حُلُقَ، أو حَقَّ الناس. فشكى الفَقيهُ إلى الشـيخِ محمَّـدِ بـنِ الفَضـليِّ، فـأمَرَ بقَتلِ ذلكَ الرجُلِ، لأنَّه كفرَ باستخفافِهِ بكتابِ الفِقه][3].

[وأفتى فُقَهاءُ الأندَلُسِ بقَتلِ ابنِ حـاتمٍ المتَفَقِّـهِ الطُلَيطلـيِّ وصَـلْبهِ بمـا شُهِدَ عليه به من اسـتخفافه بحَـقِّ الـنبيِّ ﷺ وتسـميتِه إيَّـاهُ أثنـاءَ مناظرَتِـهِ باليتيم، وختْنِ حَيدَرَةَ، وزعمِـه أنَّ زُهـدَهُ لم يكُـن قَصـدًا، ولـو قـدِرَ علـى الطيباتِ أكلَها، إلى أشباهٍ لهذا.

وأَفتى فُقَهاءُ القَيروانَ وأَصحابُ سَحنونَ بقَتلِ إبراهيمَ الفزاريِّ، وكان شاعرًا مُتَفَنِّنًا في كثيرٍ من العُلوم، و كان ممَّـن يَحضُـرُ مجلِسَ القاضـي أَبـي

(١) سير أعلام النبلاء(٩/٢٨٧)، وتاريخ بغداد(١٤/٧ـ ٨).

(٢) هو أبو بكر بن محبّ الفضلي الكُماري البخاري ت٣٨١، من كبار الحنفية أهل الفتوى، وكتبهم مليئة بفتاويه. تُنظر ترجمته في "الجواهر المضيئة" (٣/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢).

(٣) "رسالة في ألفاظ الكفر" (ص٥٤ ـ ٤٦).

العَبَّاسِ بنِ طالبٍ للمُناظرَةِ، فرُفِعَتْ عليه أُمورٌ مُنكَرَةٌ من هذا الباب في الاستهزاءِ باللهِ وأَنبيائِهِ ونَبيِّنا ﷺ، فأَحضَرَ له القاضي يحيى بنَ عُمَرَ وغيرَهُ من الفُقَهاءِ، وأمرَ بقَتلِهِ وصَلبهِ، فطُعِنَ بالسكِّين، وصُلِبَ مُنَكَّساً.

وحكى بعضُ المؤرِّخينَ أنَّه لَمَّا رُفِعَتْ خَشَبَتُه، وزالَتْ عنها الأَيدي استدارَتْ، وحَوَّلَتهُ عن القِبلَةِ، فكان آيةً للجَميع، وكبَّرَ الناسُ][1].

[وأمَّا مَن صدَرَتْ عنهُ من ذلك الهَنَةُ الواحدَةُ والفَلتَةُ الشارِدَةُ، ما لم تكن تنقُّصاً وإزراءً ـ فيُعاقَبُ عليها ويؤدَّبُ بقدرِ مُقتضاها وشِنعَةِ معناها، وصورَةِ حالِ قائِلَها، وشَرْحِ سَبَبِها ومُقارِنِها][2].

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٢١٨).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٠٠).

فصلٌ في الطرائفِ والنُكاتِ ومشروعيتها

الطُّرفَةُ (النُكتَةُ): هي عِبارَةٌ عـن قِصَّـةٍ قصـيرَةٍ، أو حِـوارٍ قَصـيرٍ بـين طَرَفين أو أكثَرَ، يتضَمَّنُ فِكرَةً أو مَوقِفاً يَستَدعي الضَّحِك.

فالطُّرفَةُ من حَيثُ ماهيتُها كلامٌ، والكلامُ في أَصلِهِ مُباحٌ، لكنَّه تَسـري عليه الأَحكامُ التكليفيَّةُ الخَمسَةُ بحَسبِ مَضـمونِهِ، فقـد تكـونُ مُحرَّمـةً إذا تضَمَّنَتْ أمراً محرَّماً أو اقترَنَ بها وصفٌ محرَّمٌ، فتكونُ محرَّمةً لأَجلِ ذلك.

وقد تنزلُ عن رُتبَةِ الحَـرام إلى الكراهَـةِ، وقـد تكـونُ مندوبـةً بحسـبِ سياقها وظرفِها، لكن ليسَ منها ما هوَ واجِبٌ ولا رَيب.

فالطُّرفَةُ إذن قد تكونُ كُفراً وردَّةً إذا تضَمَّنت الاستهزاءَ بـاللهِ تَعـالى أو بدينه أو برُسُلِهِ أو المقَدَّساتِ التي لا يُسمَحُ بالاستخفافِ بها بحال.

وتكونُ مُحَرَّمَةً إذا اقـترَنَ بهـا أَمـرٌ مُحَـرَّمٌ، كالغيبَـةِ والهَمـزِ واللَّمـزِ، لشَـخصٍ أو جَماعَـةٍ أو قَـومٍ، وكـذا السُّـخريَةُ مـنهُم، وإيـذاءُ مَشـاعِرِهِم وجعلُهُم مَوضِعَ ازدِراءٍ وتَنَدُّرٍ لَدَى السامِعين.

وتكونُ الطرفَةُ محرَّمةً كذلك إذا تضمَّنتْ فُحشاً من القولِ وبَـذاءَةً، أو معانيَ جنسيَّةً مثيرةً للغرائِز، ومعانيَ تهدِمُ الأَخلاقَ وتُجَـرِّئُ علـى الفَسـادِ والفجورِ وسوءِ الأَدَب.

وتكونُ مكروهَةً إذا أكثَرَ منها المرءُ وزادَت عن حَدِّ الاعتدالِ.

وتكونُ مُباحَةً إذا سَلِمَت من جميع الآفاتِ السالِفَةِ الذِّكر، وكانت بمقدارٍ يسيرٍ لا يقدحُ بمروءَةِ عُقَلاءِ الناس، وهو مقدارُ الملحِ من الطعام.

وهي وسيلَةٌ للمُطايبةِ والمُلاطَفَةِ وتسليةِ المُصابِ وإدخالِ السُّرور عليه، وتنفيس الغَضَب عن الغَضبان، والترويح عن النفس لاستِئناف الجِدِّ والنشاط في طلَبِ العِلم أو الاجتهاد في الطاعَة، وهو ما ينقُلُ مرتَبَةَ الطرائِفِ في هذه الأَحوال إلى النَّدبِ والاستحباب، والأُمورُ بمقاصِدِها.

وقد رويَ عن عليٍّ بنِ أَبي طالِبٍ E قولُه:

[اجمَعوا هذه القُلوبَ وابتَغوا لها طَرائِفَ الحِكمَةِ فإنَّها تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأَبدانُ][1].

وأَخرَجَ البَغَويُّ في "شرح السنَّة" عن قسامَةَ بنِ زُهَير:

[رَوِّحوا القُلوبَ تَعي الذِّكرَ][2].

أمَّا حديثُ: (**ويلٌ لِمَن تحدَّثَ بحديثٍ لِيُضحِكَ الناسَ فيكذِب، ويلٌ له، ويلٌ له**)[3]. فقد يُنزِلُه بعضُهم على الطَّرائِفِ و(النكَت) التي لم تقَع في الواقِع، وهيَ من نَسج خَيالِ أَهلِ الفُكاهَةِ، باعتبارها كَذِباً، وغايتُها إضحاكُ الناس .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/٢٠٨).

(٢) وكذا في "حلية الأولياء" لأبي نُعيم (٣/١٠٤) عن أبي موسى الأشعري وأبي هريرة، Γ.

(٣) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والدارمي.

والحقُّ أنَّ الحديثَ عندَ التأمُّلِ فيه لا نَجِدُهُ ينُصُّ على هـذا النَّـوعِ مـن مُستَدعِياتِ الضَّحِكِ، لأَنَّ الكَذِبَ هو أَن يُخبِرَ المرءُ بواقِعةٍ لم تقَع على أنَّها وقعَت، ويريدُ إفهامَ السامِعِ أنَّها وقَعَت، كما هوَ الحـالُ في البدعَـةِ العالميَّـةِ الكُبرى التي تُسمَّى "كذبةُ أبريل" حيثُ يُطلِقُ الناسُ في هذا الشهرِ أَخبارًا كاذبةً تبلُغُ الآفاقَ، ومنها ما هو مُـرَوِّعٌ، ويُصَـدِّقُها النـاسُ لأَوَّلِ الأَمـرِ، ثُـمَّ يُخبرونَهُم بعدَ ذلكَ بأَنَّها مجرَّدُ " كذِبَة أبريل" ليَضحَكوا !!

وأمَّا الطَّرائِفُ، فإنَّها وإن كانَت لم تَقَع فإنَّ السامِعَ لها يعلَمُ مُسبَقًا أَنَّها من نَسجِ الخَيالِ وفيها مَوقِفٌ مُضحِك، وسـياقُ الطرائِـفِ مُختَلِـفٌ يعرفُـهُ السامِعُ، فمَخرَجُها أقرَبُ ما يكونُ مـن ضَـربِ المثـال للشَـيءِ وإن لم يكُـن حَقيقيًّا، وهو من قبيلِ القِصَّةِ والروايَةِ التي يؤلِّفُها الأُدَباءُ، وهيَ من الفنونِ الأَدَبية التي لم يحرِّمها دينُنا وبقيَت على حُكم الإباحَةِ الأَصليَّةِ، لكِنَّ حُكمَها يختلِفُ باختِلافِ مَضمونِها وغايتها.

والخُلاصَةُ ؛ أنَّ الطرائِفَ ليسَت من قَبيلِ الكَذِبِ الذي تناوَلَهُ الحَديث، لأنَّ المتكلِّمَ لا يُخبرُهُم بما يُريدُ منهم أَن يُصَدِّقوه، وهُم يُدرِكونَ أَنَّهُ لا يُريـدُ منهُم ذلك، واللهُ تعالى أعلم.

ومعَ ذلك فإنَّ الإكثارَ من (النُّكات) المُباحَةِ يُدخِلُها في المحظور، لا سيَّما في وقتِنا الحاضِرِ الذي تقَدَّمَت فيه وسائِلُ التواصُلِ الاجتِماعيِّ إلى حَدٍّ كبيرٍ، وانتَشَرَت المُراسَلاتُ عَبرَ البريدِ الإلكترونـيِّ والهواتِـفِ النقَّالَـةِ ونَحوهـا، حيثُ أشارَت الدراساتُ والإحصائياتُ إلى أنَّ الرسـائلَ المتضـمِّنَةَ للنُّكـاتِ والطرائِف تحتَلُّ النسبَةَ الأَعلى بَينَ ما يَتَداوَلُهُ الناسُ من الموضوعات !

وهذا إن دَلَّ على شَيءٍ فإنَّما يَدُلُّ على انتِشارِ نَمَطيَّةِ الشَّخصيَّةِ الهزليَّةِ في المجتَمَعاتِ المعاصِرَةِ، وتَدَنِّي مُستَوى الجِدِّيةِ، وهو ما تُهـدَرُ بـهِ الأَوقـاتُ وتضيعُ به الأَعمارُ، وتُهَدَّدُ به المروءاتُ!

حكمُ حكايةِ الأقوالِ الكُفرية مُفَصَّلَةً عن أصحابها للرَدِّ عليها

لقَد حَكى لنا القُرآنُ مَقالاتِ أَهلِ الكُفرِ المُختَلِفَةَ، منها:

"إنَّ اللهَ فَقيرٌ ونحنُ أَغنياء"، "إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثَة"، "إنَّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مَريَم"! "يَدُ اللهِ مَغلولَة".

كلُّ ذلك ورَدَ في سياقِ الرَّدِّ عليها ونَقدِها والتشنيع على أَهلِها، فما كانَ من الحِكايةِ على ذلكَ النَّحو، وهوَ نَقلُ الأَقوال الشنيعَةِ لِغَرَض التعرُّفِ عليها، وضَربِ المِثال بها، والقياسِ عليها، فلا شَكَّ أنَّ هذا موافِقٌ لطريقَةِ القُرآنِ وأُسلوبهِ في الَردِّ على أَصحابِ المقالات الباطِلَةِ بما فيها مقالاتُ الكُفرِ.

قال ابنُ حَجَرَ الهيتَميُّ ω:

[وقد أجمعَ السلَفُ والخلَفُ على حِكاياتِ مَقالاتِ الكَفَرَةِ والملحِدين في كُتُبهم ومجالِسِهم لبيانِها وردِّها، وإن كانَ على وَجهِ الحِكايات والأَسماءِ والطُّرَفِ وأَحاديثِ الناسِ ومَقالاتِهم في الغَثِّ والسَّمين، وهوَ الكلامُ الجامِعُ لاختِلافِ الدِّلالاتِ حُسنًا وقُبحًا، إذ الغَثُّ الهزيلُ ونوادِرُ السُّخَفاءِ والخَوضُ في قيلَ وقالَ وما لا يعني، فكلُّ هذا ممنوعٌ منهُ، وبعضُهُ أَشَدُّ في المَنعِ والعُقوبَةِ من بَعض][1].

(١) الإعلام بقواطع الإسلام (٢/٣٨٥).

أمَّا إذا كانَت الحِكايَةُ لقَصدِ التَّفَكُّهِ لا الرَّدِّ عليها، فذاكَ شَأنٌ آخَرُ !!

قال القاضي عياضٌ ۞:

[فأمَّا ذكرُها على غيرِ هذا، من حِكايَةِ سَبِّهِ والإزراءِ بمَنصِبهِ على وَجهِ الحكاياتِ والأَسمارِ والطُّرَف وأَحاديث الناس ومَقالاتِهم في الغَثِّ والسَّمين، ومضاحِكِ المُجَّانِ، ونَوادِرِ السُّخَفاء، والخَوضِ في قيلَ وقالَ، وما لا يَعني، فكلُّ هذا ممنوعٌ، وبعضُهُ أشَدُّ في المنع والعقوبَةِ من بَعض، فما كان من قائِله الحاكي لهُ على غير قَصدٍ أو معرِفَةٍ بمقدار ما حَكاهُ، أو لم تكُن عادَتَه، أو لم يكن الكلامُ من البشاعَةِ حيثُ هو، ولم يَظهَرْ على حاكيه استحسانُهُ واستِصوابُهُ، زُجِرَ عن ذلك، ونُهيَ عن العَودَةِ إليه، وإن قوِّمَ ببعضِ الأَدَبِ فهو مُستوجِبٌ له، وإن كانَ لفظُهُ من البشاعَةِ حيثُ هو، كانَ الأدَبُ أَشَدَّ.

وإن اتُّهِمَ هذا الحاكي فيما حَكاهُ أنَّه اختَلَقَهُ، ونَسَبَهُ إلى غيرِه، أو كانَت تلكَ عادَةً له، أو ظهَرَ استِحسانُهُ لذلك، أو كانَ مولَعًا بمثلِهِ، والاستخفافُ له، أو التحفُّظُ لمثلِهِ، وطلَبُهُ، وروايَةُ أَشعار هَجوه ﷺ وسبِّهِ، فحُكمُ هذا حُكمُ السابِّ نَفسِه، يؤاخَذُ بقوله، ولا تنفَعُهُ نسبتُهُ إلى غيره، فيُبادَرُ بقَتلِه، ويُعَجَّلُ به إلى الهاوية أُمِّه][1].

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٢٤٧).

الغفلةُ وخطورتها

إنَّ ممَّا يعصِمُ المرءَ من الوقوع في المعصيَةِ هو تَيقُّظُهُ الدائِم، ويُقابلُ اليقظَةَ الغفلَةُ، وهي نومُ القَلب، وفُقدانُ الحِسِّ، فالغافِلُ لا يدري، ولا يدري أنَّهُ لا يَدري !! فتراهُ سميعاً ولا يَسمَعُ، وبصيرًا ولا يُبصِرُ، قال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٩٨] !

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩].

قال الإمامُ ابنُ القيِّم ©:

[فإنَّ الغفلةَ نومُ القلب، ولهذا نجدُ كثيرًا من الأَيقاظِ في الحِسِّ نيامًا في الواقِع، فتَحسَبُهُم أَيقاظًا وهُم رُقودٌ[١]، ضِدُّ مَن يكونُ يقظانَ القَلبِ وهو نائِمٌ، فإنَّ القَلبَ إذا قَويَت فيه الحياةُ لا ينامُ إذا نامَ البَدَن][٢].

فمَن أَرادَ اللهُ به خَيرًا بَصَّرَهُ بعيوبِ نَفسِهِ، وهَداهُ لمعرفَةِ عُيوبهِ وأَخطائِهِ، ومَن لم يُرِدْ بهِ خَيرًا، وكَلَهُ إلى نفسِهِ، وأَعماهُ عَن عيوبها

(١) هذا اقتباس بديع محمود للآية.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢٨٤/٣).

ومَساوئِها ، فلا يَزالُ فَرِحًا مَسرورًا بأَعماله ، غارقًا في غَفلَتِهِ ، حتَّى يأَتيَهُ رُسُلُ رَبِّه لقَبضِ روحِهِ ، وحينَئذٍ يُدركُ وقد فاتَ أَوانُ الإدراك ، أَنَّهُ كانَ في غُرورٍ وَعَمى، ويبدو له ما لم يكُن في الحُسبان !

قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣- ١٠٤].

وأَخطَرُ مِن ارتِكابِ الذنوبِ هو المكابَرَةُ والعِنادُ والإصرارُ عليها، وإذا نُصِحَ المرءُ لا يَنتَصِح، وإذا ذُكِّرَ لا يَذكُرُ !

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة:٢٠٦].

ماذا يفعلُ من ابتُلي بهذا المرض

لا شكَّ أنَّ الواجبَ على مَن أَدركَ أنَّهُ مُذنِبٌ أن يفعَلَ ما يفعَلُهُ المذنبونَ من المبادَرَةِ بالتَّوبَةِ النَّصوح، بشُروطِها المعروفَةِ، فيندَمَ على ما فرَّطَ في جَنْبِ اللهِ تعالى، ويستَشعِرَ خُطورَةَ المُضيِّ قُدُمًا في هذا الذَّنبِ المُوبِقِ، فيُقلِعَ على الفَوْرِ، ويَعزِمَ على عَدَمِ العَوْدِ، ويَسعى في الإصلاحِ بقَدْرِ ما أَفسَدَ، والإحسانِ بقَدْرِ ما أَساءَ، فيَنشُرَ الوَعيَ اللازمَ بينَ أَقرانِهِ ومَعارِفِه وينصَحَ لهم، ويُذكِّرَهُم بما ينفَعُهم، ويُحَذِّرُهُم مما يُفسِدُ عليهم دينَهم وإيمانَهم، وأن يُريَ اللهَ تعالى من نَفسِهِ صِدقًا وانكِسارًا، لعَلَّ اللهَ أن يقبَلَ تَوبَتَهُ، ويَغسِلَ حَوبتَه، ويعامِلَهُ بما يعامِلُ به الصادقين، أمثالَ مَخاشِنِ بنِ حُمَير.

لقد كانَ هذا الرجُلُ بينَ القَومِ الذين نَزَلَتْ فيهم آيةُ التوبَةِ، وفيه نزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ﴾ [التوبة:٦٦] ولَه قِصَّةٌ، ذكَرَها أَهلُ التفسير.

قال الإمامُ القرطبيُّ۞:

قيلَ: كانوا ثلاثَةَ نَفَرٍ، هَزِئَ اثنان وضَحِكَ واحِدٌ، فالمعفوُّ عنه هو الذي ضَحِكَ ولم يَتَكلَّم، والطائفةُ الجماعَةُ، ويُقالُ للواحِدِ على معنى نفسٍ طائِفَةٌ.

وقالَ ابنُ الأَنباريِّ: يُطلَقُ لَفظُ الجَمعِ على الواحِدِ، كَقَولِك: خَرَجَ فُلانٌ على البغالِ، قال: ويجوزُ أَن تكونَ الطائِفَةُ إذا أُريدَ بها الواحِدُ طائِفاً، والهاءُ للمُبالَغَة.

واختُلِفَ في اسم هذا الرجُلِ الذي عُفيَ عنه على أَقوالٍ ؛ فقيل: مَخْشيُّ بنُ حُمَير، قاله ابنُ إسحاق. وقال ابنُ هِشام : ويُقالُ فيه ابنُ مَخْشيٍّ . وقالَ خَليفَةُ بنُ خَيَّاطٍ في تاريخِهِ: اسمُهُ مَخاشِنُ بنُ حُمَير، وذَكرَ ابنُ عبدِ البَرِّ مَخاشِنَ الحُمَيريُّ، وذَكَرَ السُّهيليُّ مَخْشَنُ بنُ حُمَير، وذكرَ جميعُهُم أنَّهُ استَشهَدَ باليَمامَةِ، وكانَ تابَ وسُمِّيَ عبدَ الرَّحمن ، فَدَعا اللهَ أنْ يُقتَلَ شهيدًا ولا يُعلَمَ بقَبره.

واختُلِفَ هل كانَ مُنافِقًا أو مُسلِمًا، فقيلَ : كان مُنافقًا ثُمَّ تابَ توبَةً نَصوحًا، وقيلَ: كانَ مُسلِمًا، إلا أَنَّهُ سَمِعَ المُنافقينَ فَضَحِكَ لهُم ولم يُنكِرْ عليهم][1].

وقال الإمامُ الطَّبَريُّ ۞:

[.. ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ﴾ وذُكِرَ أَنَّهُ عُنِيَ بالطائِفَةِ في هذا الموضِعِ رَجُلٌ واحِدٌ، وكانَ ابنُ إسحاقَ يقولُ فيما حَدَّثَنا به ابنُ حُمَيدٍ، قال: ثَنا سَلَمَةُ ، عن ابنِ إسحاقَ ، قال: كانَ الذي عُفيَ عنهُ فيما بَلَغَني مخشيٌّ

(١) "الجامع لأحكام القُرآن" للإمام القرطبي (٨/ ١٩٩).

بنُ حُمَيرٍ الأَشجَعيُّ حَليفُ بني سَلَمَةَ، وذلك أَنَّهُ أَنكرَ مِنهُم بعضَ ما سَمِعَ.

حَدَّثنا ابنُ وَكيع، قال: ثَنا زَيدُ بنُ حِبَّانَ، عَن موسى بنِ عُبَيدَةَ، عن محمَّدِ بنِ كَعب: ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ﴾ قال: طائِفَةٌ: رَجُلٌ. واختَلَفَ أَهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقَالَ بعضُهُم: معناه: إن نَعْفُ عن طائِفَةٍ منكم بإنكارِهِ ما أَنكَرَ عليكم من قَبلُ الكُفرَ، ﴿نُعَذِّبْ طائِفَةً﴾ بكفرِهِ واستِهزائِهِ بآياتِ اللهِ ورَسولِه][1].

ومما يُعينُ العبدَ على تحقيق التوبَةِ ودَوامِها وعَدَم العَودِ في الذَّنبِ، الابتعادُ عَن رُفَقَاءِ السوءِ من الهازلين، واستبدالهم بالإخوان الصالحين الطيِّبين، الذين إذا نَسيَ ذَكَّروهُ، وإذا ذَكَرَ أَعانوهُ، لأَنَّ الصاحِبَ ساحِبٌ، والمُجالِسَ مُجانِسٌ، والمرءُ على دين خَليله.

إذا كُنتَ في قومٍ فصاحِب خِيارَهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الرديِّ

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكلُّ قرينٍ بالمُقارَن يقتدي

وعليه أَن يبتَعِدَ كذلكَ عَن المجالِس التي لا يُعَظَّمُ فيها اللهُ تعالى ولا تُراعى فيها حُرُماتُهُ، ويقَعُ فيها المحظورُ من سُخفِ القَولِ وهُجر النُّطق، ويكونُ عاجزًا عن الإنكار وَالنُّصح، لأَنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ﴾ [النساء:١٤٠].

(١) "جامع البيان في تفسير القُرآن" للإمام الطبري (١٤/ ٣٣٦-٣٣٧).

الخاتمة

لقد حاوَلتُ في هذا الكتابِ أَن أَسُدَّ ثغرًا، سَدُّهُ في نظَري مـن أَوجَـبِ الواجبات، لتَعَلُّقِهِ بالتَّوحيدِ الذي هو أوكَدُ الواجباتِ على المكَلَّفِ، والذي مَبناهُ على تعظيم اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، ولتَهاونِ الناسِ فيهِ إلى حَدِّ الغَفلَةِ المُطبقَةِ، والبَلِيَّةِ المُحدِقَةِ، والمعصيَةِ المُحرِقَةِ.

لقد رَجَعتُ في هذا البحـثِ إلى عَشَـراتِ المراجِـع، واسـتَقرَأتُ آلاف الصَفَحات، من كلامِ أَهل العِلم والفِقهِ، راجيًـا مـن اللهِ تعـالى بعـدَ هـذا الجهدِ أَن يُكلَّلَ بالقَبول الحَسَنِ عندَهُ، ومن ثمَّ لَـدى عبـادِهِ الـذينَ يُحِبُّونَـهُ ويريدونَ وَجهَهُ، وقد ابتُلوا بهذا الداءِ، أن يُحدِثَ في حياتِهم نقلَـةً نَوعيَّـةً فارقةً، وتوبةً نَصوحًا صـادِقَةً، وأن لا تأخُـذَهُم العِـزَّةُ بـالإثم، فقـد قامَـت الحُجَّةُ واتَّضَحَتْ المَحَجَّة.

قد لا يكونُ الكتابُ كبيرًا في حَجمِهِ، وعَـدَدِ صَـفَحاتِهِ، لكِـنَّني أَعتَقِـدُ جازمًا أَنَّهُ كبيرٌ في مَضمونِهِ وفَحواهُ، وأَرجو أَن يكونَ كذلك في أَثَرِهِ وانتِفاع الناسِ به، فَلأَن يَتوبَ بسَبَبه آحادُ الناس من سَقَطاتِ أَلسِنَتِهم، أَحَبُّ إلـيَّ من كذا وكذا، فكيفَ إذا تابَ بسَبَبه آلافُ النـاس، وتَواصَـوا فيمـا بيـنَهم بنُصحِ مَن وراءَهُم، وأَقلَعَ جمهورُ المسـلمين عـن هـذا المـرَض، وانحسَـرَتْ وتلاشَتْ تلكَ الظاهِرَةُ، وهذا ما أَرجوهُ من رَبِّي ذي الجَلالِ والإكرام.

نعَم، هُناك فِئامٌ قد لا تتَّفِقُ معي أو مع الكتابِ أو معَ بَعضِ ما في الكتاب، وهذا أمرٌ طَبيعيٌّ، مِثلُهُ لا يُعيقُ الدُّعاةَ والمصلِحينَ في سَيرِهِم وسيرَتِهم في الإصلاح، فإنَّ المُخالَفَةَ والمعارَضَةَ لا يخلو منها زَمانٌ ولا مَكانٌ، لِتَفاوتِ الناسِ في مَداركِهم ومَشاربهم، ولكن ما أُحَذِّرُ منهُ هو أنَّ بعضَ الناسِ إذا قيلَ له اتَّقِ اللهَ أخذتْهُ العزَّةُ بالإثم، ودافَعَ عن ذاتِه، ورَفَضَ النُّصحَ، لِمَرَضٍ خَفيٍّ، فمثلُ هذا يُخشى عليهِ الهَلاكُ، نَسألُ اللهَ العافيَةَ والسلامَةَ.

وإنَّني ليَحزُنُني أن أَجِدَ أَهلَ المبادئ الساقِطَةِ، والعَقائِدِ الفاسِدَةِ الهابِطَةِ، لدَيهم من الغَيرةِ على مَبادِئِهم ورُموزهِم ما هو أَعظَمُ من غَيرَةِ أَبناءِ الإسلامِ على دينِهم ونَبيِّهم ومُقدَّساتِهم !

وقد حدَّثَني مَن أَثِقُ به بهذِهِ الحادِثَةِ:

في إحدى البلادِ العَرَبيَّةِ كانَت البياناتُ العَسكريَّةُ تَذكُرُ غزَواتِ الطائراتِ على العَدوِّ، ثُمَّ يختِمُ المُعَلِّقُ عادَةً بقَولِهِ: "ورَجَعَتْ إلى قواعِدِها سالِمة".

قال: رَكِبَ رجُلان في إحدى حافلاتِ النَّقل، فهَمَّ كُلٌّ منهما أن يدفَعَ الأُجرَةَ، وأخرَجَ كلٌّ منهما نقودَه، فلمَّا سَبَقَ أحدُهما صاحِبَه، أرجَعَ نُقودَه إلى جيبِه وقال: "ورجَعَتْ إلى قواعِدِها سالِمة"، فماذا كان؟!

لقد قامَ أَحَدُ الجالسين في الحافِلَةِ مِن رجالِ الأَمنِ السرِّيِّ مُغضَباً، وأَخَذَ بيَدِهِ وقال: أَتَهزَأُ بالدولةِ وبالقواتِ المُسَلَّحَةِ وبالرئيس؟! وأَنزَلَهُ من الحافلةِ واقتادَهُ إلى حَيثُ لا يَعلمُ أَحَدٌ.

فيا عَجَبًا لهذه الغَيرَةِ ! ويا عجبًا لهذا الغَضَب ! كيفَ أنَّهُ فَهِمَ كلامَ الرجُلِ بأَنَّهُ سُخريَةٌ من البَيانِ العَسكريِّ، ويلزَمُ من هذا السُّخريَةُ من الدولةِ والرئيس!

ليتَ للمُسلمين مثلَ هذهِ الغَيرَةِ على دينِهم ومُقَدَّساتِهم ! بل يؤسِفُني أن أقولَ: ليتَهُم يَكُفُّونَ ألسِنَتَهم عن الهَزلِ بالدين وأَهلِه.

لقد خلُصنا في بحثِنا إلى خَطَرِ هذِهِ الآفَةِ، وأَنَّها قد تَبلُغُ حَدَّ الردَّةِ عن الإسلام، وأَعجَبُ ما في الأَمرِ صُدورُها من أَهلِ العِلمِ والفَضلِ وحَمَلَةِ القُرآن، وتَهاونُهُم الكبيرُ في الوقوع فيها على عِظَمِها، وهيَ في أَعيُنِهم من مُحَقَّراتِ الذنوبِ، بل منهُم مَن لا يَعُدُّها من الذنوبِ أَصلاً !

وما أَصدَقَ قَول أَنَسِ بنِ مالِكٍ E فيهم حينَما قالَ لأَصحابهِ في عَصرِهِ، وهُم في قُرون الخَيريَّة : [إِنَّكُم لتَعمَلونَ أَعمالاً هيَ أَدَقُّ في أَعيُنِكُم مِن الشَّعرِ إن كُنَّا لَنَعُدُّها على عَهدِ النَّبيِّ ﷺ منَ الموبِقات][1].

[فمَن لم يَتُب من هذا الذَّنبِ العَظيمِ وَقَد استَبانَ الرُّشدُ من الغَيِّ فهو على خَطَرٍ بالِغٍ، وَجُرمٍ سابغ.

---

(١) رواه البخاري برقم ٦١٢٧ ، باب [ما يتقى من محقرات الذنوب].

وأمَّا مَن رامَ التوبَ والأَوبَ، فمَن يَحولُ بينَهُ وبَينَ الرَّبِّ الرَّحيم التَّوَّابِ، ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص:٦٧]

فاللهُ هو التوابُ الرحيمُ، يغفِرُ الذنبَ، ويقبَلُ التوبَ، ويُفرِّجُ الكرْبَ، قالَ جلَّ جلالُه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]

قالَ الشَّيخُ السَّعديُّ ۞:

[وأنَّ مَن استَهزأَ بشَيءٍ مِن كتابِ اللهِ أو سُنَّةِ رَسولِهِ الثابتَةِ عنه، أو سَخِرَ بذلك، أو تَنَقَّصَه، أو استَهزأَ بالرسول، أو تنَقَّصَهُ، فإنَّهُ كافِرٌ باللهِ العظيمِ وأنَّ التوبَةَ مَقبولَةٌ من كُلِّ ذَنبٍ وإن كانَ عَظيماً][1].

قد يقولُ قائِلٌ: إنَّ الأَحكامَ في الكتابِ جاءَت شَديدَةً وصادِمَةً، وأُجيبُ عن ذلكَ بأَنِّي لم آتِ بشَيءٍ من عِندي، وكُلُّ مَسأَلَةٍ طَرَحتُها قد نَقَلتُ من أقوالِ العُلَماءِ ما يكفي على موافَقَتِها، فدَوري في الكتابِ هوَ إبرازُ أَقوالِ العُلَماءِ والكَشفُ عنها من غَيرِ تَوجيهٍ لها ولا تَحَكُّمٍ فيها، وهيَ من الوضوح بمكانٍ جَعَلَني أَستَغني عَن التَّعليقِ على كثيرٍ منها.

ويُعجبُني أَن أَنقُلَ في هذا المقامِ ما رويَ عن الحسَنِ البَصريِّ أنَّهُم سأَلوهُ: يا أَبا سَعيد، إنَّنا نَصحَبُ أَقوامًا يُخَوِّفونَنا حتَّى تَكادَ قُلوبُنا تَطيرُ!

---

(١) تفسير الكريم المنان: ص:٣٤٢.

فقال: [لأَنْ تَصحَبَ أقوامًا يُخَوِّفونَكَ حتَّى تُدرِكَ أَمنًا خيرٌ لكَ من أن تصحَبَ أَقوامًا يؤمِّنونَكَ حتَّى تُدرِكَ خَوفًا][1].

وإن كانَ مِن شِدَّةٍ في الحَقِّ فَهيَ مُمتَزِجَةٌ بالرَّحمَةِ والشَّفَقَةِ، إذ التَّهوينُ لِعَظائِمِ الأُمورِ وَالمُداراةُ فيها أَمرٌ غيرُ مَحمودٍ، وللهِ دَرُّ القائِلِ:

وقَسَى ليَزدَجِروا ومَن يَكُ حازمًا ... فلْيَقسُ أَحيانًا على مَن يَرحَم

وقد يَقولُ قائِلٌ:

قد أكثَرتَ من ذكر الشواهِدِ والأَمثِلَةِ في الاستِهزاءِ بالدِّين، ومنها ما يتضمَّنُ أَحيانًا صوَرًا تَدعو إلى الاشمئزاز ؟

فأُجيبُهُ، **أولاً**: بأَنَّ ما تركتُه من الصوَر أضعافُ ما ذكرتُ.

وثانيا: أقولُ ما قالَهُ القاضي عياض:

[وإنَّما أَكثَرنا شاهِدَنا معَ استِثقالِنا حِكايَتها لتَعريفِ أَمثِلَتِها، ولِتساهُلِ كثيرٍ من الناسِ في وُلوجِ هذا البابَ الضَنِك، واستخفافِهم فادِحَ هذا العبءِ وقِلَّةِ عِلمِهم بعظيمِ ما فيه من الوِزرِ، وكلامهم منه بما ليس لهم به علم، ويحسبونَهُ هَيِّناً وهو عندَ اللهِ عَظيم][2].

في نهايةِ المطافِ والتَّطوافِ، لا أَستَطيعُ أَن أُخفيَ شعوري بالارتياح

(١) "الداء والدواء" لابن القيم (٥٣، ٥٤).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/٢٤٠).

لإتمام هذا العَمَل، والحمدُ للهِ الذي بنعمتِهِ تَـتِمُّ الصـالِحاتُ، وهـذا جهـدٌ بَشَرِيٌّ غيرُ معصومٍ، ولا أَدَّعي فيـه الكمـالَ، فـإن أَصـبتُ فمِـن اللهِ تعـالى وبتوفيقه ومِنَّته، وإن أخطأتُ فمن نفسي.

أسألُ اللهَ العظيمَ، الحليمَ الكريمَ، أن يَرزُقَنا الإنابَةَ والتسليمَ، والقَلبَ الخالِصَ السليمَ، وأن يقيَنا العَـذابَ الأَلـيمَ، وأن يجعَـلَ هـذا العمَـلَ كُلَّـهُ صَوابًا، ولوجهِهِ تعالى خالِصًا، وألا يَجعَلَ لغـيرِهِ فيـهِ شَـيئًا، وأن يَنفَـعَ بـهِ خَلقًا كثيرًا، إنَّهُ كانَ عَليمًا قَديرًا.

وآخرُ دَعوانا أَن الحمدُ للهِ رَبِّ العالمين.

كتَبَـــهُ: الفقـــيرُ إلى عَفوِ رَبِّه

جمال الباشا

١٣ـ ربيع الآخرة / ١٤١١ هـ

أهمُّ المَراجع

١. إحياء علوم الدين/ للإمام محمد بن محمد أبو حامد الغزالي.
٢. صحيح الترغيب والترهيب/ للحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري ، بتحقيق الألباني.
٣. الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة/ عبيد الله ابن محمد بن بطة العكبري.
٤. الصمت وآداب اللسان/ عبد الله محمد عبيد البغدادي أبو بكر ابن أبي الدنيا.
٥. الزهد والرقائق/ عبد الله بن المبارك المروزي.
٦. رياض الصالحين / يحيى بن شرف النووي محي الدين أبو زكريا.
٧. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين/ محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية.
٨. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / عبد الرحمن بن ناصر السعدي.
٩. التفسير الكبير/ أحمد بن عبد السلام بن تيمية الحرّاني.
١٠. صحيح الجامع الصغير / محمد ناصر الدين الألباني
١١. الدر المنثور في التفسير بالمأثور/ جلال الدين السيوطي
١٢. لسان العرب / محمد بن جلال الدين الخزرجي ابن منظور.
١٣. معجم مقاييس اللغة / أحمد بن فارس بن زكريا.
١٤. الفتاوى الكبرى / أحمد بن عبد السلام بن تيمية الحرّاني.
١٥. الجامع لأحكام القُرآن / محمد بن أحمد بن أبي بكر للقرطبي.
١٦. تفسير القُرآن العظيم / للحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير.
١٧. شرح ألفاظ الكفر/ بدر الرشيد الحنفي.
١٨. روضة الطالبين وعمدة المفتين/ محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي.

١٩. الفصل في الملل والأهواء والنحل/ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي.

٢٠. اللمع في الحوادث والبدع/ محمد بن إدريس بن بيديكين التركماني الحنفي.

٢١. رسالة في ألفاظ الكفر لمحمد بن إسماعيل الرشيد الحنفيِّ.

٢٢. الشفا بتعريف حقوق المصطفى/ القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي.

٢٣. شرح الفقه الأكبر/ ملا علي القاري.

٢٤. الفتاوى البزازية / محمد شهاب البزاز الكردي الحنفي.

٢٥. البحر الرائق شرح كنز الدقائق/ زين الدين ابن نجيم الحنفي.

٢٦. الدين الخالص / محمد صديق حسن خان القنوجي.

٢٧. مختصر أخلاق العلماء / أحمد بن علي أبو بكر الجصاص.

٢٨. الصارم المسلول على شاتم الرسول/ أحمد بن عبد السلام بن تيمية.

٢٩. روضة الطالبين وعمدة المفتين/ يحيى بن شرف النووي محي الدين أبو زكريا.

٣٠. كشاف القناع عن متن الإقناع/ منصور بن يونس بن إدريس البهوتي.

٣١. المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار/ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي.

٣٢. المجموع الثمين/ محمد بن صالح العثيمين.

٣٣. الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد/ صالح بن فوزان الفوزان.

٣٤. كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد تحقيق: شعيب الأرناؤوط .

٣٥. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد / سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب.

٣٦. الوجيز في أصول الفقه/ عبد الكريم زيدان.

٣٧. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة/ محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية.
٣٨. تلخيص كتاب الاستغاثة / أحمد بن عبد السلام بن تيمية الحرّاني.
٣٩. سلسلة الأحاديث الصحيحة / محمد ناصر الدين الألباني.
٤٠. الشريعة / أبو القاسم محمد بن الحسين الآجرّي.
٤١. تفسير المنار/ محمد رشيد رضا.
٤٢. الحاوي للفتاوى / جلال الدين السيوطي.
٤٣. إخلاص الناوي في شرح إرشاد الغاوي إلى مسالك الحاوي للقزويني/ إسماعيل بن أبي بكر، ابن المقري.
٤٤. إعلام الموقعين عن رب العالمين/ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية.
٤٥. الإعلام بقواطع الإسلام / ابن حجر الهيتمي.
٤٦. المنثور في القواعد الفقهية / بدر الدين الزركشي.
٤٧. ردّ المحتار على الدرّ المختار/ محمد أمين بن عمر عابدين.
٤٨. فتح العلام بشرح مرشد الأنام/ محمد بن عبد الله الجرداني.
٤٩. مختار الصحاح/ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي.
٥٠. القاموس المحيط / مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي.
٥١. تعظيم قدر الصلاة / محمد بن نصر المروزي.
٥٢. واقعنا المعاصر/ محمد قطب.
٥٣. التحفة العراقية في الأعمال القلبية / أحمد بن عبد السلام بن تيمية الحرّاني.
٥٤. سير أعلام النبلاء/ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي.
٥٥. فتح الباري بشرح صحيح البخاري / أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
٥٦. الحدائق في علم الحديث والزهديات / أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي.
٥٧. أدب الدنيا والدين / أبو الحسن الماوردي الشافعي.

٥٨. الأذكار / أبو زكريا يحيى بن شرف النووي محي الدين.
٥٩. الإتقان في علوم القُرآن / جلال الدين السيوطي.
٦٠. جامع بيان العلم وفضله/ أبو الأشبال الزهيري ابن عبد البر.
٦١. الداء والدواء/ محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية.

الفهارس